سلسلة منشورات مختارة (1)

مركز فضاء الشرق الثقافي

سويسرا.

رجل المرايا المهشمة

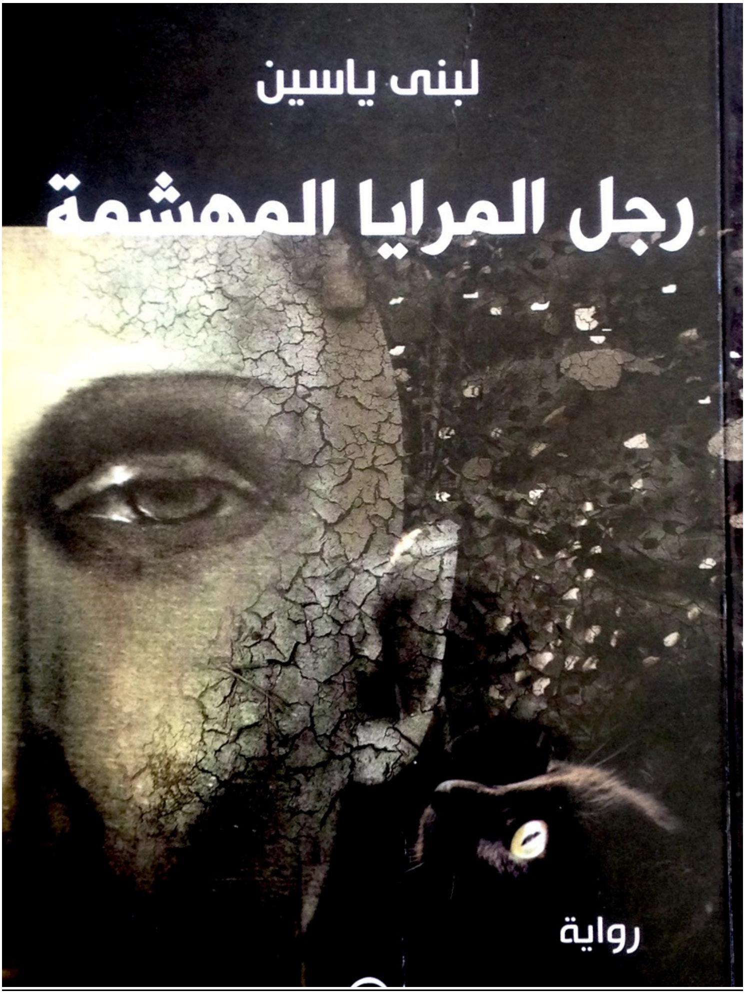

تصميم الغلاف

للفنانة التشكيلية سوزان ياسين

رجل المرايا المهشمة

رواية

لبنى ياسين

مقدمة:

أذكر أنه في أيام طفولتي كان فيمن حولنا عائلة لديها ولد وسيم جداً، ومسالم، وهادئ، إلا أنه كان يعاني من تخلف عقلي ليس في أشد أحواله، بل ربما كان من أخف حالات التخلف العقلي المتعارف عليها، اعتادت أمه أن تفتح باب البيت له منذ أن يستفيق صباحاً، وتطلقه في الشارع مبتهلة إلى الله أن تصدمه سيارة فتنهي ابتلاءها به.

تجربة أخرى أقف أمامها احتراماً وتقديراً، رأيتها في التلفاز لشابة أغلب الظن أنها صارت في العشرينيات من عمرها، ولدت بحالة تلف دماغي شديد، جعل الأطباء في الكويت وفي الخارج يجمعون على أنه لا فائدة من علاجها، فهي عاجزة عن التواصل، إلا أن أمها لم تستسلم، فابتكرت طريقة معقدة قليلاً للتواصل معها بعد

تفكير وبحث ليسا هينين، فأحضرت لوحاً كتبت عليه حروف الأبجدية، وأمضت سنوات في تعليم ابنتها التهجئة والقراءة بطريقتها المبتكرة، وقد أثمر عمل الأم المتفاني، وظهرت ثماره من خلال كتاب ألفته الفتاة العاجزة، أو التي كانت عاجزة، كتاب كامل كانت تشير فيه إلى كل كلمة حرفاً فحرفاً فتترجمه الأم إلى كلمة مكتوبة .

إذن فقد هزمت إرادة الأم الطب والأطباء، حين حولت ابنتها من حالة ميؤوس منها، عليها أن تقبع في ركن قصي تنتظر الموت راحة لها ولكل من حولها، إلى شابة مبدعة تؤلف، وتنشر، وتتواصل بطريقتها المبتكرة مع البشر.كم هو الإنسان قادر عندما يريد!وكم هو عاجز عندما يدب في قلبه اليأس!

الفصل الأول

تلك البذرة الملعونة

في حارة فرعية من حواري دمشق الشعبية، حيث تساند البيوت العشوائية بعضها بعضاً ، وتقف كتفاً إلى كتف في مواجهة الفقر الذي يتربص بكل بيت من بيوت تلك الحارة، وفي ليلة شتوية ضلت فيها السحب الحبلى بالمطر طريقها إلى هناك، كانت الأضواء تتسلل هاربة من نوافذ البيوت التي لازمها أصحابها هرباً من البرد المتسكع يداً بيد مع الهواء الذي يطارد السكون بصفيره الموحش في الطرقات الخاوية إلا من بعض الأنفاس الباردة التي ما زالت في طريقها إلى مساكنها تلتمس فيها الدفء، وراء إحدى تلك النوافذ المجللة بستائر سميكة تحجبها عن الأنظار الفضولية..

كانت دلال تحيي مناسك الكآبة متفقدة ذكريات حزنها واحدة تلو الأخرى، كانت وحدها حبيسة غرفة متواضعة في منزل لا يعدو كونه غرفتين صغيرتين وحماما ومطبخا، تتبعثر على أطراف تلك الغرفة التي شغلتها قطع أثاث قديمة تشي

بفقر أصحابها وقلة ذات يدهم، على جدرانها المصفرّة الملونة بطلاء متآكل، تحتفي الرطوبة برائحتها وبزحفها الذي لا ينتهي ، تاركة بقعاً قبيحة تقشر من فوقها الطلاء الذي فقد لونه بسبب شيخوخة لم تكن مبكرة على الإطلاق، تلك الجدران المتآكلة تذكرها بقلب يصدأ كل يوم دون أن تتمكن من أن تفعل له شيئاً واحداً يعفيها من طعم الانكسار المر، ورائحته الواخزة، بينما تمددت سجادة حمراء على الأرض لتبعث بعض الشعور بدفء لم يستطع الوصول إلى ذلك الكائن المنكسر الجالس في الغرفة .

للمرة الأولى على امتداد عمرها الذي لم يتجاوز الرابعة والعشرين ،يهديها القدر ليلة ليست ككل الليالي، ليلة تساهر فيها ذاتها، وتتأمل خرائط نفسها، ومتاهات قلبها النازف، وحزن متهرئ لا يريد أن يفارقها، وللمرة الأولى بعد زواجها تنام وحدها مع طفليها، بعد أن سافر

زوجها لزيارة أمه المريضة التي لم تفارق القرية يوماً.

لا شيء يثير فيها دفء الحياة ونبضها منذ قذفها رحم القدر إلى رصيف الحياة، وكما فتحت عينيها للمرة الأولى على الدنيا لتجد نفسها ابنة لفلان، فتحت عيون الصبا الأول ذات يوم موحل بالبؤس لتجد نفسها زوجة لفلان آخر،كانت مشاعرها تجاهه حيادية تماماً، لم تستطع أن تحبه كما أنها لم تتمكن من كرهه، شيء بارد كفحيح حية ينمو بينهما كل يوم، وكلاهما لا يفعلان تجاهه شيئاً سوى مراقبته وهو يكبر ليصبح حقولا ًمن طحالب تمتد على بساط العمر الهارب.

زوجها رجل بدأ الصلع يهاجم رأسه بقوة، معتدل القامة، ممتلئ الجسد، تنخفض زوايا عينيه الوحشية بشكل واضح عن الإنسية، مما يكسب ملامحه انطباعاً بالحزن والتشاؤم لم يكذبهما طبعه، له رقبة قصيرة ورفيعة تبدو وكأن أقل

حركة غير مدروسة من صاحبها يمكن أن تدقها، أكسبته عادة التدخين المتواصل خشونة في الصوت، غير أن نبرة صوته كانت تعاني من انكسار غير خفي لتخرج منخفضة كما لو أنه يهمس بصراخه، علاوة على ذلك فهو رجل سلبيّ لا يكاد يتخذ موقفاً تجاه أي شيء في حياته، مسالم حتى الاستسلام ما لم تستفزه، وهي ميزة منيت بها وحدها دون سائر البشر، فلا شيء بإمكانه أن يخرجه عن صبره إلا كلمة بصوتها تحمل امتعاضاً لسبب أو لآخر، فتذكره بأنه لا شيء يذكر في الحياة.. عدا ذلك فهو هادئ حد الموت، بالكاد يتكلم، لم يكن لديه أصدقاء، ولا حتى أعداء، وما تعود أن يزور أحداً أو يزوره أحد، حتى في المرات التي حاول فيها الجيران التقرب منه بزيارة عائلية، رد عليهم السلام بسلام فاتر يشي بامتعاض لحضورهم غير المرحب به، وتركهم ومضى إلى الغرفة الثانية، وكأن أمر هذه الزيارة في بيته لا يعنيه مطلقاً، لم يكن لديه متعة في حياته تعادل الطعام، ولا هدف

يثيره كوجبة ساخنة.. يستيقظ صباحاً إلى العمل بوجه بارد لا يعلوه أي شبح لأدنى شعور، كأنه وطّن نفسه على ألا يحس بشيء، وأن يغلف وجهه بجليد الصمت، ويغطي عينيه بصقيع بارد للموت.

أما هي فتحمل وجهاً رقيقاً تتوّجه ملامح ناعمة بشكل ملفت، ينسدل شعرها الأسود على كتفيها مقاطعاً جبيناً أبيض، وعينين واسعتين محملتين بالحزن والجمال، فيزيدها الشعر المنسدل برقَّة حسناً إلى حسن، متوسطة الطول، تملك عوداً غضاً يتمايل بغنج غير مقصود، لم تستطع الخيبة أن تطفئ بربرية غنجه، , لها صوت ناعم، وإن شابته القسوة في بعض الأحيان..بركان ثائر هي تعلوه طبقات من الثلج، في دواخلها تشتعل الحرائق فيقتحم دخان الخيبة أحاسيسها المختبئة خلف جدران اللامبالاة، وتنبعث روائحه من كل خلية في جسدها دون أن يستطيع إنسان أن يتكهن مصدر الدخان وهو

يختنق باستنشاقه، غالباً ما يبدو عليها سلامٌ لا مبالٍ بأي شيء حولها، ملتبسٌ مع استسلام خفي لأنامل الزمن والظروف، تحب الناس والزحمة ، إلا أن تحية زوجها الفاترة، وهروبه لغرفته من كل ضيف، ووجهه الممتعض بوضوح جعلها تؤثر الوحدة على شبح الاستغراب والاستنكار الذي يرتسم مرة إثر مرة على وجه زوارها، وهم يذهبون إلى غير رجعة .

كانت الحياة بينهما كتلة جليدية من الرتابة القاتلة، لا جديد فيها ولا حتى قديم، عادات ألفوا فعلها كل يوم، في ذات الوقت، ودون صوت، وبالقدر نفسه من الاختناق والاشمئزاز الذي يعتلي قسمات قلبها.

ذلك اليوم عندما أخبرها بأنه مسافر، شعرت بارتياح غريب ممزوج بشيء من الخوف، كانت كطائر ولد بين قضبان قفص معتم، استفاق يوماً ليجد أن قضبان القفص قد تلاشت، وأن بوسعه أن يرى الحياة..ولكن ليس من خلف

القضبان كما كـان يفعل دائمـاً، إلا أنــه عنـدما نظر إلـى البعيـد خشـي غيـاب تلـك الخطـوط العموديـة المتوازيــة للقضــبان المعدنيــة الــتي كــانت تقطـع المشــهد أمــام نــاظريه، وتجعلــه شــرائح طوليــة متلاصقة بغير التحام، وأحس بـأن المشـهد الكامل دون تقطيـع القضـبان لـه شـيء غريـب ومخيـف، لكنــه لذيـذ للغايــة، كـأن فـي تفاصـيله ذلـك الخـط الرفيـع الفاصـل بيـن اللـذة والألـم.. وبيـن الحريـة والخـوف، بيـن السـيادة والعبوديــة، لـم تسـتطع ليلتها النوم بعد صلاة العشاء بقليل كما تعودت أن تفعل، فـذلك اليـوم كـان استثنائياً فـي كـل شــيء، حـتى فـي دبيـب تلـك الوحـدة اللذيـذة، والحريـة الصـامتة المشـبعة بنيـران الخيبـة ودخانهـا بيـن جدران متآكلة.

كـان طفلاهـا قـد نامـا فـي غرفـة نومهـا بعـد وجبـة العشــاء كعادتهمـا، وبقيـت تسـاهر خيبتهـا وحـدها، تحـدق فـي سـقف الغرفـة، تجتاحهـا آلاف المشـاعر المتضـاربة فـي اللحظـة ذاتهـا، فتنـدفع

الدموع من عينيها دون هوادة، لم يكن هذا ما حلمت به، بل طالما داعبها حلم يشرق بإكمال دراستها، ودخول الجامعة، عششت كلية الفنون الجميلة في رأسها حلماً يدغدغ صباها الذي هرب باكراً من حنايا قلبها، وفتك لقب " مهندسة ديكور" بأي أمنية أخرى حاولت أن تتربع على عرش قلبها، حلمت بأشياء كثيرة لم يكن من ضمنها ترك المدرسة، والزواج من رجل معدم الأحلام منعدم الأحاسيس ، والسكن في منزل من غرفتين صغيرتين متواضع حد حقارة العيش، دون أدنى شعور بالدفء والسكينة بين جنباته .. لكن رحيل والدها حال دون كل ذلك، فعندما مات الأب في عز شبابه إثر جلطة دماغية مفاجئة، كانت في الرابعة عشرة، طفلة تكاد تضع قدميها على أولى عتبات الصبا، جميلة الملامح، ندية التقاسيم، لها أختان في مثل جمالها إحداهما أكبر منها، والأخرى أصغر، فمضت الأم توزع فلذات كبدها على رجال الحي الذين تهافتوا للمصاهرة في مقايضة لا يزيد ثمنها عن رفع مسؤولية

فتيات جميلات ثلاث، لا يجدن ما يسد رمقهن، ولا من يحميهن من عيون تسترق النظر بوقاحة، طالما أنه ليس هناك رجل في البيت لاقتلاع تلك العيون.

كان خوف الأم من جمال بناتها وشبابهن الفائر شديداً بعد موت زوجها، هي نفسها أصبحت أرملة شابة يطمع بها كل من تسول له نفسه الغوص في الوحل، فكيف ببنات ثلاث دخلن سن المراهقة، وما خرجن منه إلا في بيوت أزواجهن.

في ذلك الوقت علمت دلال أن أباها وحلمها بدخول الجامعة، ولقب "مهندسة ديكور"، دفنوا سوية في القبر نفسه، وأهيل عليهم تراب النسيان والخيبة معا، يومها وقفت أمام قبر أبيها هي التي أدركت منذ سنين طفولتها المبكرة أنها مدللته، وأثيرة روحه، لتعرف ما معنى أن تؤدي مناسك موتها قبل أن تلفظ آخر أنفاس الوجع، ولتفهم أنه ليس كل الأموات

يودعون في القبور، وأنه ثمة أموات يمشون على الأرض يتنفسون الخيبة دون أن ينتبه من حولهم إلى رائحة التفسخ التي تعتريهم، ولتكتشف للمرة الأولى أن القبور لا تتساوى ، فبعضها يضم بعضك أو كلك ، يضم جزءاً منك أو أهم أجزائك، وبعضها لا تدري ماذا يضم تحت طبقات من التراب، بعضها يحتويك وبعضها تحتويه، بعضها يبتلع الأرض والوطن، ويجعل الانتماء أشلاء مصلوبة على حواف روح تتشظى لا تدري إلى أين تمشي بها خطى الأقدار، وتتلاشى في جنباتها كل خيوط الانتماء إلى الأمكنة والأزمنة والأحلام المؤجلة التي ألغيت بمجرد أن غاب من غاب تحت التراب .. وويلك من قبر يضم أهلك ومدينتك ووطنك وأحلامك ومشاعرك، ويترك لك ذكريات أجدتَ رسمها على ذاكرة الفقد لئلا تضيع منك تفاصيلها، لتلوكها بألم في كل يوم تعيشه بعد ذلك.

أكانت ساعة من الزمن تلك التي وقفتها دلال أمام قبر والدها ؟؟.. ساعة تحولت خلالها الدنيا إلى قبر كبير أودعت الفتاة فيه الكثير من أحلام باغتتها يد القدر، وباتت صاحبتها تعلم تماماً أنها لن تحققها يوماً، ساعة صار فيها القبر كوناً، والكون قبراً. وُقلبت فيها دلال وحياتها رأساً على عقب ، فما عادت بعدها دلال ، ولم تعد تعرف من هي تلك التي تحمل الاسم والملامح نفسها، وتواجهها كل يوم في المرآة بنظرة لا تحمل إلا الغربة والأسى.

ساعة.. ما أطول تلك الساعة، وما أقصرها! وما هو الزمن؟ أليس هو إيقاع تغيراتنا وتقلباتنا وتحولاتنا؟ و مفاهيم الأحداث التي نرسمها على أروقة الذاكرة وجدرانها بدفء أو بحزن أو بخوف أو بحب أو كره؟؟..!..

بعدها وجدت دلال نفسها في بيت متواضع لرجل لم تستطع رغم سني زواجها التي أكملت

سبعاً أن تتعرف عليه، أو أن تحبه، أو أن تكن له أي شعور، ولو حتى بالكره.

أصبحت تلك المشاعر عبئاً إضافياً زادته الحياة على عاتق خيبتها، وعلى جنازة الأحلام التي لم تكن تليق بأي حال بصبا فائر يغلي بأحلامه، ولذلك لم يعد في مقدورها أن تخرج من فجيعتها، ولا أن تودعها ركناً قصياً للنسيان عند أحد منعطفات الذاكرة المختبئة تحت طبقات من التجاهل، تلك المنعطفات التي يرمي كل إنسان على أرصفتها المغبرة خيباته وأوجاعه، لئلا تنغرس أظافر الوجع في رئة سعادته .

زادها ألماً أن يقذف رحمها بأجنة ميتة بعد حمل شهور خمسة أو ستة في أحسن احتمال لمرتين متتاليتين، مما جعل الخوف يتغلغل في فؤادها، ويضرب جذوره النتنة في أعماق ذلك القلب المتقيح بأوجاعه، وبعد أن بدت عليها أعراض الحمل الثالث ، ومن بعده الرابع، كانت تنتفض خوفاً من فقدان أولادها، فلما رأت الأول

أسـمته نـاجي، ولمـا اطمـأنت إلـى قـدوم الثـاني أسمته سالم، ولم يعارض زوجها بل على العكس تماماً، راقته فكرة الأسماء التي تحمل دلالات على النجاة والسلامة، علها تكون مبشراً ببقائهما على قيد الحياة بعد موت أخويهما.

كــان هــاجس الفقــد ـ حــتى بعــد ولادة الصغيرين- يخنقهـا، يشـعرها بـالقلق، وبـأن هنـاك خطراً ما سوف يلم بالرحم الفتي ولن يظل ولـوداً، خاصــة وأن كـل محـاولات أمهـا للحمـل أملاً فـي إنجـاب صبي بعد ثلاث بنـات، منيت بالفشل دون أن تعلم سبباً منطقيـاً لـذلك، ولـهذا بـدا أن خوفهـا علـى صـغيريها لا يضـاهى، وحبهـا لهمـا ممزوجـاً بـذلك الأرق الخفـي مـن فقـدهما فـي لحظـة غـادرة. ولأجل هذا أيضاً كانت تكثر من الاطمئنـان عليهمـا حـتى وهمـا نائمـان، وترفـض تركهمـا لينامـا فـي الصالة بعيداً عنها، حتى أنها كثيراً ما كانت تبعثر أفكارهـا علـى أزقـة القلـق الجـائرة، فتراهمـا وقـد فارقـا الحيـاة بـألف طريقـة وطريقـة، لتستيقظ من

كوابيس اليقظة على دموع لا تنقطع. وحدهما كانا نافذة للحياة تستنشق عبرها أريج الأمل, وتتنفس بعضاً من الفرح في سهو عن أحزانها.

اصطدمت أفكارها الهاربة منها في كل اتجاه بصوت طرقات على الباب، اتجهت دلال إلى الباب، وفتحته دون تفكير وبشعور حارق بالامتعاض، ظناً منها أن زوجها قد أنهى زيارته بسرعة وعاد إلى بيته، فإذا بها تتلقف ملامح أبي نعيم الجافة وراءه، برأسه الأصلع وعينيه الصغيرتين، ورائحة الغراء والخشب المنبعثة منه، داخلها إحساس خفي بالوجل، فلم يعتد أبو نعيم – وهو صاحب ورشة النجارة التي يعمل فيها زوجها- على دق باب بيتهم وزوجها موجود، فكيف به إذن وهو يعلم بكل تأكيد أن زوجها ليس موجوداً في البيت في تلك الساعة من الليل، بعد استئذانه في الغياب عن ورشة النجارة بداعي السفر ؟؟!

بادرها المعلم أبو نعيم بالسؤال عن زوجها كـأنه لا يعلـم عـن غيـابه شـيئاً، فـأخبرتـه أنــه فـي القريــة يـزور أمــه إذ أن المــرض اشــتد عليهــا، للحظــة دار فــي خلــدها أنـــه ربمـــا لـــم يصــدق أن زوجهـا سـافر للقريـة، وأتـى لكـي يمسكه متلبسـاً بوجوده مع عائلته في المنزل، لكن أبا نعيم لم يبدُ عليـه حتـى أنــه سـمعها، إنمـا باغتهـا بسـؤال آخـر عن صغيريها فأجابته بأنهما نائمان، وبدأ قلبها يخفق بشدة مستشعراً الخطر كعصفور وقـع فـي براثن قط هرم، كانت تتوجس خيفة منـه، إلا أنـها أخفـت خوفهـا خلـف وجـه حـاول ألا يقـول شـيئاً، تلـك الخدعــة الــتي علمتهــا إياهــا أمهــا يومــاً، أن تتظاهر بالشجاعة حتى حين يفتك الخوف بـدقات قلبهـا، وألا تـترك أحـداً يقـرأ خارطـة الخـوف علـى وجههـا مهمـا حـدث، ومـا هـي إلا لحظـات حـتى تحققـت مخاوفهـا، فـإذا بــه يـدفعها إلـى الـداخل ويقتحم خلوة خيبتها مقفلاً الباب وراءه، وقبـل أن تستفيق مـن المفاجـأة كـان قـد هاجمهـا، ورماهـا أرضــاً فـوق ظلهــا الــذي انكمــش وازداد ســواداً

بوقوعها فوقه، استحكمت بالرجل رغبة متوحشة لا تعرف معنى التعقل. بدأ يردد في مسمعها بصوت كما الفحيح : " امرأة مثلك حرام أن تكون لرجل مثل ديبو.. والله حرام "، ويكرر تلك الجملة بصوته الخشن المرتعش الممتزج بأنفاسه الملتهبة المفعمة برائحة الدخان، كما لو أن هذا الأمر هاجس يؤرق مضجعه، بينما هي تحاول دفعه عنها بكل قوتها ولا تتمكن، فتخدشه بأظافرها، وترفسه، وتشد نفسها في محاولة للإفلات من قبضته دون جدوى، دقائق وتلاشت مقاومتها وقد نال منها التعب واليأس، وكأنما ظلها من تحتها قد نمت أطرافه فأمسك بها وكبلها إلى الأرض بقوة لا يمكن قهرها أو التغلب عليها، استسلمت لعبث الرجل الذي اقتحم خلوتها كما لو أنها لوح من الخشب، بينما تحولت الأرض من تحتها إلى ألسنة من السعير تكوي جلدها بسياط من نار وقرف، كان استسلامها ممزوجاً بالغثيان والاشمئزاز وبشعور غريب بالشماتة، كانت في داخلها تنتقم من كل شيء فرضته عليها الظروف

ولم تقاومه، تنتقم من الأحلام المؤجلة حتى عمر آخر، ومن رجل لا تعرف حتى اللحظة لماذا وكيف تزوجته، تنتقم من الفضيلة التي بسببها بترت أحلامها وألقي بها في هذا المكان العفن، ليس عقاباً على ذنب اقترفته، بل خوفاً من ذنب قد تقترفه فتلوكها الألسن، تنتقم من نفسها، ومن زوجها، ومن أمها، وحتى من أبيها الذي رحل عنهم فوقعت الدنيا فوق رأسها بسبب ذلك، استكان الرجل بعد أن ألقى بسائله في رحمها فشعرت به ناراً تحرق أحشاءها، لم يكن يعني تلك الكائنات المجهرية المتدافعة والمتزاحمة في سائل دافئ لزج داخل نفق معتم في جوف امرأة تختنق بعبراتها أن يكون وجودها غير مرغوب به، أو أن تكون قد حشرت قسراً في مكان ليس عليها أن تخترقه، أو حتى أنها تشعل حرائق الحقد في جسد مستكين وجعاً، كل ما كان يعنيها تسابقها المحموم نحو الحياة أو الموت،والزمن القياسي الذي يجب أن تنهي فيه سباقها نحو أحدهما.

انتهت طقوس أبي نعيم بقيامه عنها، وما أن انزاح بأنفاسه المحملة برائحة الدخان، وجسده المغلف بعبق الغراء عن صدرها، حتى جذبت ثوبها تستر بأسماله ما تبقى من كرامة جسدها، والدموع تتسابق على خديها .. أي عارٍ منيت به في غفلة من أحلام تبقت في صدر الصبا ؟! ومن يسكت ألسنة الناس عن لوك كرامتها وشرفها؟؟! ومن سوف يصدق أن رجلاً في عمر أبي نعيم، وسمعته الطيبة بين سكان تلك الحارة هاجمها خلسة في بيتها، خاصة وأنها هي التي فتحت له باب البيت في غياب زوجها ؟! ومن ينتشل النار التي تشتعل في صدرها؟! تلك النار الحاقدة التي بوسعها أن تحرق الكون..وأن تعيد ترتيب أبجدية الوجع لتصبح لعنة تعيش ألف سنة مما يعدون.

كانت الأفكار تتلاطم في رأسها، والمشاعر تتزاحم في قلبها، والدموع لا تنكفئ، وإحساس مقيت بالعار والذل يستوطن كل خلية من خلايا جسد انتهك للتو، عندما نظر إليها أبو نعيم وقد

عادت إليه سكينته، كأنه لم يقترف بحق إنسانيتها جريمة بشعة منذ لحظات، ثم قال لها بصوته الأجش، وبنبرة أراد لها أن تحمل اعتذاراً لم يخالجه للحظة : أردت أن أخبر زوجك بأنني قد رفعت أجرته ، طالما أنه ليس هنا بإمكانك أن تتركي الأمر لي، وأنا سأخبره, وخطا بهدوء ودون أدنى ارتباك باتجاه الباب تاركاً وراءه جسداً انتهكه العار والخجل.

لم تنم ليلتها .. انتابها شعور بالغثيان مزق أضلاعها، وباغتها إحساس بالتقزز والقرف، وتداخلت في قلبها كل أحاسيس الكره والبغض السوداء، بللت مخدتها بالدموع، وقلبها بحقد أسود، وتوجهت إلى الحمام، ورغم أن الماء كان بارداً، إلا أنها في تلك الليلة الشتوية لم تستطع الانتظار حتى تشعل موقد الحمام، إذ عليها أن تغتسل من العار، وأن تغسل آثار مرور أنفاس أبي نعيم وأطرافه عن جسدها، فرمت بنفسها تحت الماء البارد .. كانت ترتعش، ولم يكن في

مقدورها أن تشعر بالبرد بقدر ما شعرت بالقذارة التي انتهكت نقاءها .. وقفت تحت الماء البارد لأكثر من نصف ساعة وقد نقلتها حالة من الذهول من الأرض إلى مكان آخر، مكان مليء بالذئاب والدم والوجع والصديد، تختنق بعبراتها، وتختنق أكثر بذكرى سطرتها حواس الجسد لملمس أصابعه المدببة ، كما لو أنها أشواك غرست في خلايا جلدها الأبيض، ذلك الملمس كاد يقتلها وهي تحاول أن تتنكر لتفاصيل مروره، وتعلم تماماً أنها إن عاشت فَلـِتلوك تلك الذكرى البغيضة، وقد حفرتها يد الأقدار على جدران ذكرياتها المؤلمة، لكن أكثر ما أوجعها فعلاً هو استسلامها الذي لم تستطع أن تعطيه تفسيراً يبرد حر انتهاكه لقيمها، كان ذلك وحده كفيلاً بعذاب سوف تتجرعه طيلة العمر، مثيراً في قلبها أسئلة لا أجوبة لها .

لوّن الفجر السماء بضيائه، وهرب الظلام من أنحاء العالم الرحب ليحبس سواده في قلبها،

لم تعد هناك نقطة مضيئة تشعل فتيل الأمل بعد أن حاصرتها مشاعر القذارة والخوف، مر عليها اليوم التالي طاحناً أضلاعها تحت دبيب الثواني التي لا تمر ولا تنقضي، لم تقترب من طفليها كما اعتادت، ولا هي قبلتهما أو عانقتهما، استجابت لطلباتهما الضرورية فقط، كانت الشمس تحمل لها شيئاً من مشاعر الأمان، فالذئاب لا تحوم تحت الشمس، وحده الظلام يخفي التماع عيونها الشرس، والنوايا الغادرة المبطنة بملامح تشبه الصقيع، لكن اقتراب الليل ينذر قلبها بتجربة لا تريد أن تعيد تفاصيلها، وهي موقنة تماماً في أعماقها بأن ذلك الرجل الذي استسلمت له بعد مقاومة لم تكن كافية، سيظن في قرارنفسه أنه مرحب به ، ولن يدرك أبداً أنها استسلمت لأسباب كثيرة هي نفسها لم تفهمها تماماً، وبالتأكيد ليس من بينها ترحيبها بعلاقة غير شرعية أو برجل آخر في حياتها، فما كان منها إلا أن أخبرت جيرانها بأنها سمعت في الليلة الماضية طرقاً على الباب، وأنها شعرت بالخوف لأن زوجها

مسافر، مخفية بقية التفاصيل في قلبها، ليتولى رجل في بيت آخر أمر الوقوف في وجه رجل تقوده الشهوة والجنون.

وفعلاً كان ظنها في محله، فقد تحققت مخاوفها بطرقات على باب بيتها في رحم الليل، بينما كانت تجاهد في رتق الشقوق التي خلفتها ليلة ليست ككل ليلة في عمرها، إلا أن الجار الذي لجأت إليه سرعان ما فتح بابه، مستقبلاً شهوات الآخر وبريق عينيه الملتهبة بعلامات استفهام، أجاب عنها أبو نعيم متلعثما بسؤاله عن عودة أجيره وحاجته الشديدة له، مغادراً وهو يتعثر بظله ويلوي ذيل الخيبة و يعض عليه بنواجذه، مدركاً أن الباب الذي فتح مرة لن يفتح له مرة أخرى مهما حدث.

تلك الليلة أيضا هرب النوم من عيني دلال، أشد ما كان يقلقها ويقض مضجعها كيفية إخبار زوجها دياب عما حدث، كيف لا وقد تعودت أنه مذ تزوجها جعلها شماعة يعلق عليها كل شاردة

وواردة في حياتهما، وكلما أمعنت في التفكير كلما زاد قلقها وخوفها، صارت تتخيل أن أمراً كهذا سوف يسلبه عقله، وقد يهوي عليها بيده الثقيلة، أو يطردها من المنزل شر طردة ويقتلع صغيريها منها .. ومن يستطيع إيقافه في مدينة ساقها إليها ولا تعرف أحداً فيها، ولا أحد يعرفها لتحمل لقب "الغريبة" خارج المنزل كما هي داخله ؟ ثم تعود لتتخيل أنه قد يكون أكثر تفهماً وتعاطفاً عندما يعلم أنها ما فتحت الباب إلا ظناً منها أنه قد عاد من زيارة أمه باكراً، لكنه حينها لا بد وأن يستل سكيناً ويغمده في صدر أبي نعيم، فينتهي به الأمر في السجن تاركاً إياها ريشة في مهب الرياح، أو ربما قتله أبو نعيم دفاعاً عن نفسه، وعندها سيتربص بها ألف أبي نعيم، وستضطر إلى إرسال ولديها إلى العمل دون دراسة مقتلعة أحلامها فيهما، وأحلامهما من صدر الحياة، كما اقتلعت أحلامها عندما أرسلت إلى بيت الزوجية المتواضع بسبب موت أبيها.

وحاولت دلال بلا جدوى اصطياد النوم في تلك الليلة الحالكة بعد أن أنهكها جسد متعب، وعينان لم يعد في وسعهما السهر والبكاء أكثر، وعندما أغفت آخر الأمر، لم يطل الوقت حتى غرقت في أضغاث أحلام تعلن ذبحها في الساحة على الملأ، أمام باب بيتها القديم الذي ضمها وأخواتها ووالديها، وكأنما هي طقوس قربان شيطاني في عقيدة منحرفة، وكان المتجمهرون حولها على امتداد ناظريها يحملون ملامح زوجها وأبيها، ويرتدون ثياباً متشابهة، ويتفرجون على تفاصيل طقوس الذبح بملامح شمعية لا تحمل أي تأويل، بطريقة ما أدركت في الحلم أنها قد اختيرت لكونها جميلة المحيا، لها شعر حريري، وعينان ناعستان، وجسد نحتته يد الشباب فأورق في حناياه جمالاً ملفتاً، ذلك أن القربان يجب أن يكون أحسن الأضاحي وأشهاها، كانت مكبلة على الأرض، وقد أوثقت أطرافها تماماً، وعندما اقترب السياف منها ليرفع سيفه ويبدأ طقوس الذبح، فوجئت بأنه أبو نعيم بملامحه الجافة ورائحة

الغراء والخشب المنبعثة منه بقوة كادت تخنق أنفاسها، يرتدي ثوباً أسودَ طويلاً كما لو كان من أثواب الأزمنة الغابرة , مزركشاً بجماجم صغيرة لنساء كن أضاحي الأيام السابقة معلقات من بقايا شعورهن الناعمة، يحمل خنجراً حاداً يلمع نصله تحت ضوء القمر لشدة حدته كما عينيه في تلك الليلة المظلمة، اقترب منها رويداً رويداً، ورفع سبابته إلى فمه آمراً إياها بالصمت، ثم انحنى فوقها وعندما حاولت الصراخ عالياً لتستنجد بزوجها أو بأبيها، عاجلها السياف واضعاً نصل سيفه بين شفتيها، وحزهما عميقاً فانبثق الدم من كل مكان من جسدها غاسلاً كل شيء باللون الأحمر القاني. بينما الجمهور جامد كتماثيل شمعية لا تبدي حراكاً ولا حتى انفعالاً، كانت تشعر بسيلان الدم حاراً على وجهها عندما استيقظت، لتجد أن ما يمشي عليه لم يكن غير دموع تبحث عن مسار لها فلا تجد إلا خداً ساخناً، وعنقاً أشد حرارة، بينما كانت رائحة الغراء تزكم

أنفهـا، وطعـم الوجـع ينحـل فـي حلقهـا مـراً كمـا العلقم..حتى تكاد تتقيأه.

تلك الليلة تمكنت منها الحمى حتى الهذيان، وانتابها شعور عميق بأنها فقدت السيطرة على جسدها تماماً، ولم يعد في وسعها تحريكه، أو رفعه عن السرير، كانت متعبة، مريضة، وموجوعة، ورغم ذلك جافاها النوم إلا من خطرات تنتهي بكوابيس مخيفة.

كان الخوف يضغط على رئتيها فتختنق الأنفاس في صدرها، وتتقاذفها الأفكار كما زجاجة فارغة تضربها أمواج بحر شديد الهياج في يوم ماطر، فتبكي بحرقة، ثم تغط في صمت عميق، تسرقها فيه الكوابيس لدقائق، ثم تستفيق على ذكرى يوم سابق لا تتمكن من تجاهل أدق تفاصيله، حتى في تذكر رائحة أبي نعيم المتخمة بعبق الغراء، وقطع الخشب، وبرادته، تلك الرائحة التي حفرت في ذاكرة الوجع صدعاً

عميقاً ليبقى شاهداً على ليلة اغتيال قلب مفعم بالخيبة.

بعد كر وفر في الأفكار التي تدافعت في رأسها كما لو أنها تخرج من فوهة بركان ثائر،وبكاء، وشرود، وليل طال ظلامه حتى أظلمت الدنيا من حولها، انتهى بها التفكير إلى أن أسلم ما يمكنها فعله هو الاحتفاظ بسرها بينها وبين خيبتها، في حيز معتم لا يراه أحد، ولا يطلع عليه إنسان سواها، فهذا الاحتمال الوحيد الذي يمكنها من رعاية أولادها تحت كنف أب كما كل أب، حلمه أن يحقق أحلام أولاده، أو أن يحققوا هم حلمه، لا فرق طالما أن الأحلام لن تتوارى جثثاً متفسخة في مقبرة الخيبة، أو في زاوية معتمة تشبه النسيان.

كان من المفترض أن يعود زوجها دياب من القرية مساء اليوم الثالث، هذا ما أخبرها به، إلا انه في ذلك اليوم، وبينما كانت زوجته تتقلب بين الغضب والحيرة والخوف والقرف، لفظت

أمـه أنفاسـها الأخيـرة، ممـا اضـطره إلـى إكمـال أسبوع آخر فوق الأيـام الثلاثـة، لإكمـال إجـراءات الدفن وتفاصيل العزاء وواجباته، دون أن يعلم أن قبراً آخر فتح في منزلـه دفنت فيه زوجته السـكينة والرضا حتى آخر لحظة من عمرها.

عنـدما هاتفهـا معلمـاً إياهـا بمـوت أمـه، وعلـم بـأمر الحمـى الـتي أصـابتها، أعفاهـا مـن اللحـاق بـه خوفـاً علـى صـحتها وصـحة ولـديه، خصوصاً أن الوصول إلى قريته لم يكن سهلاً فـي ذلك الوقت مـن السـنة بأمطارهـا ورياحهـا وبردهـا القـارص، ممـا منحهـا رفاهيـة وحـدة تلـوك فيهـا أوجاعهـا بصـمت لا يـؤرقه سـؤال، ولا نظـرة اسـتفهام تضـطرها إلـى ابتلاع حنظـل خيبتهـا، ومحوهـا كرهـا مـن علـى قسمات وجههـا الـذي مـا جف من ملح الدموع.

صـارت دلال تـذوي يومـا إثـر يـوم كـوردة تشتاق إلى المطر، وقد اصفر وجهها، وانكمشت ملامحها كأنما تحاول اللقاء لتواسي بعضها بعضا

بعنــاق حــار، وتنــاقص وزنهــا تناقصــاً ســريعاً، وافتقــدت الكــثير مــن ذلــك الســلام الممــزوج باستسلام يحتفي بوجوده في صدرها، وحل محلـه مرجل يغلي بانتظار الانفجار في كل لحظة.

عـاد ديـاب مـن رحلــة الـدفن المشـؤومة، واضعاً بقايا فرحـه المتنـاثر علـى أيـام عمر قضـاه مخذولاً بخيبته وفقره إلى جوار أمه، مهيلاً عليـه تراب الحزن والانقباض، كانت أمه الكـائن الوحيـد الذي قبله بكل ذلـك الفرح والتقدير، وحدها كـانت تشعره بأنه إنسان استثنائي، وأن من لا يرى ذلـك فلا بـد وأنــه يشـعر بـالغيرة كـونه لا يملـك القـدر نفسه من الذكاء والفطنة والكرم والطيبـة والنبـل، بينمـا كـان النـاس لا يرونــه أصـلاً، كأنمـا هـو ظـل شـفاف لكـائن لا يسـتحق الـذكر، حـتى زوجتـه لـم تشــعر يومــاً بالامتنــان لأي شــيء فعلــه، فمجـرد تأخره في إصلاح عطل أداة ما من أدوات المنـزل، أو تقصيره في طلاء المنزل الذي ظلت تلـح لأجلـه شهوراً دون هوادة، يجعلهـا تبدأ بالانتقـاص منـه،

لتنعتـه كعادتهـا بـأنه إنسـان محـدود القـدرات، لا طموح لديه، ولا أدنى ثقافة، وأنـه عـاجز عن فعل أي شيء حتى تغيير مصباح، لـذلك كـان دفن أمـه شديداً عليـه، فقد علـم في قرارنفسـه أنـه لـن يجد مـن يقـدره، ويرفـع مـن معنويـاته بعـد أن أهـال عليهـا الـتراب، وأنـه منـذ تلـك اللحظـة تحـول إلـى كـائن غيـر مـرئي، ولـن يكـون فـي وسـعه رؤيـة ملامحه حتى في المرآة..وسيشـتاق لنفسـه كـثيراً، ولملامحـه الـتي لـم تعـد هنـــا..بل سيشـتاق حـتى لصوت أمه وهي تريه زوايا لم يسبق لـه اكتشافها في نفسه، وتخبره عن مدى نبلـه وطيبته ونباهته.

لـم يكـن حـزن ديبـو علـى أمـه ليسـمح لـه بملاحظـة تفاصـيل ذبـول كـائن آخـر يتنفـس اليـأس شـهيقاً وزفيـراً إلـى جـواره، كـائن يعـاني طقـوس الاحتضار بأقسى أشكالها، وما كان لتلك الطقـوس أن تعلن موتها وإيداعها مثواها الأخير داخل قلب ذلـك الكـائن المتقيـح بالخيبـة المـرة. كلاهمـا كـان مكلومـاً، وكـأن الوجـع حـل ضـيفا دائمـاً لا يريـد أن

يغادر، وارتدى جدران المنزل العتيق حتى أغرقه بتفاصيله الصغيرة وبلون أنفاسه الداكن.

في اليوم الأول الذي ذهب فيه زوجها إلى العمل، صار قلبها يصارع خفقاته، كانت تخشى شيئاً لا تعرف ماهيته، كما لو أنه وشاية تنسل من عينين غادرتين فيفهم لغتهما كائن لم يقدر له يوماً أن يفهم شيئاً مما يدور في عقل زوجته وقلبها، لتنقلب حياتها رأساً على عقب ، ويصبح إخفاؤها للأمر دليلاً إضافياً على غيها، دليل كافٍ تماماً لإدانتها، والحكم عليها بموت محقق قاتلها فيه لا يحاكم، بل يهنئه كل من حوله على غسل عاره، ورغم إدراكها لحقيقة أن أبا نعيم لن يجرؤ على البوح بما حصل، إلا أنها باتت تعيش كابوساً لا تدري حتى متى ينازعها أنفاس الحياة التي تتغلغل في صدرها، لكنها بعد أيام مضت دون جديد يذكر، اطمأنت إلى أن شيئاً لم ولن يحدث، وأن الحياة سوف تأخذ مسارها المعتاد.

لـم يمـضِ وقـت طويـل حـتى تحقـق أسـوأ كـوابيس دلال، وأبشـع الهـواجس الـتي طاردتهـا خلال الأيـام الماضـية، فصـار عليهـا أن تـواجه أقسـى احتمـالات الخيبـة القادمـة فـي ثـوب خـبر سـعيد، عنـدما أعلـن كـائن كرهتـه قبـل أن تـراه انغراســه فــي رحمهــا، فانكفــأت إلــى عوالمهــا الداخليـة تنـوح دون صـوت، يقتلهـا الشـعور بـأن ثمرة ليلة الخطيئة القذرة الـتي لا تريـد أن تنمحـي من ذاكرة الغي تنمو في أحشائها جنيناً يذكرها كل يـوم بسر عـارٍ تريـد أن تـدفن خبايـا تفاصيله فـي مكـان مـا وراء ذاكـرة الوجـع، وفـي زاويـة معتمـة من زوايا النسيان.

تمكن منهـا الكره والقرف حتى منتهاهما، فمضـت تشرب القرفة والزنجبيـل، وتقفـز مـن أعلـى مكـان تستطيع القفز منه، وتحمل جرة الغاز، وتدور بهـا فـي بيتهـا الصـغير، فعلـت كـل مـا سـمعت أن مـن شـأنه أن يقـذف الحمـل خـارج دفـء رحمهـا،إلا أن الجنين كمـا أبيـه، اقتحمهـا قسـراً، وفـرض وجـوده

عليهـا دون خجـل، فاستسـلمت للأمـر دون أن يـداخلها أي إحسـاس بالأمومـة، وكـأن رحمهـا صار بحملـه ذاك قطعـة غريبـة عن جسدها تريد رميها خارجه، ولم يعد ما في جوفها ينتمـي إليهـا مـن قريـب أو بعيـد، وحـدها عرفـت بسـر بغضـها لهـذا الجنيـن، ووحـدها كرهتـه دون صـوت، أمـا زوجها فقد رحب بالحمل كما رحب بمن سبقه إلـى الحياة، حتى أنـه أسرّ لهـا ذات يـوم بـأنـه يعتقد أن الله قد أرسل إليه هذا الطفل ليسلو وجعه بفقدان أمـه، وأنهـا إن كـانت أنـثى فستحمل اسم أمـه " بـداية " ، ولـم ينتبـه إلـى شبح ابتسـامة سـاخرة شـقت طريقهـا إلـى شـفتين لـم يعـد يـرى ابتسـامة فوقهمـا ..إذ لم يكن لـديه الـذكاء الكـافي ليعلـم أن "الرجـل يشـيخ عنـدما تمـوت أمـه" ، أمـا هـو... الرجـل الـذي لا تـراه سـوى عينـي تلـك الأم الـتي تركتـه رجلاً يعـاني اليتـم والفطـام كمـا طفـل فـي المهد، فهو لا يشيخ فقط، إنما يقترب من النهايـة مهما بدا عكس ذلك، ولن تعوض خسارته ألـف " بدايـة " وبدايـة ، ولـم يـر أن البسـمة مـا ضـيعت

طريقها إلى شفتيه إلا بوجع قصي لروح تتعذب إلى جواره، وما علم أن البؤس دخل إليه من شبابيك زوجته وليس من قبر أمه فقط.

شيئاً فشيئا بدأ كل شيء يؤكد رتابة الحياة في مسار لا يتغير لأحداث تتكرر كل يوم ، كل شيء عاد كما هو إلا هي, كان وطء الحمل عليها شديداً كما لم يسبق له قبل ذلك، ووقع الأيام أشد وأثقل، يطحنها في كل يوم ألف مرة، فهي تحمل الهم في جوفها، ولا تريد أن تلده ، تريده أن يبقى مدفوناً في أحشائها تحت طبقات من الجلد والعضلات والخيبة والكره والحقد ، علها تريح نفسها من عذاب رؤيته كل يوم.

لكن شيئاً من هذا لا يحدث في الحياة، فالجنين يكبر في أحشائها كل يوم، ويكبر كرهها له، ولأبيه، ولكل شيء حولها كل يوم أكثر من الذي قبله ، رغم أنها صامت عن الطعام كي تحرمه من الغذاء والراحة، عله يموت قبل أن يولد، كما حدث مع أجنة كانوا في الرحم نفسه،

أرادت لهم الحياة من كل قلبها، واهتمت بغذائها وراحتها لأجلهم فلم ترهم مطلقاً، إلا أنه خلاف ما تمنت وتوقعت، عاند كل رغباتها، وانغرس عميقاً في بطانة رحمها عاراً لا يريد أن يُمحى من ذاكرة الجسد المتعب.

بدأت الأوجاع تنتهك بشدة حرمة جسدها الذي ينوء من وطأة عذابها وتعذيبها له، ولمن يختبئ داخله غير مرحب به، إلا أن دبيب الوجع المدمر لم يكن ليغير شيئاً من قسوة تعاملها مع جسد يحمل ثمرة الخطيئة، لم يكن الأمر فقط كرهها لتلك الثمرة الشيطانية التي تشعر بدبيب جحيمها في أوصالها، بل إنها كانت بطريقة أو بأخرى، ودون وعي منها توقع عقوبة قررتها على نفسها لذنب لم تستطع أن تغفره لها، فأولاً وأخيرا هي من فتح الباب لأبي نعيم في تلك الليلة المشؤومة، وهي من استسلم له في نهاية الأمر.

مضت الشهور رويدا رويداً، دون أن يعرف الفرح طريقه إلى قلبها، ولا إلى حنايا المنزل

الصغير، سألها زوجها مراراً عن سبب حزنها وعصبيتها وشهيتها المفقودة لكل شيء، ولم تكن تملك جواباً شافياً، فعزاه إلى الحمل وأعراض النساء التي لا يفهمها الرجال، وتدثر بصمته.

اقتربت ساعة الولادة كثيراً، متعثرة بأمنية واحدة لا تطلب غيرها تختنق مع دموع محتبسة في صدر دلال لا يمكنها الخروج ، أمنية صادقة بموت هذا المخلوق الصغير الذي في أحشائها، كانت تدعو الله يومياً بأن يموت هذا الكائن، ذلك أنها كانت متأكدة بأن ما زرعه ذلك الوحش في أحشائها ذلك اليوم لا يمكن أن يكون إنساناً عادياً كبقية البشر، بل لا بد أن يكون وحشاً مثل أبيه.

***

الفصل الثاني

ولادة صطوف

بـدأت أعـراض المخـاض تظهـر علـى دلال، وكـانت هـي تقـاوم ذلـك المخـاض بكـل مـا أوتيت من خيبة، إلا أنـها استسلمت أخيراً بعد أن أعيتها الحيلة، وتخاذلت عضلات جسدها المنهك عن مقاومة الطلق، وأنهكتها آلام المخاض، وقد اقـتربت فـترات الطلـق مـن بعضـها بشـكل أصـبح وجعه لا يُطاق، ركض ناجي إلـى الورشـة ليخبر أبـاه عـن اقـتراب ولادة الأم، وسـرعان مـا اتجـه ديبـو إلـى قابلـة الحـارة أم هشـام يسـتدعيها كـي تساعد زوجته علـى الـولادة، ذلـك أنـه لـم يكـن فـي وسعه، ولا حتى في نيته أن يهب زوجتـه رفاهيـة سرير في مشفى وولادة بـأجرته الشـهرية الزهيدة التي شهدت ارتفاعا غير مسبوق بعد مـوت أمـه،

لم يفهم سببها، وعزاها إلى نوبة رحمة مباغتة فاجأت قلب أبي نعيم بعد أن علم بموت أم أجيره.

بعد دقائق لا يتجاوز عددها أصابع اليدين في أبعد تقدير كانت القابلة أم هشام قد اقتحمت المنزل بجسدها الضخم، ورائحة الطعام تفوح من ثيابها، وكما هي العادة، أغلقت باب غرفة النوم لتبقى وحدها مع الوالدة، بعد أن أخذت قدراً من الماء الحار وبعض المناشف، وما هي إلا لحظات حتى علا صراخ دلال حتى سمعه كل من في الحارة .. طالت ساعات المخاض بين جذب وشد حتى أُنهكت تماماً، كانت آلام المخاض شرسة بشكل لم تعتد عليه من قبل، ودلال في الفترة القصيرة الفاصلة ما بين طلقتين تكاد تلفظ الروح لشدتهما, تحدق في سقف الغرفة المتقشر، فتعيدها الذاكرة إلى تلك الليلة التي كانت فيها ساهرة وحدها تحدق في السقف المتقشر ذاته، لم تعد ترى إلا ظلال تلك الليلة المشؤومة تذكرها كل لحظة بمدى كرهها لهذا الذي يدق باب الحياة

منذراً بقدومه مع كل ذلك الألم، فيعلو صدرها ويهبط بأمنية واحدة، موت هذا القادم الصغير .. بعد قليل سمع ديبو صوت أم هشام وهي تصرخ بزوجته باستنكار واضح :

" يا امرأة لا تشدي ساقيك على رأس الولد، سوف تقتلينه " .

ورغم استغراب أم هشام من تصرف دلال وهي التي تلد للمرة الخامسة إن جمعت الميت مع الحي من أولادها، إلا أنه لم يخطر في بالها ولو للحظة واحدة أن المرأة كانت تتعمد قتل طفلها، وعزت تصرفها الأرعن هذا إلى الآلام الشرسة للمخاض التي أفقدتها عقلها.

وأخيراً خرج الوليد إلى الحياة مطلقاً صرخته الأولى ، وما أن وقعت عينا أم هشام عليه حتى حوقلت وتعوذت بالله، كانت أنفاس دلال ما زالت تعلو وتهبط بشدة عندما سمعت الحوقلة، فرفعت رأسها لترى جبيناً متورماً، وعينين منتفختين،

ووجهـا تعلـوه تلال وهضـبات حمـراء بـارزة عـن بشرة وجهه، كان ما خـرج مـن أحشـائـها للتـو هو ما توقعته دون زيادة أو نقصان، كان كائناً صغيراً بشعاً لا يشبه المواليد في شيء، ولا يمكـن للمـرء أن يشــعر تجــاهه بتلــك العاطفــة الجارفــة الــتي يحســها تجــاه وليــد أو رضــيع .. انتابتهــا نوبــة هستيرية فأخذت تصرخ بشدة :

" اقتلـوه.. إنــه ابـن الشـيطان ، هـذا لـيس ابنــي أرجوكم أبعدوه عنـي " .

عجزت القابلة عن إجبار المرأة الوالدة للتو على الـهدوء، رغـم تـحذيرها لـهـا مـن حمـى نفـاس قـد تتسـبب لنفسـها بهـا بسـبب انفعالهـا، إلا أن صـراخ المـرأة لـم يتوقـف حتـى صـفعتها أم هشـام على وجهها، عندها فقط سكتت عن الصراخ، ذلك أنـها غابت عن الوعي ، ونـأت بنفسـها إلـى عوالم بعيدة، كأنـها تـهرب من الواقـع علـه يكـون كابوسـاً تستفيق منـه.

لم تمض ساعات إلا وبدأت عوارض حمى النفاس تظهر واضحة على دلال مصحوبة بنزف لا يتوقف، مما حدا بالقابلة التي استشعرت بخبرتها الخطر المحدق بالمرأة إلى إخبار ديبو بضرورة نقلها إلى المشفى على جناح السرعة ، وسرعان ما أرسل الأخير ابنه لإحضار سيارة أجرة، بينما تولت القابلة إلباس المرأة ثيابها، وحملها زوجها إلى السيارة، وانطلق مسرعاً إلى مشفى حكومي، حيث قرر الطبيب المناوب وضعها في العناية المشددة نتيجة انخفاض حاد في الضغط، ونزيف لا يتوقف.

استمر نزيف دلال عدة أيام، يتوقف قليلاً، ثم يعود أشد مما كان عليه، لم يجدِ العلاج الذي قرره لها الأطباء شيئاً ، ولا محاولاتهم لإيقاف النزيف كللها أي نجاح يذكر، كان الطبيب المسؤول عن حالتها يبذل قصارى جهده لئلا يصل بها إلى آخر احتمال ممكن-استئصال الرحم- خاصة بعد أن قرأ عمرها في الملف، وعلى ملامحها المنهكة، إلا أن

انتظاره لأي تجاوب منها للعلاج أضحى مغامرة قد تكلفه حياة مريضته الشابة، فقرر إجراء تلك العملية على وجه السرعة، وبعد انتهاء العملية بساعات استفاقت دلال في غرفة تشاركها فيها جدرانها التي كانت بيضاء ذات يوم، ورائحة المعقمات المنتشرة، وصراخ الممرضات، أربع نساء أخريات تحمل كل منهن همومها أيقونة على جبينها، فتحت عيني الوجع يومها على خبر أكثر إيلاما من ولادتها لكائن لم تستطع أن تطيقه، كان ذلك فوق قدرتها على الاحتمال، هي التي عاشت هواجس الفقد منذ أول حمل دبّ في رحمها، وهواجس العقم بعد ولادة صغيريها السالمين، فأصيبت بحالة من الوجوم..ولم تعد تتكلم بعدها إلا نادراً، كل ما كانت تفعله هو التحديق ببقع الدم المتناثرة على الغطاء المرمي فوق جسدها دون صوت، كأنها كانت تبحث عن نفسها بين تلك البقع، عن السكينة التي غادرتها منذ ذلك اليوم الذي سافر فيه زوجها، وزارها رجل لم تتوقع زيارته، وكلما أخفقت في إيجاد ما

تبحث عنه في تلك الأشكال العشوائية القانية ركزت نظرها أكثر فيها، وانقطعت عن العالم، ولم تعد تسمع أو تتصل بما حولها بأي طريقة..لم يكن الأمر غريباً بالنسبة إلى الطبيب، فأي امرأة قد تمر باكتئاب ما بعد الولادة، فكيف إذن إن هي فقدت الرحم وهي في ذروة الشباب، لتدخل سن اليأس قبل حتى أن تدرك ذلك، إضافة إلى طفل مشوه، وهموم أخرى لا أحد يعرفها إلا هي؟؟..

في هذه الأثناء تولت الجارة أمر المولود الصغير وبقية أخوته ، مضى أسبوع والرضيع مرميٌ عند الجارة لا يسأل عنه أحد، ولا اسم له، ولا وجود، حتى عادت الأم إلى المنزل منهارة القلب والأعصاب، وما أن سمعت الجارة بعودة دلال حتى جاءت إليها بالوليد، ظناً منها أنها سوف ترتاح لإرضاعه، خصوصاً بعد أسبوع من احتباس الحليب في صدرها، وهو وقت قد يكون أوصله إلى الجفاف نهائياً ,إلا أن دلالاً تلقفت الرضيع دون أي انفعال، ورمته إلى جانبها كما

لو كان وسادة على السرير، ولم تستجب لصراخه المحموم إلى جوارها، وكأنها لا تسمعه...أو لا تريد.. موجوعة هي في كل شيء، في نفسها، وشبابها، وخصوبتها، وطفل لم ترد له أن يولد حياَ، فجاء مشوهاً إمعاناً في تعذيبها ، وطفلين أرادت لهما الحياة من كل قلبها فماتا، ورحم اقتلع من جوفها كان آخر عهدها به اغتصابا لأنوثتها وأمومتها في لحظة واحدة .

في المساء، وبعد عودة ديبو من العمل، جلس إلى جانب زوجته يلاطفها محاولا التخفيف عنها ، وأخذ ينظر إلى الطفل محتسباً أجره عند الله في هذه المصيبة التي حلت عليه دون سابق إنذار، ثم استدار نحو زوجته سائلاً إياها كما هي عادته عند كل ولادة عن الاسم الذي ترغب في إطلاقه على الصغير، فأجابته ببرود:

سمه ما شئت .. سمه "إبليساً" إن أردت .

كانت كلماتها تلك خنجراً أصاب قلب ديبو، فقد احتفظت ذاكرته بكلماتها الأولى عن أن هذا الطفل هو "ابن الشيطان" أثناء مخاضها، لكنه كان يبرر لها أنها ما قالت ذلك إلا كونها تشعر بأنه الملوم عن حملها وولادتها ، وبينما هي تعاني آلام الوضع بقسوتها، كان هو ينتظر قدوم طفله دون ألم ، أما هذه المرة فلم يعد لتبريره أي معنى، حتى لو افترض أنها تعاني حالة عصبية بسبب التشويه الذي غزا وجه الصغير، إذ لم يكن أمر هذا التشويه ذنباً فعله هو أو صغيره المسكين..قفز ديبو من مكانه واقفاً وفي نيته الانقضاض على زوجته، وأمسك بشعرها من الخلف بقوة يريد شجاراً, بينما عيناه تلقي حمماً من نار الغضب في وجهها، إلا أنه ما لبث أن تركها بعد أن تذكر أنها خرجت للتو من براثن الموت امرأة دون رحم.

غادر الرجل بعدها منزله لا يلوي على شيء ، وما أن وصل إلى الشارع الرئيسي، حتى

استوقفه أحدهم سائلا إياه عن منزل صفوت المعروف ب "صطوف" ، لم يعرف ديبو أي شيء عن هذا الصطوف يفيد به السائل ، إلا انه اعتبرها إشارة له بتسمية الصغير، ربما لأنه لا يملك أي احتمالات أخرى تمنحه رفاهية الاختيار عندما يكون منكسراً إلى هذه الدرجة، وسرعان ما حزم أمره هو الذي لم يعرف للحزم معنى قبل ذلك اليوم، وتوجه إلى مكتب تسجيل المواليد في صبيحة اليوم التالي، وسجل ابنه تحت اسم صفوت، في ذلك اليوم صار هناك في تلك الحارة الشعبية الضيقة صطوف آخر غير ذاك الذي لم يعرف له عنواناً عندما سئل عنه.

لم يستطع الزمن الذي يتولى عادة أمر الكثير من هموم البشر أن يمحو شيئاً من كراهية دلال تجاه صطوف، ولولا بقية خوف من الله، ومن عقوبة منه لها بموت أحد ولديها أو تأذّيهم إن هي تركت صطوف يموت، لما ترددت لحظة في منع الحليب عنه حتى تتخلص منه.

بالرغم من ذلك فقد تركت الحليب في ثديها يجف، ولم تسمح له برضاعة واحدة منه، كانت تضع له الحليب الصناعي في زجاجة وتلقمه إياها دون أن تحمله أو تقترب منه، وربما أوكلت تلك المهمة لأحد ولديها لتريح نفسها من عناء النظر إلى سحنته البشعة، ذلك أن مجرد النظر إلى وجهه القبيح كفيل بأن يعيدها إلى تلك الليلة ، ويشعل في قلبها نيران الحقد الكاوية التي لم تجد سبيلاً لإطفائها، بل وجدت ألف سبيل لإذكائها يوماً بعد يوم، ليذكرها بأنها أصبحت عقيماً كشجرة يابسة ، صارت تؤمن في قرار نفسها أن هذا الطفل هو الشؤم بعينه ، لذلك لم تعره يوماً أي اهتمام، ولا هي حملته أو قبلته مرة واحدة ، ومع كل هذا لم تكن دلال قاسية القلب، فهي أم حنون للغاية ، إلا أنها لم تشعر مرة واحدة بأمومتها تجاه هذا المولود.

كان من الضروري أن تضع دلال اللوم على عاتق شخص ما، لتريح نفسها من عبء حقد

غير موجه يشتعل في أعصابها كل لحظة، ذلك أن أبا نعيم بعيد عن ناظريها لا تستطيع أن تنتقم منه، ولا حتى أن تحدث أحداً بحقدها عليه ، وكان -صطوف رغم صغر سنه، وكونه ابنا لها خرج إلى الدنيا من دفء رحمها -الشخص الوحيد المؤهل للاحتفاء بكل ذلك اللوم، كان سليل طائر الشؤم الوقواق الذي رمى ابنه في عش غريب، ومضى تاركاً عبء تحمله على أصحاب ذلك العش، ولم يتبقَ لهذا الوقواق الصغير حتى يكمل تلك الأسطورة، إلا أن يرمي بصغار ذلك العش خارج حدوده , أليس هو نتاج اغتصاب وحشي ؟؟. أليس هو سليل الرجل الذي اقتحم بقية أحلامها فكرهته حد الغثيان؟ ألم يُقتلع رحمها وهي في فورة الصبا بسببه ؟ بالنسبة لها، كانت المصائب قد باغتتها فرادى وجماعات منذ رأت ذلك الوجه القبيح الذي كان وجوده بحد ذاته مصيبة كبرى أصابتها دون أن تدري .. ولهذا لم تشعر يوماً بشيء إلا الكره تجاهه، وكأنه ما

عاش في رحمها شهوراً تسعة ، وما خرج إلى الدنيا من ثنايا ذلك الرحم .

مرت الأيام بعد ذلك برتابة مميتة، صارت الهوة بين ديبو ودلال فيها تتسع كل يوم، وتنبت الخيبة على ضفتيها عشبا بريا طفيليا يقتات من قلبيهما ويثمر مزيداً من الجفاء، فقد كانت رائحة الغراء والخشب التي تسكن جلده، وأنفاسه المشبعة برائحة الدخان تثير فيها شعوراً قاتلاً بالغثيان، لتدفعه عنها كل مرة يحاول فيها الاقتراب بكل ما أوتيت من حيلة، ولم تكن حيلها خفية على ديبو الذي أحس بجفائها الذي أخذ يزداد كل يوم دون أن يفهم سبباً مقنعاً لذلك الجفاء.

***

الفصل الثالث

على مرمى قدر

على مرمى قدر من نفس المنزل المتواضع الذي ولد فيه كائن كاد يقتل أمه كمداً، وفي اليوم ذاته الذي أبصر فيه صطوف الحياة وبعد بضعة ساعات من ولادته، وفي بيت تربط صاحبه بصطوف علاقة دم وقرابة لا أحد يعرفها سوى امرأة أدمنت النواح ، كانت يد الأقدار تحيك مصيبة من نوع آخر لأبي نعيم الذي زرع بذرة الحياة في رحم غريب عنه، وسقاها بلعنة الخوف والخطيئة .

في ذلك المنزل حيث يبدو الثراء واضحاً، فهو مكون من خمس غرف واسعة , أثاثه جديد رغم أنه لا يرقى لرفاهية الأناقة المتعارف عليها في مجتمع الأغنياء , إذ أنه مزدحم بالألوان كما هي العادة في الطبقة الشعبية، فقد كانت أم نعيم امرأة قروية مشبعة بخصوبة الأرض وطيبتها، تربت

بيـن الأشـجار والـورود والطيـور، ولـم تسـتطع احتمـال جفـاف الـبيوت الإسـمنتية وجـدرانها الموصدة، فزرعت زوايا منزلها الكبير بالورود والأشجار والأزهار الصناعية من كل لون وشكل، في محاولة منها لخلق قرية صناعية تشبه قريتها داخل حدود بيتها الأسمنتي، ورغم أن أبا نعيم الرجل الأصلع السمين ذا الرائحة الخشبية ثري هذه الحارة ومثار حسد أهلها الفقراء، إلا أنه يضحي نكرة لا تذكر في الشوارع الراقية للطبقة المخملية .. في هذا المنزل ثمة مصيبة سوف تهدم كيان الفرح المستوطن في حناياه منذ سبعة شهور، وتحديداً منذ ولادة نعيم ، الصبي الوحيد بعد سبع بنات أكبرهن في السادسة عشرة من العمر، بينما السابعة لم تتجاوز الرابعة من عمرها .. نعيم الذي أتى بعد انتظار سبعة عشر عاماً ، وبعد أن أكمل أصحاب هذا المنزل مراسم حزن مرير لولادة البنت السابعة .

لم يكن نعيم ينام إلا في غرفة أبويه بخلاف أخواته ، فقد كان أبو نعيم - قبل أن يولد وحيده - يجبر زوجته بمجرد أن تنتهي من النفاس على تغيير مكان بناتها ووضعهن في إحدى غرف النوم الأخرى بعيداً عنهما، إذ أنه لم يكن يطيق بكاء الصغيرات، وإيقاظهن له ليلاً.

تلك الليلة نام أبو نعيم قرير العين بولادة صبي له بعد طول انتظار، لكنه ما أن غفا حتى داهمه كابوس مرعب جعل أنفاسه تتهدج وهو نائم ، رأى أبو نعيم ليلتها دلالاً وهي تحاول أن تخنقه، ورغم أنها لم تتمكن من قتله إلا أنها حبست أنفاسه حتى كاد يختنق، وفي لحظة ما أصبحت يداها حديديتين، فخنقته، ووقع على الأرض ، وفوجئ عندما انتبه إلى أن الجثة الهامدة التي سقطت على الأرض لم تعد تحمل ملامحه، بل تقلصت وتغيرت ملامحها لتصبح جثة ابنه نعيم.

كـانت تلـك المـرة الثالثـة خلال ذلـك الشـهر التي يرى فيهـا الكـابوس نفسـه بتفاصيل مختلفـة قليلاً، إلا أنـها كل مرة كانت تنتهي بموت نعيم بـدلاً عنـه.

استيقظ أبـو نعيـم مـن كابوسـه وهـو يتعـوذ بالله مـن شر الشيطان ، وقـام مـن سريره متجهـاً إلـى حيـث إبريـق المـاء ، شـرب منـه مـا يكفـي لإعادة الرطوبة للحلق الذي تشقق عطشاً، واتجـه إلـى سـرير صـغيره ، نظـر إلـى السـرير فلـم يجـد الصغير ، فالتفت إلى الأم وبحث حولهـا ولـم يجده أيضـاً ، عـادت عينـاه تلقائيـاً إلـى السـرير، وجـف دمـه عنـدما رأى رأس نعيـم وحـده فـي السـرير، بينمـا حشرت رقبتـه الصغيرة بين القضبان بعد أن مرر جسده من بينـها في محاولـة منـه للنـزول مـن السرير فلم تصل قـدماه الصـغيرتان إلـى الأرض ، وانتـهت محـاولتـه للزحـف إلـى جـوار أمـه بشـنقه بين القضبـان .

زأر أبو نعيم كالأسد الجريح شاداً زوجته من شعرها ، كان يصرخ بها وقد انتابته نوبة هستيرية ، وأخذ يكيل لها الصفعات واحدة تلو الأخرى ، لكن أم نعيم لم تعد تشعر بصفعاته ، فقد أفقدتها آلام فجيعتها كل شعور آخر بالألم.

كانت تصرخ صراخاً هستيرياً، والأوجاع تستعر ناراً في قلب ثكل وحيده للتو .. استيقظ البيت كله على صوت صراخها المحموم، لتغرق جدرانه في حزن أليم .

في اليوم التالي كان الخبران اللذان تناقلتهما الألسن ولادة صطوف وموت نعيم .. ولم يعرف أبو نعيم أن صبياً آخر ولد له في اليوم نفسه الذي مات فيه نعيم، ورفض إلا أن يكون وحيداً لأبيه على الأقل.

...

<u>ذلك الركن القصي:</u>

لم يتمكن صطوف من المشي حتى تجاوز سنواته الثلاث، وعندما تجرأ على المحاولة، وبدأ يخطو، بدت خطواته متعثرة، كانت قدماه ترتجفان في كل خطوة يخطوها، فيبدو كمن يوشك على السقوط بعد خطوة واحدة على الأكثر، كأنهما قطعتان إضافيتان في جسده ليس في وسعه أن يتحكم بهما تماماً، ولم يتأخر في المشي فقط، بل إنه لم ينطق كلماته الأولى أيضا إلا متأخراً عن أترابه، وعندما نطق أخيراً، كانت كلماته الأولى تسمع من ركن قصي، حيث اعتادت أمه أن تضعه، لكنه ما أن يرى أحداً على مرمى بصره حتى يلوذ بالصمت، ويتوقف عن المشي، كمن يتحصن بالصمت والسكون في مواجهة من حوله، ولم يكن غريباً إثر ذلك أن يظنه الناس أبكمَ..فحتى حين ينطق..لم يكن صوته مسموعاً، وتبدو حروفه متعثرة لا تكاد تحوز على فهم سامعها إلا بجهد في فك طلاسم الحروف وإعادة تركيبها.

كان يكبر يوماً بعد يوم مثل نبتة برية تسقيها أمطار السماء مدركاً في قلبه الصغير أنه لم يكن محبوباً من أمه، حتى أبوه وأخوته لم يشعروا بوجوده أو غيابه ولو مرة واحدة ، إلا أنه في أعماقه أحب أمه، أحبها جداً ، فهي من تمد يدها مقدمة له طبق الطعام ، وهي من تسأله إن رأته متألماً عما به، كان شعورها تجاهه غامضا بالنسبة له، فكيف تقدم له الطعام، ثم تزجره لتلقيه في أبعد مكان في البيت؟؟.. لكنه بأي حال يحبها هو ويعلم في قرار نفسه أنها لا تريده أن يقترب منها ، ولذلك لم يحاول أن يقترب ، مكتفياً بلمسات عرضية منها تحدث دون قصد عندما تمد له يدها بالطعام ، بينما يتنامى حبه في قلبه عشباً برياً مثله تماماً.

تجاوز صطوف الرابعة من العمر وحيداً لا أنيس له، فلا أخوته يلعبون معه، ولا أولاد الجيران يهتمون بأمره، كان في حضوره شيء ثقيل يجبر الآخرين على الهرب منه، لا أحد يدرك

كنه هذا الحضور الثقيل، ولا سببه، كما لو أنه لعنة يبتعد عنها الجميع فارين بحياتهم ، رغم أن أخاه الأوسط كان يحاول بطريقة أو بأخرى أن يقترب من أخيه، ففي أعماق سالم توالد إحساس مبكر بالمسؤولية عن أخيه الصغير، لحظة انتبه -هو صاحب العقل الذي يعتمد المنطق منذ الصغر- أن هناك شيئا غير منطقي في معاملة أمه لصطوف، يتجلى واضحاً في محاولة إقصائه عن بقية أولادها، وتجنب النظر إليه أو الكلام معه ما لم تكن هناك ضرورة ملحة، خلفت تلك الملاحظة بذرة تعاطف وحنان في قلب الابن الأوسط جعلته يحاول التقرب من أخيه والوقوف إلى جانبه، إلا أن طفولته ورغبته في اللعب سرعان ما كانتا تأخذانه بعيداً عن ذلك الكائن الصامت، لتبقى يد أمه التي تمتد له بطبق الطعام ، وتسأله أحياناً وفي أزمنة متباعدة حين يبدو عليه الوجع عما ألمَّ به، الشيء الدائم الوحيد الذي يمكنه أن يعول عليه للبقاء ، فهو بالنسبة لها كائن حي وروح تتنفس، وليس في وسعها أن تنهي حياته حتى

ولو أن في داخلها رغبة دفينة خلف مشاعر الكره التي تكنها له ولأبيه ..

بالنسبة لها ربما لم يكن أكثر قيمة من تلك القطة العرجاء التي تموء أمام باب المنزل فتقدم لها بقايا الطعام ، ثم تنهرها لتمضي في سبيلها كما صطوف تماماً ، تقدم له طبقه ، ثم تزجره بنظرة بوسعها أن تقول له بألف وسيلة أن اذهب إلى ركنك، ولا ترني وجهك القبيح ، وكان يذهب إلى ركن قصي في غرفة الجلوس ، ينطوي على نفسه كجنين لم يولد بعد، وينكفئ ببكاء لا صوت له .. وتدوم فترات السكينة هذه لساعات كما لو أنه يعاني سباتاً شتوياً متقطعاً في غير موعده .ورغم ذلك فقد حاول عدة مرات أن يرفض الذهاب إلى ذلك الركن الذي أعدته له بفراش أرضي، ومخدة صغيرة، وغطاء، وفصلته بستارة قماشية سميكة عن بقية الغرفة بما فيها ومن فيها، فصرخت فيه وقد استحكم منها الغضب، ونعتته بالمشوه ووجه الشؤم وألفاظ أخرى جعلته

يندم على عناده ولا يعيد ذلك التصرف الأرعن أبداً.

وكانت ترسله من وقت لآخر مع أبيه لتتخلص من وجوده، فيذهب إلى الورشة، ليجلس في الركن الذي يضعه أبوه فيه دون صوت، مقلباً الجرائد والمجلات التي اعتاد أبو نعيم رميها في الورشة، ليتفرج على الصور المنشورة فيها، حتى نهاية اليوم.

صطوف والمقعد الخشبي :

حان وقت دخول صطوف إلى المدرسة ، وهو أمر أسعد أمه كثيراً، فوجوده في المنزل صار أشبه بلعنة تلاحق أوجاع الذاكرة، ولا تترك فرصة لجراحها كي تندمل ، هو الذي يخشى مواجهة العالم خارج المنزل مدركاً في قرار نفسه أن أحداً لن يقبل عليه ، لذلك أراد أن يبقى ملتصقاً بالحائط ذاته في الركن نفسه، كما لو أنه حلزون داخل قوقعة ملتصقة بجدار رطب.

عندما علم صطوف أن عليه أن يرافق أخويه إلى المدرسة، انتابه الفزع، وشعر بالقلق ينتشر في حواسه، فاستكان في فراشه، لم يغمض له جفن في بداية الأمر، وعندما أغفى، حلم بأشياء مفزعة، بأولاد يضحكون عليه، وقد تجمعوا حوله وأحاطوا به كحلقة، ثم بدؤوا يضيقون الحلقة عليه باقترابهم منه رويداً رويدا، بينما كانت قاماتهم تزداد طولاً حتى أصبحوا عمالقة يحيطون بقزم صغير، وكادوا يدوسونه، وصار لعيونهم بريق مخيف، وأصواتهم أكثر عمقاً وخشونة، كما لو كانت قادمة من بئر عميق، وتحولت ملامحهم إلى وجه أمه، استبد الرعب به فوقع أرضاً بين الأقدام العملاقة، وتبول في ثيابه، أحسَّ بالبرودة تسري في جسده، برودة جعلته يشعر بقشعريرة قوية أيقظته من النوم، ليكتشف أنه تبول في فراشه، وأن البرد الذي حلم به، لم يكن كابوساً فقط، بل كان من أثر ثيابه وفراشه المبلل، فقام من مكانه سريعاً، وغير ثيابه، وأخفى تلك التي بللها تحت الثياب الوسخة في

الحمام لئلا تكتشف أمه الأمر، فتحدجه بنظراتها الغاضبة، وتنهال عليه ضرباً، ويسخر منه أخوه الكبير ناجي، ولم يعد وقتها للنوم حتى الصباح.

مرَّ أمر ملابس صطوف المبللة بسلام، فلم تنتبه أمه له، وحيث أنه اليوم الأول له في المدرسة، فقد أوعزت إليه بارتداء ثياب اختارتها له، وتركته يرتديها وحده كما لم تفعل مع باقي أخوته، لم يشغل بالها كثيراً إن كان شعره مرتبا كما ينبغي أو لا، كل ما اهتمت له أن تراه يخطو أخيراً خارج جدران المنزل، فأرسلته مع أخوته ، لتحتفي بتحررها من وجوده.. ومن احتلاله لمساحة لا تتمكن من تجاهلها ، حيث يبقى تحت ناظريها كل لحظة مستفزاً ذكريات تحاول جاهدة دفنها تحت طبقات من التجاهل, في ذلك اليوم خرج الأولاد إلى المدرسة باكراً، أمسك صطوف بيد أخيه الأوسط سالم متشبثاً بكفه بكل ما يستطيع من قوة ، وحاول أن يخفي وجهه خلف

جسد أخيه، متمنياً ألا يلاحظه أحد ، لكن كل واحد في المدرسة لاحظ هذا الكائن المضطرب، ومضى ينظر إليه بفضول ، كاد صطوف يذوب في الأرض لشدة خجله و حرجه ، إلا أن سالماً شجعه، وحاول أن يبث فيه بعض القوة لئلا ينهار في لحظات كهذه، هامساً في أذنه وهو يشد على كف أخيه الصغير:" لا تخف لن أدعهم يقتربون منك" .

بالسكينة نفسها والاستسلام اختار صطوف لنفسه مقعداً منزوياً في زاوية في آخر الفصل ، وجلس دون صوت ولا حركة ، كأنما كان يعد نفسه للتوحد في كينونة المقعد، ليصبح جماداً لا يحمل أي شعور من أي نوع ، ويوماً بعد يوم صار وجوده في الفصل يشبه وجوده في المنزل ، مجرد ركن قصي يتنفس فيه كائن توحد مع صمته ، لم يكن صطوف غبياً ، على العكس، فعقله يسجل الكثير مما تقوله المعلمة ، لكنه لم يمتلك الجرأة مرة واحدة على الكلام أو حتى

السـؤال، كـان يكتـب حيـن يطلـب منـه ، وينجـز فروضه، عدا ذلك فهو والمقعد كتلة واحدة ، يعود بعـدها كـل يـوم إلـى المنـزل ليـدخل إلـى المطبـخ ويبتلـع طعـامه علـى عجـل ، ويمضـي إلـى ركنـه القصـي ، يكتـب واجبـاته بمسـاعدة أخيـه سـالم، ويهيئ حقيبته المدرسية لليوم التـالي ، ويتصـفح الكتـب الـتي بيـن يـديه ، أو يتصـفح بعـض كتـب الأطفـال المصـورة الـتي كـان يحـرص سـالم علـى إحضارها له، أحياناً من المكتبة التي على ناصية الشـارع، وأخـرى اسـتعارة مـن أصـدقائه فـي الصـف، أو مـن مكتبـة المدرسـة.. اعتـاد صـطوف أن يقلب صفحات الكتـب الـتي تقع بيـن يـديه حتـى يغلبـه النـوم، محـاولاً ألا يشـغل حيـزاً مـن فضـاء المنـزل يجعـل الآخريـن يضـيقون بوجـوده، كـأن السكينـة أصبحت موتـاً بارداً حلَّ بلعنتـه علـى كامـل جسـده ، وفـي كـل يـوم تسـتبد بـه رغبـة واحـدة مستكينـة في أعماق نفسه بـأن يتحـول إلـى كـائن لايُرى..أو أن يتلاشى في الـهواء دون أثر .

حـدث ذات يـوم أن فتـح صـطوف حقيبتـه ليكتـب واجبـاته المدرسـية، إلا أنــه لـم يجـد قلمــه، جـن جنونـه، وقلب حقيبته مرة تلو الأخـرى، لكـن القلـم لم يظهر، كان خائفاً من أن تلاحظ أمه ضياع قلمه فتعاقبه، فهو يعلم في قرار نفسه أن أخطـاءه غيـر قابلة للغفـران ، وأن الأمـر لـن يمـر دون سيل مـن السباب والتعنيـف المـترافقين بصفعات مـن الكـف نفسـها الـتي تمـد لـه طبـق الطعـام، فجلس ينتحب حتى جاء سالم الذي لم يحتمل بكـاء أخيـه، فمنحـه قلمه، وهو يعلم أن ضياع القلم ليس بـأمر ذي بـال ما لم يكن صطوف من أضاعه.

تعـود سـالم أن يرافــق أخــاه جيئة وذهابــاً إلــى المدرسـة، وعنـدما اضـطر إلـى التغيـب ذات يـوم، تجمــع الأولاد الأكـبر سـناً مـن صـطوف عليــه، وبدؤوا يسخرون منه، ثم ما لبث أحدهم أن دفعـه، فارتطم بصبي آخر من الصبية المتجمعين حـوله، فمـا كـان مـن الأخيـر إلا أن دفعـه معيـداً إيـاه إلـى الولـد الأول الــذي راقتــه اللعبــة، ومضــت ثلــة

الصبيان تدفع صطوف فيما بينها، وتركله، وكأنه كرة، وقع صطوف على الأرض، وحاول رفع نفسه إلا أن الأولاد لم يسمحوا له بالقيام، بل استمروا بركله حتى بلل نفسه من شدة الخوف، وإذ فعل ذلك صار الأمر أكثر إمتاعا للأولاد، فازدادت نبرة السخرية، وصاروا يدفعونه فوق البول المتجمع على الأرض ليمسح بوله بثيابه.

عند ذلك الحد كان أحدهم قد أسرع إلى ناجي وأخبره بأن الأولاد يتجمعون حول أخيه ويضربونه، فركض ناجي بصحبة أصدقائه ليدافع عن صطوف، وعندما وصل كان الصبية قد تفرقوا تاركين صطوف بثياب مبللة، ووجه أكثر تبللاً.

لم يقترب ناجي من أخيه، ولا هو كلمه، اكتفى برؤيته سالماً من مكانه، وتركه يعود للبيت وحده، بينما كان يتبعه عن بعد ليتأكد من سلامته.

وعندما قص ناجي لأخيه سالم عما حدث ، لم يحتمل الأخير الظلم الذي تعرض إليه أخوه، فجمع شلة من أصحابه، وانتظر صباحاً قدوم الأولاد، وما أن رأى أولهم حتى هجم عليه، وتولى أصدقاؤه أمر بقية الشلة، فلقنوهم درساً لا ينسى، على مرأى من عيني صطوف الذي أحس بنشوة خفية، وهو يرى من ضربوه في اليوم السابق، يضربون أمام عينيه.

ورغم ذلك، لم يعد صطوف يجرؤ على الوقوف وحده بانتظار أخيه سالم للعودة إلى البيت، خوفاً من علقة أخرى، فصار يركض بعد انتهاء الدوام إلى صف أخيه، منتظراً إياه على الباب حتى يخرج، ليعودا معاً.

في ذلك العام، قرر الوالد أن ينتقل الطفلان للنوم في غرفة الجلوس، ليغادرا غرفة نومه، وخصص لكل واحد منهما أريكة من تلك الغرفة، ليشاركا صطوف سقف الغرفة ذاته الذي لم تكن الستارة الفاصلة بين ركنه وبقية الغرفة تصل إليه، كان

بوسعه أن ينام شاعراً بأنفاس أخويه، وأن يواسي وحدته بأنهما يواجهان السقف ذاته بينما هما يحاولان إغماض عيونهما قبل النوم.

على هذا الحال أنهى صطوف دراسة الصف الأول له في المدرسة، وانتقل إلى الصف الثاني دون صوت، ولا أي نية في الظهور، وفي أحد الأيام تعثر صطوف بقط صغير ذي عين مقلوعة، تنزف إحدى قائمتيه الأماميتين، فاصطحبه إلى المنزل، ونظف جرحه، وقاسمه طبق طعامه، يومها نما شريط دافئ كأنه مصنوع من سحابة صيف دافئة في قلبه واخترق شرايينه، فقد بعث فيه ملمس الفراء الدافئ للقط شعوراً بأن هناك من يشاركه طبقه وسريره، وأوجاعه المختبئة خلف قسماته، خاصة وأن هناك تواصلا بصريا طويلا بينهما ،هو الأول من نوعه بالنسبة لطفل يتجنب النظر في عيون الآخرين، ويشعر إن حدث من قبيل الصدفة بنظرات الاستغراب تخدش روحه بعمق فينزف ألماً، بخلاف القط الصغير الذي كانت

تحمـل عينيـه الكـثير مـن الرجـاء والامتنــان، يقـرأ شيئاً منـها للمرة الأولى في عيون تنظر إليه .

أطلق صطوف على قطه الصغير اسم " رفيـق" ، واغتبط لأنـه وجد أخيراً ذلك الرفيق الـذي يشـاركه أوجــاعه، ويسـتطيع أن يضـمه إلـى صـدره دون خوف، لم يكـن اختيـاره لـهذا الاسم عبثيـاً، أو مـن قبيل صدفة محضة، إلا أنـه نبت من جدران ذاكرته بعد حادثـة مـرت عليـه وحفـرت عميقـاً فـي روحـه، يـوم كـانت المعلمـة تسـأل كـل طـالب عـن رفيقـه المفضـل، وعـن الصـفات الـتي يحبهـا فـي ذلـك الرفيق، لكنـها عندما وصل الدور إليـه تخطتـه ولـم تسأله، لأنـها كانت تعلم تماماً بأن صطوف كـائن لا رفيق لـه، وعنـدما صـرخ الأولاد ببـراءة محـاولين تذكيرها بوجود صطوف، قالت لـهم: دعوه وشـأنه ولا تضايقوه ...

لـم تشـفع النيـة الطيبـة الـتي كـانت وراء تصـرف كـهذا يصـدر عـن المعلمـة ـالـتي يعتبرهـا الأطفـال عـادة إنسـاناً خارقـاً عالمـاً بكـل شـيء ـ إعلانـهـا

الواضح عن محو كائن يتنفس عن وجه الوجود، فرغم أنها لم تقصد شراً، وإنما كانت تعتقد أن هذا أفضل ما يمكن فعله لتجنيب الصغير مضايقات أقرانه، خصوصاً أنها لم تكن تبالي أصلاً بطفل اتحد مع خشب المقعد، ولم تسمع له صوتاً منذ دخل صفها في أول يوم له من تلك السنة، كانت تعتقد أنها عاجزة عن فهمه وعن التعامل معه، وأن خير ما يمكنها فعله لأجله هو تجاهله، وكف العيون الفضولية الصغيرة عن مراقبته..هل تنفع النوايا الحسنة في مداواة الجراح العميقة التي تتسبب بها دون قصد،ودون مبالاة؟؟..

منذ تلك اللحظة صار صطوف يحمل قطه بمجرد أن يدخل إلى البيت، ولا يتركه إلا حين يغادر إلى المدرسة، ولو تمكن لاصطحبه معه إلى كل مكان يذهب إليه..مدرسته..صفه..وحتى الطريق ما بين المنزل والمدرسة.. وكان أكثر ما يدهش صطوف

سكوت أمه وعدم معارضتها لهذه الصحبة المفاجئة ..

كائنات من نوع آخر:

تعرفت دلال على طريق الشيخ التلمساني أبو طوق عن طريق جارتها، التي أقنعتها بأن أوجاعها وروحها التي تعاني انشطاراً حاداً، وكرهها الغريب لزوجها، وشعورها بالغثيان من رائحته المفعمة بالغراء، ما هي إلا نتيجة عمل بشع عمل لها لتفترق عن زوجها أو لتموت دونه، أو هو عمل قرينة لها، وخصوصاً أنها فقدت طفلين بعد أشهر قليلة من حملها بهما دون سبب ظاهر، وها هو الأخير يولد ببقع حمراء بارزة على وجهه، حتى أنها تكره صغيرها ولا تستطيع منه اقتراباً، من غير القرينة يستطيع أن يفعل ذلك كله إن لم يكن سحراً حُضِّر لإيذائها؟ وجدت كلمات الجارة أثراً طيباً عند دلال، هي التي

حلت عليها لعنة البؤس منذ حملت بهذا الصغير، ولاقت فكرة القرينة مكاناً سيطرت من خلاله على كل تفكيرها، إثر ذلك صار عليها أن تذهب كل أسبوعين في موعد محدد، وإلى مكان تعرفه جيداً، لتحضر إحدى تلك الحضرات الغريبة، حيث تجتمع فيها ببعض النسوة اللاتي تفوح منهن رائحة الخيبة واليأس، يقودهنّ الرجل بعد انتظار ما يقارب ساعة إلى غرفة متواضعة لكنها كبيرة نسبياً، ليس فيها من الأثاث إلا سجادة حمراء، نوافذها مغلقة بإحكام، وجدرانها شاحبة كأنما هي تكتسب لونها من الملامح المنكسرة التي تجتمع في داخلها، وما هي إلا لحظات حتى يعطي الشيخ إشارة البدء بالقرع على الدف، فتدور النسوة حول أنفسهن متراقصات على قرع الدفوف ورنين الأقراص النحاسية التي تحيط بتلك الآلات الخشبية، حتى يصلن إلى حالة من الدوار الشديد توقعهن أرضاً دون حراك وكأنهن بعثرن همومهن في حلقات مفرغة بينما الدنيا تدور بهن، فتسهو صاحبات الأجسام التي فقدت

توازنـهـا عـن تلـك الـهـمـوم المبعـثرة، حـتى إشـعار آخر يلـوح ببـدء استعادة التـوازن المفقـود، لتعـود كـل واحــدة إلــى التقــاط مــا تبعــثر مــن خيباتـهــا وتودعها في قلب لم يعد يعرف إلا طعم اليأس.

بعد فترة وجيزة من الـوقت، وبعد أن اطمـأن أبـو طوق إلى أنه تمكن من الاستيلاء على عقل المرأة تمامــاً، واصــطياد ولائـهــا لتمنحــه طاعــة عميــاء تمكنه من التحكم بها تماماً، وتجعلها تخفي أسرار طقوسه، وتجلب لـه مـا تستطيع مـن مـال، وحلـي، سمح لـهـا بحضـور إحـدى حضـراته الخاصـة، بعد أن منحها شعوراً بـأنه تفضل عليهـا بحضـور تلـك الطقــوس الــتي لا يحضــرها إلا الخاصـــة، ومـــن أحبتهـم الكائنــات الأخـرى ، وأرادت أن تقـدم لـهـم مســاعدتها، وأخبرهــا أنـهـم طلبوهــا هــي تحديـداً لأنـهم شعروا بمدى ولائها وضعفها، ولم تكن دلال محتاجة لسماع أكثر من ذلك.

في تلك الحضرة، التي كانت الوجوه فيهـا مختلفـة عمـن اعتــادت رؤيتهـن، وبعـد إجـراءات روتينيـة

من دق، وأناشيد، ورقص، وطقوس تتكرر في كل حضـرة، تطـوحت فيـه الـرؤوس ، ومـن ورائـهـا أجساد أصحابها يمنـة ويسرة فـي عتمـة متعمـدة، ثـم اشـتدت وتيـرة الـدق علـى الـدفوف وارتفعـت أصواتها وأصوات الحاضرين من ورائـهـا تعلـو، وتسـارعت الحركـات المتأرجحـة يمينـاً ويسـاراً ازدياداً عنيفاً، فهرولـت مـن ورائـهـا دقـات القلـوب في محاولـة لضخ كمية من الدم تتناسب وتسارع الحركـة، والانفعال الـذي تعانيه الأجسـاد فـي تلـك اللحظات، وما هـي إلا دقـائق حتى فقد الكثير من الحاضـرين الـوعي اللازم للرؤيـة الواضـحة، وعنـدها ظهـرت فجـأة فـي فضـاء الغرفـة المعتـم أشكال غريبـة تبدو كـأقزام ارتـدوا ثياباً مزروعـة بمصـابيح صـغيرة، أو قطعـاً دائريـة مـن القمـاش الفسفوري، كـانوا يتحركـون بشكل ملائم للحلقـة، وقفوا بعدها أمـام الحاضـرين وعلـى بعد مناسب لخلـق خيـالات غامضـة فـي عقـول فقـدت وعيهـا واتزانـهـا، تكلـم أبـو طـوق معهـم سـائلاً إيـاهم عـن حاجة هذا، ومشـكلة ذاك، وأجـابوه بوعـود قاطعـة

ونصائح ووصفات تتناسب وكل حالة، سمعت دلال أصواتهم العميقة التي تبدو كأنها تخرج من بئر عميق، ورسخت تلك الأصوات في ذاكرتها جيداً، يومها عادت دلال امرأة أخرى، وقد فقدت شيئاً من اتزانها، وضيعت جزءاً من عقلها في ذلك المكان.

صار بوسع عقل دلال بعد هذا أن يرسم صورة محددة، مستوحاة من الرؤى الغريبة التي واجهتها في تلك الحضرات لوجوه أعدائها وأشكالهم وأصواتهم، أولئك الذين يحاولون إيذاء ولديها والنيل منها ما استطاعوا، بدأت بعدها ترى أقزاماً بوجوه مخيفة، وأرجل نحيلة كقوائم عنزة، وعيون حمراء، تخرج من الجدران، وتهبط من السقف، وتتجول في بيتها بحرية، فيعتريها الخوف على ولديها الصغيرين، فتركض مطاردة أقزاماً بشعي الوجوه لإبعادهم عن صغيريها، فإن خلدت للنوم سمعت صوت ضحكة جهنمية لكائن لا يمكن أن يكون إنساناً في حال

من الأحوال تتعالى وتتعالى، وقد تناديها أو تنادي أحد ولديها حتى توقظها، وقد غرقت في عرقها، وتسارع قلبها، وارتعدت مفاصلها بما فيه الكفاية لتدخل في حالة ذعر شديد.

قاطعت دلال تلك الحضرات بعد أن لازمتها تلك الكائنات المرعبة، وقضّت مضجعها ولم تعد تفارقها، لم تعد تملك الجرأة على ترك الكائنات وحيدة في المنزل مع ولديها، خصوصاً بعد أن فشل أبو طوق في زياراتها اللاحقة له من تخليصها من تلك الأشباح التي لا يراها ويسمعها سواها، ومنع تلك المخلوقات البشعة من الاقتراب منها، ومن ولديها.

في الأيام اللاحقة صار لدلال وجه مختلف، وجه يحمل الإنهاك والخوف، وعينان تدوران في حلقات مفرغة في فضاء منزل صغير باحثة عن قرينة تضمر سوءاً لها ولصغيريها، كانت القرينة تتناسل كل يوم، وصارت ترى بدل القرينة خمس أو ست قرينات يركضن وراء طفليها، سالم

وناجي فقط دون صطوف، وحدها زاوية الصغير منحته سلاماً ملعوناً بابتعاد أمه عنه، ولم تعانِ ـ تلك الزاوية المهمشة- من ملاحقة شرسة لامرأة يستولي عليها رعب الكائنات غير المرئية، ورعب من نوع آخر على صغيريها، سببه إهمالها المتعمد لصطوف، مما كان يشعرها بالذنب في بقعة خفية غير مرئية من عقلها، كانت تخشى انتقاماً من السماء لهذا الصغير سوف يقع بأحد طفليها يوماً ما، وما بين رعبيها القاتلين لم تعد مساحة نوم متقطع قادرة على جعلها تنال شيئاً من السكينة، ولم يعد بإمكانها أن تحتمل ملاحقة الكوابيس لإغماض عينيها.

إثر ذلك لم يكن أمام ديبو إلا اصطحابها إلى الطبيب علّه يجد دواءً ما لتلك النوبات التي تنتابها، إلا أن إقناعها بمغادرة المنزل كان أمراً شبه مستحيل، فقد تحولت إلى حارسة لزواياه، لا تستطيع الخروج منه، خوفاً من مؤامرة لا تدرك كنهها قد تطال صغيريها.

ولم يفلح الزوج في إقناعها بمرافقته إلى الطبيب، إلا عندما اصطحب ولديها معها في تلك الزيارة، على أنه اضطر إلى إحضار الطبيب إلى المنزل في مواعيد المراجعات التالية.

ورغم زيارة الطبيب المتكررة، وأكداس الحبوب المهدئة والمنومة، إلا أن استلابها بفكرة الكائنات التي لا يراها الآخرون كان أكثر من مزمن، ولم تفلح الحبوب والإبر من انتشال تلك الفكرة من رأسها.

—

<u>قبلة الحمامة المهاجرة:</u>

ولم يكد صطوف يبدأ عامه الخامس في المدرسة، حتى تكالبت الأوجاع على أمه إثر ذلك الرعب المزمن الذي لازمها كدم يجري في شرايينها ، فأقعدها طريحة الفراش ، كان صطوف يراقبها من بعيد فيراها شاردة في أفق بعيد، تستيقظ من شرودها فجأة لتطارد شيئاً غير مرئي بعينيها،

بينمـا تشـي نظراتهـا برعـب لا يوصـف، وقـد استوطن روحـاً مـذعورة لـم تعـد تعـرف معنـى الطمأنينـة، ولتمـزق سـكون الغرفـة بصـراخها المخيـف، فيستبد القلـق فـي روحـه، يشـتهي أن يستلقي إلـى جانبهـا ، أن يناولهـا كـأس المـاء، وأقـراص الأدويـة، والمنومـات المتكدسـة إلـى جوارها، كما كانت تقدم لـه طبق طعامه، إلا أنـه كـان يدرك تمامـاً رغبـة أمـه فـي ابتعـاده عنهـا ، فيكتفي بمراقبتها بحزن من بعيد، وهي تذوي كل يوم ، لا أدوية توقف أوجاعها، ولا أعشاب طبية تريحها، كانت الأوجاع تجتاحها بشكل أشرس كل يوم ، حتى الأطباء وقفوا عاجزين أمام مرضها وأعراضه الغريبة.

استسلم ديبو للأمر الواقع، لم يعد يقترب من زوجتـه، ولا يـوجه إليهـا حديثاً خوفاً من نوبـة هستيرية قد لا يفلح في إخمادها، صار يدخل بيته بصمت، ليعد الطعام بنفسه، ويتناول غداءه مع ولديه، بينما بقي صطوف على عهده مع أمه،

رافضاً مشاركة عائلته الطعام، وكما علمته أمه تماماً، ظل ينزوي في ركن صغير في المطبخ، يتناول طعامه على عجل، ميمماً بعدها شطر مكانه المعتاد.

أما الولدان فقد تعودا على العناية بأنفسهم، والقيام بما يحتاجانه وحدهما، حتى عودة والدهما وقت استراحة الغداء، محاولاً خلالها التأكد من أن كل شيء في المنزل على ما يرام، يستلقي قليلاً بعدها إن أسعفه الوقت بفائض منه، ويغادر في الوقت المحدد إلى عمله دون صوت، وفي الليل لا يصل ديبو إلى المنزل إلا وقد نام الجميع، تمهيداً لاستيقاظ مبكر في اليوم التالي.

مر على مرض دلال هذا قرابة ثلاثة شهور، لا أنينها ينقطع، ولا مرضها يشفى، ولا رعبها يتلاشى من عينيها، وفي كل يوم كانت نصال الألم تحفر في قلب صطوف حفرة أعمق من ذي قبل ، كان يتوجع مع أمه ، وتزداد رغبته في عناقها ، في البكاء لأجلها ، إلا أن تلك النظرة

التي كانت تحدجه بها لم تترك لديه أي جرأة للاقتراب منها ، وكيف سيجرؤ ؟؟..

في ذلك اليوم استيقظ على حلم غريب، وقد استبد به شعور سيء، كما لو أن أحداً يعتصر قلبه بقوة، لم يدرك لهذا الشعور معنى، ولا استطاع أن يفك طلاسمه، كان قد حلم بأن أمه قد تحولت إلى حمامة وطارت بعيداً عن المنزل ، إلا أنها قبل أن تطير توقفت على كتفه وقبلت خده ، وعندما استيقظ كان يشعر بأوجاع أمه وقد انتقلت إلى أحشائه ، ودموعها وقد سكنت في عينيه ، كان يشعر في قرار نفسه أن هذا اليوم يحمل حدثاً غير عادي في طيات ساعاته الممتدة إلى ليل ما زال بعيداً ، ولم يغادر يومها إلى المدرسة كما فعل أخوته ، بل بقي وحده مع أمه، متحججاً بمغص ألم به، بعدها خرج أبوه إلى الورشة كالعادة تاركاً إياه وحده مع أنين أمه.

استمرت مراقبته لأمه طوال النهار، بدت وقد استكانت لأوجاعها تماماً، ولم تعد تصدر

أنينها المتقطع الذي كان يمزق شرايينه، بينما كانت في سرها تتوجس شراً من بقائها وصطوف وحدهما في المنزل، كأن بقاءه إلى جوارها نذير شؤم، هي التي ما رأته يوماً إلا سبباً في كل مصائبها وخيباتها.

وعندما جاء المساء بعتمته، ازداد الغم في قلبه الصغير، وغدا متأكداً أن شيئاً بشعاً سوف يحدث قريباً جداً، وأن هذا الشيء يتعلق بأمه فقط، ولا أحد غيرها، دون أن يدرك تماماً ماهيته، أخيراً قرر أنه سيقترب من أمه، سيعانقها ويمسك بيدها، اتجه نحو غرفتها مقترباً من الباب ذي اللون العاجي المصفر، صار اضطرابه وتردده يزداد كلما اقترب من ذلك الباب، توقف قليلاً عنده، رأى أمه ترقد على سريرها الخشبي الواقع إلى يمينه حيث يقف، ولما لم يجد منها ما يجبره على العودة عاود التقدم ثانية بخطواته المترددة التي تحمل في اقترابها البطيء من سرير الأم احتمالات مفتوحة للتراجع في أي لحظة ، وما

بين احتمالين بالاقتراب والتراجع، كان قلبه يخفق بقوة لم يعهدها قبل اليوم، بينما كانت يده اليمنى تحاول أن تغطي تشوه الخد في نصف وجهه الأيمن ، لئلا تراه أمه فتحدجه بتلك النظرة طاردة إياه إلى منفاه الصغير الذي أجادت ترتيبه ليصبح شيئاً لا يشبه إلا مكاناً لكائن مبعد.

وعندما اقترب منها وجدها تحدق في سقف الغرفة دون أدنى حركة ، اقترب أكثر ، فلم تبد ممانعة، ولا حتى رضا، بل ظلت كما هي تماماً ، أمسك بيدها ، قبل تلك اليد وضمها إلى صدره ، ابتلت كفها بدموع صطوف التي لم يستطع حبسها، وهو يشعر بنفسه للمرة الأولى قريباً كل هذا القرب الحميم من جسد تلك التي جاءت به إلى الحياة كارهة له ، ثم اندس إلى جوارها في السرير، كان يستشعر دفء جسدها للمرة الأولى في حياته ، التصق بها بقوة حتى لم يبق بين الجسدين مسافة تكفي لنملة ، وأغفى تلك الليلة

وهو يحلم بعصافير وردية تطير مع الحمامة التي تحولت إليها أمه ، وتحط على يديه.

لم يلتفت الصبيان الآخران إلى غرابة حدث كهذا، فما تعود أحد منهما تفقد الزاوية القصية، والكائن المحتبس في جدرانها دون سبب، كعادتهما التي اكتسباها منذ اشتد مرض الأم، كتبا وظائفهما وأنهيا دروسهما بالإتقان اللازم، وتسللا قليلا للعب في الحارة، ثم عادا بهدوء، وتناولا ما وصلت إليه أيديهما للعشاء، وتسللا بنفس الهدوء إلى فراشيهما، متلافيين نظرات الأم الغاضبة عندما تكتشف بنظرة واحدة إليهما أنهما قد خرجا إلى الحارة للعب دون إذن منها.

بعد فترة من الزمن دخل والده إلى الغرفة ، نظر إليها ، اقترب منها، ووضع كفه على عينيها مغلقاً جفونها على آخر منظر رأته , سقف الغرفة .. كان صطوف يتقلب بين اليقظة والنوم عندما سمع صوت نحيب أبيه وهو يودع زوجته، ولم ينتبه الأب لوجود كائن ما زال

يتنفس في فضاء غرفة تنعي جدرانها رحيل صاحبتها، فجسده الضئيل كان ملتصقاً تماماً بجسد أمه، وملفوف بالغطاء بشكل يواري تفاصيل ذلك الجسد، بينما أكمل صطوف نومه غارقاً في أحلام تعشش فيها حمامات وعصافير من كل لون ونوع، دون أن ينتبه إلى أن الصوت الذي سمعه ما هو إلا نحيب أبيه وهو يودع زوجته.

تلك الليلة لم يغادر صطوف فراش أمه ، فقد أدرك ديبو أنه من المستحيل إيجاد سيارة لدفن الموتى في وقت كهذا، وفي مثل هذه الليلة الباردة ، ولذلك أجّل إجراءات الدفن حتى الصباح ، وجلس في الغرفة الثانية يتأمل طفليه النائمين، متسائلاً عما يمكن أن يحدث عندما يخبرهما بخبر موت أمهما، وغير منتبه إلى غياب ثالثهما عن فراشه، بانتظار فجر موحش مثقل بالفقد .

أما صطوف فقد كانت تلك الليلة ليلة لقاء لم يعشه قبل اللحظة، ولم يحلم بأن يعيشه ولو مرة

في عمره، استبدت به مشاعر الحب، وانكفأ يعلن وجوده إلى جانب أمه دون أن يدرك تماماً أنها لا تشعر به.

أحس بجسدها وقد أصبح بارداً لا حراك فيه، فأحكم الغطاء على جسديهما، وعاد ثانية إلى عصافيره الوردية وهو يعانق أمه لليلة هي الأولى والأخيرة في عمره الذي لم يتجاوز التاسعة.

وما أن حان الصباح حتى صرخ فيه أبوه الذي فوجئ بوجوده في سرير أمه، وإلى جوار جثتها الهامدة موقظاً إياه من ليلة كانت من أجمل ليالي عمره، عندها فقط ولما لمح النساء اللواتي حملن أمه دون أن تبدي الأخيرة أي ممانعة، أدرك أن البرد الذي كانت تعاني منه أمه لم يكن مجرد حالة مرَضيِّة , بل كان حالة أزلية لفقد سوف يحياه لحظة بلحظة ..

ورغم أنه شعر لحظتها بشيء يشبه البكاء، إلا أن الليلة التي قضاها ملتصقاً بكل تلك الحميمية بجسد أمه، كانت حلماً قد تحقق مقدماً له العزاء بأكثر من طريقة ، وأكثر من شعور، كأن شيئاً من الحنان الذي يفتقد وجوده مر عبر الأوردة المتشابكة طيلة الليل إلى جسده.. سويعات بعدها وحُمل جسد الأم في صندوق خشبي من داخل المنزل، كان يتابعها بعينين دامعتين وقلبه ينفطر حزناً .. أراد مرافقتها لكنه لم يجرؤ على طلب ذلك، وعندما خرجوا بها، وغادرت سيارة دفن الموتى حاملة التابوت الخشبي، وجد نفسه يركض ويركض محاولاً اللحاق بها دون جدوى، فارتد على عقبيه يجر أذيال الخيبة نحو منزله.. نحو ركنه، وقد أدرك أنه لن يلحق بها مهما ركض.

عندما عاد بوغت بالغضب الذي بدأ يتراكم فوق شغاف قلبه ، كانت فكرة الليلة الوحيدة التي قضاها إلى جوار جثة أمه قد بدأت تشعل في قلبه

نـاراً، وتحـوّل شـعوره بالرضـا فجـأة إلـى سـخط شـديد،رسمته علـى قلبـه استفهامات لا تجـد لهـا صوتاً تنطق بـه، مسببة أخاديد عميقـة فـي عمـق شرايينه، لماذا لم تسمح لـه بالاقتراب منـها ؟ لماذا لم تتركه يشعر بدقات قلبها ودفء جسدها ؟

كعادته أخفى كل شعور يعتريه خلف ملامـح باردة لا أحد يستطيع أن يقرأ تفاصيلها ، وانتحب بصمت عصيٍّ على إدراك مـن حولـه ، وانكفأ إلـى ركنـه معانقـاً "رفيـق" صـديقه الأعـور،مدركاً أنـه ليـس لـه سـوى هـذا الركـن، وهـذا الرفيـق ، وأن ركنه في الحياة سيبقى قصياً ما دام في جوفه قلب ينبض.

منـذ مـاتت أمـه عـرف تمامـاً كيـف يكـون النحيـب صـامتاً ، والأعاصـير دون صـوت ، والـبراكين سـاكنـة، والغيـوم الحبلـى بمطـر لا يسقط أبداً..

لم تكن لديه القدرة على رفع صوته ، ولا حتى البكاء ، فقد كان البكاء رفاهية لا يمكنه أن يدفع ثمنها حين يمطره الآخرون بنظرات ملأى بالشفقة أو بالاستغراب, وليس من السهل على مثله أن يلملم نظرات الشفقة المتساقطة حوله ككائن أقل من إنسان، وأعلى بقليل من حيوان ، لذلك أدمن صطوف النظر إلى الأرض متجنباً تلك النظرات المشفقة , وحدها تلك النظرات كانت تحمل له الموت بنيران صديقة لا يستطيع الرد عليها ، بينما كان بوسعه أن يبادل نظرات الشماتة أو الازدراء بنظرات أكثر شراسة وعداوة منها، حتى ولو لم يشعر أصحابها برده الصامت الخالي من أي مواجهة مباشرة لا يتقن تقمص تفاصيلها.

كان ذلك هو الدرس الأول الذي قدمته الحياة لقلب صطوف مغمساً بالخيبة ، منحته فيه رفاهية ليلة في سرير أمه هو اليوم الأخير في حياتها، هل كانت ستبقى على قيد الحياة لو أنه لم ينم بجانبها

تلك الليلة؟ سؤال ألح عليه لليال عدة قبل أن يستسلم لفكرة الموت المحقق، أدرك بعدها أن عليه ألا يغادر ركنه، وأن ما يحدث عندما يغادره لن يكون شيئاً يرغب فعلاً في تجربته، لذلك لزم مكانه القصي ولم يعد يخرج منه مطلقاً.

بالنسبة إلى أفراد الأسرة العالقة في بيت صغير غارق في أحزانه، أكد صطوف يوماً بعد يوم تحوله إلى ركن من أركان المنزل البارد ، كرسي .. طاولة .. أي شيء إلا إنسان .. لم يكن في وسع أحدهم أن يشعر بغليان مشاعره ولا باحتباس حزنه ، هم الذين ما عرفوا في وجهه إلا ملامح يغشاها الصقيع ، وحده أخوه الأوسط فتح للود نافذة خلفية لا تطل إلا على أحزان كائن صامت، ووقف من أخيه في مكان أقرب بقليل من مكان الآخرين، وأبعد بكثير مما يحتاج إليه صطوف فعلاً، إذ لم يكن من السهل اختراق الجدار السميك الذي وضعه كائن موجوع

ليفصل بينه وبين الآخرين في محاولة منه للعيش بأقل الأضرار الممكنة .

كانت أوجاعه تزداد كل يوم ، تلك الليلة لم تفارق مخيلته لمرة واحدة، فهي تشبه أكثر ما تشبه شعورا واحدا بالتخمة مُني به إنسان اعتاد على الجوع حد الفجيعة ، كيف يبرر لهم جوعه حين كان إطعامه سهلاً جداً، ليلة واحدة كانت ، ليلة لم يعد في وسعه أن ينتشلها من ذاكرة الفقد .

سنوات مضت بعدها وصطوف لا تغادره ذكرى تلك الليلة الوحيدة الدافئة التي قضاها إلى جوار أمه ، وسؤال واحد يبرز له من كل زاوية وركن ليقض مضجعه مرة تلو الأخرى، هل كان عليها أن تموت حتى يُسْمَح له بالاقتراب منها ؟؟..

سنوات وملمس جلدها لا يفارق ذاكرة حواسه العطشى ، ودفئها وبردها يؤرجحان

غضبه بين نار وثـــلج .. سنوات والأسئلة تتناسل تلقائياً فـي دمـاغ صـغير لا ينقصـه الـذكاء بقدر مـا ينقصه الحب والاهتمام .. سنوات وهو يقارن بينـه وبين أخـوتـه، ويتسـاءل عن سبب مقنـع لإقصـائـه عن عائلته بهذا الشكل الموجع، هل كـانت بشـاعة ملامحه كافية كمبرر لكل هذا الإقصاء؟

لم يكن لدى أحد منهم إجابة شـافية حتى وإن هـم سمعوا بأسئلته الصـامتة تلك، فقد مـاتت الحقيقـة مع أمه، ولم يعد هنـاك مـن يمتلك إجابـات لأسـئلتـه العقيمة.

ذلك الخوف المزمن:

كبر صطوف وكبر معه الخوف الساكن في صدره منـذ نعومـة أظفـاره، صـارت النسـاء كلهـن أمـه،

وأمه اختزال موجع لكل نساء الأرض..في مرحلة لاحقة صار عليه أن يدرك خوفه تماماً، وأن يدركه ذلك الخوف، وأن تطفو مشاعره بطريقة أو بأخرى لتحتل مكانا مرئياً منه شيئاً فشيئاً، صارت تلك المشاعر تبعثره فلا يستطيع أن يلملم شتات ذاته أمام امرأة..تلك التي فقدت رقتها، فأفقدته شهيته للحب والحياة، استيقظ يوما ليدرك أنها أصبحت في عينيه كائناً مخيفاً مرعباً، تعتريه جميع أنواع الاضطراب في حضرتها، ولا يعود إلى طبيعته وتستكين مشاعره إلا في حضرة غيابها، ورغم أنه للغيابات ألف معنى ومعنى، إلا أنه ولديه فقط كان الغياب أمناً لا حدود لسكينته، أما الحضور ،فقد كان لعنة تقع على كيانه فلا يستطيع منها فكاكاً..وصار أكثر ما يثير زوابع اضطراباته الملفتة لعنة ذلك الحضور .

عندها فقط أصبح الخوف امرأة، والقلق امرأة، صار يشعر بقلق شديد واضطراب أشد عندما تقترب إحداهن ولو دون قصد من هالته، تلك

الهالة التي تحيط به ويعجز أي إنسان مهما كانت صفته عن اختراقها للدنو منه ولو قليلاً، وتحولت شيئاً فشيئاً إلى تيار كهربائي صاعق، يعلن جريانه في دمه بمجرد أن يكون تحت مرمى نظر امرأة، فتركض يده تلقائياً لتخفي بكفه ذلك الخد المشوه، موارياً عينه بالكف نفسها، على صوت إيقاع قلب يعلن أنه في مرمى نيران ليست صديقة على الإطلاق، وأنه يمر بلحظة توتر شديدة تبدو فيها حياته برمتها في خطر، فيرتفع إفراز الأدرينالين في جسمه، وتعانق نظراته الأرض مستجيرة بها في محاولة للشعور بسكونها، وهي تكاد تميد من تحته، ويعلو صدره بقوة ويهبط متناغماً مع تنفس يبدو كأنه لإنسان يركض هارباً من خطر ما، رغم أنه لا يتحرك فعلاً، بل على العكس تماماً، فقد كانت تنتابه في تلك اللحظات بالذات، حالة من السكون المتحرك المشحون بالقلق، يراوح فيها نصفه الأعلى متأرجحاً إلى الأمام والخلف، بحركة تحمل أنفاس القلق المدمر موزعاً بين طرفيها، بينما هو في

مكـانه حيـث تلتصـق قـدماه بـالأرض بقـوة كـأن الجاذبية الأرضية لم تعد تجذب شيئاً علـى الأرض إلا قدميه، فلا يستطيع حراكاً مـن مكـانـه، فقد كـان اقتراب امرأة منه يجعله يتكوم بجانب أقرب جدار أو سـيارة أو حـتى حاويــة للقمامــة يراهــا فــي طريقـه، أي شـيء ثـابت فـي مكـانه يلتمـس منـه الشعور بالسكون، ليتقوقع داخـل نفسـه، ويـراوح بمــا فــوق خصــره إلــى الأمــام والخلــف، كــأنه بالتصــاقه يعلـن اطمئنــانه للجمــادات أكـثر ممــا يطمئن لامرأة لم تنتبه إليه، لـولا سلوكه الغريـب، وحركــاته المتــوترة، ونظراتــه المثقلــة بــالخوف والشك.

لذلك صار صطوف مجـالاً لتنـدر الصـغير والكبير، فحركاته البندولية الغريبة المتراوحة نحـو الأمـام والخلـف، والـتي لـم تجـد تفسيراً مقتعـاً لـدى مـن حـولـه، كـانت جالبـة للانتبـاه، بـل حـتى للاسـتنكار والاسـتغراب، حـتى كونهـا لا إراديــة ولا يسـتطع إيقافها لم يكن ليشكل فارقـاً لـدى مـن يراهـا، فهـي

مستهجنة على أي حال، كان البعض يرجع ذلك إلى كونه مضطرب العقل، بينما يفسرها البعض الآخر بأنه إنما يحاول لفت الانتباه، إلا أن الأمر بحقيقته لم يكن كذلك أبداً، فقواه العقلية لم تكن تعاني من أي اضطراب، ولم يكن يسعى للفت الانتباه، بل على العكس ،كان في قرار نفسه يتمنى لو يتحول إلى كائن شفاف غير مرئي، ليتخلص من تلك النظرات المتفحصة التي تمطره بوابل من علامات التعجب، كان الاضطراب في قلبه ومشاعره، وذاكرة الوجع التي تواجهه كل يوم بذكرى عينين ترقبانه بنظرة عدائية تجبره على التقهقر إلى الخلف، إلى حيث ذلك الركن القصي .

كانت المرأة بالنسبة له كائنا مخيفا، كائنا يكرهه ومستعد لإيذائه بأي طريقة، لم يرَ منها مرة واحدة ما يوحي إليه بالاطمئنان وإن قليلاً، فالمرأة هي أمه التي ما أحبته يوماً، رغم حبه لها ومحاولته لإرضائها بأي طريقة تخطر في باله،

وهي الكائن الذي واجهه دوما بنظرات باردة أقسى من طلقات الرصاص، ولم يسمح له بالاقتراب إلا عندما أصبح جثة هامدة، في ليلة كان يحتفي بها للمرة الأولى في عمره القصير بالحياة والحب.

أما الرجل..أبوه ..وحتى إخوته فقد كانوا كائنات حيادية، ربما لم يلتصقوا به يوماً، ولم يقدموا له شيئاً يذكر، إلا أنه كان بوسعهم دائماً أن يقتربوا منه ويحدثوه، ويشاركوه طعامه، ويرافقوه إلى المدرسة، حتى " رفيق" الكائن ذو الفراء، الأعور الذي لا يفارقه كان ذكراً، لذلك لم يكن الرجل كائناً مخيفاً بالنسبة له..فهو حيادي فحسب، وبوسع صطوف دائماً أن يتعامل مع ذلك المخلوق الحيادي، ربما ليس بالسهولة المفترضة، إلا أنه على أي حال لم يسبب له جرحاً مفتوحاً ينزُّ ألماً وخوفاً ووجعاً...ينزُّ خيبة.

كل تلك السنوات والأب يعزو عزلة ابنه صطوف إلى شكله المختلف عن أخويه، وإلى

غيرته منهما، ومن معاملة الأم لهما ، اعتقد أن صطوف فرض عليهم عزلته من حيث لا يدرون، وحدها الأم علمت كيف دفعت صغيرها إلى ذلك الركن وحبسته هناك وحيداً عندما خافت منه على ولديها، وخشيت أن يؤذيهما بطريقة أو بأخرى ، إضافة إلى أنه كان الدافع اليومي لإعادة شريط الذكريات المؤلم ، لذلك سجنته في الركن محروماً من أي انتباه تبديه الأم صوب صغارها. استسلم صطوف بعدها لتفاصيل حياته اليومية الباردة مدركاً انه ليس سوى عبء قاسٍ على قلب أمه ، لذلك أراد أن يفعل لها أي شيء ,أي شيء على الإطلاق لكي يستحق حبها , ولذلك أيضاً عندما أوعزت إليه أن يحبس نفسه في ذلك الركن، وأن يبتعد عن أخويه، وعن مرمى نظرها لم يعترض، ولا هو غادر ركنه منذ ذلك اليوم، منتظراً أن تشعر بحبه، وأن يستحق القليل.. القليل فقط من اهتمامها وحبها.. وهكذا ازدادت عزلته يوماً بعد يوم ، وماتت الكلمات على شفتيه فدفنها دونهما.

كان شعوره بالظلم يتنامى كل يوم بعد موت أمه ، ومنذ ذلك اليوم لم يعد في مقدوره أن يصفح مطلقاً، صار الصفح معجزة..والمعجزات لا تتأتى إلا للأنبياء.

في ذلك الوقت وعلى طرف ناءٍ من الحائط الذي يسند خاصرة فراشه في ركنه القصي، بدأ صطوف يكتب ما يخطر في باله، أو ما يمسه من الكتب التي يقرؤها،بخط صغير منمنم، لا يراه إلا من تفحص الجدار عن قرب، كان يتعمد أن يجعل خطه صغيراً غير مقروء، فتلك العبارات كانت تخصه وحده، ولا يريد أن يشاركه خيبتها شخص آخر كائناً من كان، وبدأ يضيف كل يوم عبارة، كأنما هو يحولها إلى مذكرات للخيبة..أول شيء خطه كان عبارة من ثلاث كلمات، وبقلم أحمر" ليتني متُّ معها"، كان ذلك بعد شهور من موت أمه، وكأنما صارت تلك العبارة عنوانا لمذكراته الجدارية المنمنمة، بعدها كتب على نفس الجدار أبيات كان قد حفظها من ديوان شعري لأدونيس

لا يفارق ركنـه، شعر منذ أن قرأها للمرة الأولى بـأن الشاعر كتبه عندما خط كلماتها، وأن تلك الكلمات تحولت إلى أيقونة لروحه لا تشير إلا إليه:

نحن صغنا من الغيابْ

صنماً من ترابْ

ورجمناه بالحضور

الطريق الذي كاد أن يبدأ

أيّ هذا الطريق الذي يجهل أن يبدأ

<u>امرأة أخرى في البيت:</u>

ما هي إلا سنوات قليلة حتى شعر ديبو بحاجة البيت إلى امرأة، في البداية لم يستسلم لهذا الشعور، إلا أن تدبير أمور البيت والأولاد بدأ يزداد صعوبة يوماً بعد يوم، في حقيقة الأمر لم يكن في وسع رجل كديبو أن يكون مبادراً، إلا أن أحد جيرانه أخبره بأن عليه أن يتزوج، ورشح

له امرأة في أواخر الثلاثينيات من عمرها، علاوة عن كونها عاقراً، مما يجعل فرصة احتوائها لأولاده أكبر، لم يأخذ الأمر وقتاً كبيراً حتى دخلت الزوجة منزل الزوجية الصغير، كان وجه صطوف وحركاته وهو يخفي خده، ويتسمر ملتصقاً بالحائط مراوحاً بظهره بين الأمام والخلف كلما اقتربت منه يزعجها كثيراً في بداية الأمر ، إلا أنها بعد مدة لما آنست منه مسالمة، وابتعاداً عنها، وخفَّ قلقه لاقترابها منه لم يعد وجوده يعنيها بشيء، ولأنه على خلاف إخوته كان يطيعها، ويساعدها فيما تطلبه منه دون اعتراض ولا تأفف، وينسحب في الأوقات الأخرى إلى ركنه ليعانق رفيقه ذا الفراء ويقرأ كتاباً دون صوت ، فهي لم تضطر يوماً إلى إزعاجه ، وحيث أن المرأة عقيم، كان عليها أن تشعر بشيء ما تجاه أولاد زوجها، وبالنسبة لها فقد شعرت بنفور كبير تجاه أخويه ناجي وسالم ، ذلك أنهما قلما تركاها بسلام، أو أطاعا لها أمراً، ليس لأنها زوجة الأب الشريرة التي يرغبان في إزعاجها،

وقض مضجعها، في محاولة منهما لإخبارها بأن مكان أمهما لا يمكن لامرأة أخرى مهما كانت صفتها أن تحاول اختلاسه، دون أن تدفع ثمن تسللها إلى ذلك المكان المقدس، ولكن لأنهما ما تعودا أن يُرفض لهما طلب، أو أن تقال لهما كلمة"لا" في حياة أمهما بتلك الطريقة الجافة التي تواجههما هذه المرأة بها في كل مرة أرادا شيئاً ما، وكأنما لا تعرف إلا الرفض، ولم تسمع بكلمة (نعم) من قبل، كانت بدورها تحاول أن تلملم خيوط هذا المنزل وتمسك بزمامه، عازمة أن تصبح الآمرة الناهية..إلا أنها سرعان ما اصطدمت مع مراهقين لم يسمحا لها بالتمادي أكثر مما ينبغي، يومها فهمت المرأة أنها ستكون في مواجهتهما كل مرة، فألانت لاءها قليلاً، وتعلمت كيف تقول لهما (نعم)، وبقيت تلك الـ (لا) مدخرة لصطوف وأبيه..فهما من استطاعت السيطرة عليهما دون مجهود يذكر .

في تلك السنة كان صطوف قد أصبح في الثالث الإعدادي، عندما حدث ما هزه من الداخل، وجعله للمرة الأولى يذهب إلى المدرسة دون أن ينهي واجبه المدرسي بالشكل المطلوب- هو الذي لا يجيد إهمال ما يطلب منه مهما كان- حين ترك واجب اللغة العربية دون حل، بدا ذلك بمثابة منعطف خطير على قمة منحدر، عليه أن يعبره في ليلة مظلمة مكفهرة دون أدنى معالم تشير إلى الاتجاه الصحيح، حيث قرر الأستاذ أن يكون واجب مادة التعبير لطلابه يتلخص في سؤالين عليهم أن يصنعوا منهما موضوع إنشاء : "من أنت؟ وماذا تريد؟" حيث توجب على كل طالب أن يكتب عن نفسه وأحلامه ما لا يتجاوز السطور العشرة، عندها فقط وقف صطوف عاجزاً عن معرفة نفسه، وعن تحديد أمانيه، لم يكن ممكناً بالنسبة له أن يكتب أنه يتمنى أن يتعافى من خد مشوه، فمن شأن إجابة كتلك أن تترك جراحه مفتوحة تنزُّ بخيبة فوق احتماله، على مرأى من العيون الفضولية التي لم تكن لترحمه، حتى وهو

يخفي جراحه، فكيف به إن هو جاهر بها، يومها كتب صطوف في الإجابة أبياتا من قصيدة أخرى لأدونيس، وتركها هكذا جوابا غير وافٍ لسؤال ظالم مزق روحه:

يكفيك أن ترى

يكفيك أن تموت من بعيد

أن تحضن الذرى

لا صمت في عينيك لا كلام..

كأنك الدخان..

جلدك يسّاقط في مكان..

وأنت في مكانْ..

يكفيك أن تعيش في المتاه

منهزماً ..أخرسَ..كالمسمارْ..

أدرك المدرس أن اختياره موضوعا كهذا لإنسان مثل صطوف خطأ فادح، وأنه قد جانب الصواب عندما وجهه إليه ، فاكتفى بمنحه علامة عالية تكفيراً عن إساءة غير مقصودة، ورغم ذلك ترك ذلك السؤال ندبة في قلب صطوف لم يستطع يوماً أن يتجاهل وجودها.

عالق في رائحة الغراء :

بعد ذلك بوقت قصير كان ناجي قد حقق حلمه بدخول كلية الطب، بعد أن بذل قصارى جهده لنيل العلامات التي تؤهله لارتياد تلك الكلية، فقد كان يحلم بالمعطف الأبيض، وكانت أمه تعزز فيه ذلك الحلم قبل أن ينتشلها الموت، كان لناجي أحلام كثيرة، وبوابة تلك الأحلام مغلقة لا يفتحها إلا معطف أبيض، وسماعة تتدلى على صدره، فتجعل منه رجلاً محترماً، وتنتشل آثار الفقر عن ملامحه، وتهبه رفاهية قيادة سيارة خاصة به، والسكن في منزل خارج تلك الحارة العفنة، وما لبث أن حصل سالم على الثانوية العامة، وسمح

لـه مجمـوعه بارتيـاد كليـة الهندسـة ، فـي الـوقت الـذي اجتـاز صـطوف المرحلـة الإعداديـة بنجـاح ، وكان عليه أن ينقل ملفـه إلـى المدرسـة الثانويـة ، إلا أن زوجـة أبيـه سـرعان مـا تـدخلت مقنعـة أبيـه بعـدم ضـرورة إكمـاله للتعليـم، كـانت حجتهـا أن أسـبوعية الأب لـم تعـد تكفـي ، وأن مصـاريف الجامعـة والمنـزل لا يمكـن لراتبـه البسيط الإيفـاء بهـا ، ثـم مـا فـائدة تعليـم كـائن متوحـد فـي صـمته منعـزل كصـطوف.؟؟..لا شـيء ، فحـتى لـو أصـبح طبيبـاً كمـا يحلـم لـن يقصـده مريض واحـد وهـو يرى هذا الطبيب إنسانا يعاني من انتكاسات الفزع بشكل لا يخفـى علـى أحـد، أي مريـض يستطيع أن يثق بطبيب لا يعلم كيف يجد علاجاً لخوفه؟؟.

استشاط سالم غضباً عندما علم بنية أبيـه المبيتـة لمنـع صـطوف مـن إكمـال تعليمـه، فـانبرى ينـاقش أبـاه متسـائلاً عـن مسـتقبل هـذا الصـامت الـذي لا يعـترض، مفترضـاً أن مصـروف الـبيت مسـؤولية الكبـار قبـل الصـغار، وأنـه يمكـن تـدبير أمـره إن

عمل جميع الأولاد معاً مساء، إلا أن زوجة الأب والأخ الكبير ناجي وقفا في وجهه مبررين الأمر بأن صطوف رجل لا مستقبل له، وأنه هو نفسه لم يعترض في إشارة مبطنة منهما إلى رغبة تنتابه لترك التعليم لم تكن حقيقية على الإطلاق، مما أشعر الأب بأنه لا غضاضة في قراره..وأنه ما رأى وقرر إلا الصواب.

وهكذا أخرجه أبوه من المدرسة، وسحبه وراءه إلى ورشة أبي نعيم الذي لم ير نعيماً ولا غيره، بعد أن فقد نعيمه في ليلة كانت دلال تدعو ربها ودموعها تجري ساخنة على خديها بأن يحرق دمه كما أحرق دمها ، وأن يذيقه العذاب الذي رأته، دعوة قصمت ظهر بهجته منذ ذلك اليوم .

بدا أن موقف أبي نعيم كما شعوره حياديان للغاية ، لم يكره صطوف رغم حركاته الغريبة، ولا هو أحس بأي عاطفة تجاهه، بالنسبة له صطوف مجرد عامل ماهر تعلم كيف يقوم بعمله

علـى أتـمّ وجـه، و بسـرعة قياسـية، وإتقـان ملفـت للنظر، فضلاً عن قــوة فـي ذراعيـه حـباه الله بهـا جعلت حمل قطع الأثـاث الثـقيلة أمراً منوطاً بكفيـه القويين دون غيرهما.

كـانت الورشـة عبـارة عن غرفـتين كبيرتين، فـي قبـو أحـد الأبنيــة المطلــة علــى الشــارع الرئيســي الـذي تختـبئ وراءه حـارة صـطوف، إحـدى تلـك الغرفـتين تقـع علـى المـدخل العريـض، الـذي يبـدأ بانتهاء درجات سبع، تقـع أولاهـا علـى الشـارع، بينمـا كـانت الغرفـة الأخـرى مختـبئة وراء الأولـى، بحيث لا يمكن رؤيتهـا مـن الخـارج، هنـاك اختـار صــطوف أن يعمــل مخفيــاً وجهــه عــن الزبــائن والمـــارة وكـــل ذي عينيـــن، متلافيـــاً أي احتكـــاك يعرضـه لنظـرات الاسـتغراب والدهشـة والتفحـص التي تواجهه كلما مر بوجه جديد لا يعرفه.

وفي نـهاية الأسبوع كان أبو نعيم يلقم ديـبـو أجرتـه الأسبوعية، وأجـرة ابنــه ، ولـم يسـأل ديبـو مرة إن كان هذا الكائن الذي يعمـل جنبـاً إلـى جنـب

معه في الورشة يحتاج إلى بعض النقود له ، كـان يكتفـــي بإعطـــاء أولاده الآخريـــن مصـــروف جامعاتهم، أما صطوف فما حاجته إلى المـال هو الـذي تعـود أن يرتـدي ثيـاب أخـويه وأحـذيتهما، والحجــة الدائمــة أن أخــويه طلاب فــي الجامعــة ومظهرهمـا أمـام زملائهمـا يجـب أن يكـون لائقـاً، أما هو فمن يأبه به، وعلام ارتداؤه لجديد الثياب؟ أمن أجل أبيه أم من أجل أبي نعيم ؟! بالتأكيد ليس لأجل نفسه..هــو رجـل المرايـا المهشـمة الـتي لا تسـتطيع أن تعكـس إلا صـوراً ممزقــة بــإخراج غـارق بالقبـح، ورجـل الظلام الـذي لا يـرى عنـد انعكاس الضوء ما يثير شهيته للحياة.

لم يعترض صطوف مرة واحدة ، ولا هو أظهـر امتعاضـاً ، فمـا زال يلاحقـه ذلـك الشـعور البـائس بـأنه لا يستحق الفضـاء الـذي يشـغله، ولا الـهواء الـذي يـدخل رئتيـه، وحـتى تلـك اللحظـة كـان يعمـل جاهـداً لأن يحبـه أبـوه وأخـواه ، مسـتعد للعمـل كثـور فـي سـاقية لكـي يشـعر بـأنه يقـدم شيئاً مـا

يجعلـه جديراً بتقديرهم ومحبتهم ، أو علـى الأقل مستحقاً لركنه المنزوي وطعامه في المنزل، رغـم ذلك فقد تنـامت فـي قلبـه غصـة كلمـا خـرج أخـواه إلى جامعتيهما، وجر قدميه جراً إلى الورشة، كان يشـعر بأشـلاء أحلامـه الـتي اقتلعت جذورها مـن أمانيه رغمـاً عنـه تنـزف داخـل قلبـه ، فمـن أحـوج منـه إلى شهادة جامعيـة كـأخيه نـاجي، مقلـدة بتلـك السماعات الفضية التي تتدلى على صدره، لتعلـي من قدره فـي عيـون النـاس، وتمنحـه القوة ليرفـع رأسـه فـي وجـه أحـدهم، عنـدما يـأتي إليـه متألمـاً، ومحتاجـاً لأن ينظـر إليـه دون ازدراء؟مـن أحـوج منــه إلــى شــهادة جامعيــة تمنحــه جنــاحين يحلـق فيهمـا بعيـداً عـن بـؤر الظلام الـتي تكدسـت فـوق روحـه.

في ذلـك الـوقت بـدأ أبـو نعيـم يتسـاءل عـن علاقتـه بصطوف، فموت وحيده منعه من ملاحظـة تـوقيت ولادة هـذا الصـغير بعيـن المبصـر، إلا أن الشـك داهمــه ذات يــوم بعــد أن انتبــه إلــى ليــن مفاصـل

صطوف التي تسمح له بليّ قدميه بشكل مائل عندما يقف، كانت تلك صفة أخذها أبو نعيم من أمه، وأخذتها ثلاث من بناته عنه، فكيف لصطوف أن يملكها إن لم يكن ابنه؟؟.أرقته الفكرة عدة ليال، قضى صباحاتها يراقب الشاب خطوة بخطوة حتى كاد أبوه يشعر بذلك، إلا أنه بعدها علم أنه لن يستطيع أن يعرف ذلك أبداً، وأن مجرد صفة واحدة لا يمكن أن تكون دليلاً على أبوته. وخصوصاً أنها كانت ليلة عابرة مرت دون أثر يذكر لديه هو على الأقل، تلك الليلة التي حولت حياة امرأة لم تعد فوق الأرض إلى جحيم لم تستطع تحمله طويلاً، ولم تعش لتخبر أحداً عن ذلك.

<u>بحثاً عن ازميرالدا:</u>

سنوات مرت لا تحمل جديداً لصطوف ، يستيقظ صباحاً إلى العمل ، ويعود ظهراً ليرتاح

قرابة ساعة في المنزل يزدرد فيها طعام الغداء، ويرمي بعظامه فوق فراشه ، ثم يعود مرة أخرى إلى الورشة تاركاً الفرصة لأبيه للعودة إلى المنزل لكي يجلس مع ولديه وزوجته على مائدة الغداء، وما أن يصل ليلاً إلى ركنه حتى يفتح إحدى الروايات التي كان يقترضها من أخيه سالم ، ويغيب بين غلافيها عن الوجود ، ليدخل إلى عوالم أخرى ، عوالم لا يختنق فيها بل يتنفس ملء رئتيه ، عوالم يصبح فيها رجلا وسيماً محبوباً، ويعيش قصة البطل بحذافيرها، ولا تنتهي سطورها حتى يشعر بالأسى إثر هبوطه الاضطراري إلى أرض الواقع، قادماً من فراديس لا تعرف للقبح معنى ولا شكلاً، كان يختبئ في ركنه ويسدل عليه الستارة القاتمة جيداً، ورغم أن الغرفة تبقى عامرة بأبيه وزوجته، وثرثرتهما، وصوت التلفاز المرتفع، إلا أنه كان ينفصل عن الأرض، ويغرق في تفاصيل باذخة الجمال والحب لكائنات من ورق ووهم ووجع.

الشيء الوحيد الذي كان يتغير هو القلق الذي يتزايد من المرأة، فتغدو تلك الحركات المتأرجحة التي تراوح في المكان نفسه، وهو يخفي نصف وجهه ليواري خده المشوه ويخفض عينيه معانقاً الأرض بنظراته عندما تمر به امرأة- صغيرة السن كانت أم كبيرته- أكثر قلقاً وعصبية، وأكثر جذباً لأنظار الآخرين الفضولية.

في ذلك الوقت وقعت رواية "أحدب نوتردام" في يده، استغرق في تفاصيلها حداً تملكته خلاله شخصية الأحدب، خال أنها قصته غير أن ذلك التشوه كان في وجهه دون ظهره، نبتت في صدره "ازميرالدا"، وعششت في حناياه في اللحظة نفسها التي قدمت فيها الماء لهذا الكائن البشع، كان بإمكانه أن يتقمص الأحدب ويشعر بمشاعره، وفي وسعه أيضاً أن يقدم روحه لازميرالدا التي استطاعت أن تقدم الماء لكائن يعاني من التشقق عطشاً، قلباً وجسداً، ثمة أمنية واحدة أيقظها ذلك الأحدب وحبيبته..أمنية بأن

يجد ازميرالدا تقدم له كأساً من الماء دون أن تنظر إليه باستنكار، ويقدم لها حياته دون ندم.

بعدها صار صطوف يتردد على المسجد، علّ بركة من السماء تحل على حياته فتمنحه كوباً من حنان بيد من حرير، ولبث مدة على هذا الحال، وعندما مر زمن طويل لم تعبر جراحه فيه فتاة من ياسمين لتمنحه كوباً من الماء، بدأ يتغيب عن المسجد شيئاً فشيئاً، حتى تركه ولم يعد حتى يمر من جواره.

تخرج ناجي من كلية الطب بتقدير ممتاز، محققاً أولى أمانيه، وممسكاً بمفتاح أحلامه التي خطط دون هوادة لنيلها، وصارح أباه برغبته في الزواج من إحدى زميلاته في الجامعة، متقدماً بذلك خطوة نحو حلمه الثاني، زوجة من عائلة راقية، تعلمه كيف يصبح مثلها، يتحدث مثلها، ويأكل بأناقة كما تأكل، ويرتدي ملابسه بالطريقة

الراقية نفسها التي ترتدي بها ملابسها، لم تكن تلك الخطوة لخطبة الفتاة التي انتقاها خطوة للزواج فقط، بل هي بداية للانسلاخ من حارة لا يريد أن يدخلها بعد ذلك، ومجتمع يخجل من انتمائه إليه، ويجد نفسه أرفع من مستواه وأعلى بعد أن أصبح طبيباً.

كان هذا الحدث بمثابة انفجار في العائلة ، فزوجة الأب أرادت أن يعمل ناجي، وقد تخرج، ليساعد والده بمصروف البيت، فتعيش هي في بحبوحة ، لم يكن يعنيها أمر زواجه ، وربما نسيت وهي تضع خططها الاقتصادية أن للأولاد أحلامهم، وأن صطوف حالة استثنائية.

لم يعترض الأب على رغبة ابنه حتى وهو يخبره بأنه يريد بنتاً بعينها، ففي النهاية كان الأب فخوراً بابنه الطبيب ، وكان يشعر بأحقية هذا الطبيب بأن يقرر لحياته ما يشاء ، فهو ليس طبيباً فقط..بل من أوائل دفعته أيضا، مما يؤهله لاتخاذ قراراته بثقة، وهكذا ابتسم الأب بهدوء

قائلاً الجملة المتعارف عليها في أحوال كهذه : "على بركة الله " ، بينما كانت زوجته سعاد تلملم أشلاء خيبتها وغيظها دون صوت، وهي تدرك أن رفضها لن يغير شيئاً، محاولة أن تتقمص دور أم فاجأها ولدها بخبر مفرح..ولكنها لم تفلح تماماً في أداء الدور.

ولم يطل الأمر بناجي كثيرا حتى بدأ بترتيب منزل له، استأجره في شارع أكثر رقياً من شارعهم الشعبي، بناء على طلب العروس، اقتطع منه غرفة وهيأها لتصبح عيادة ، كانت رواتب صطوف تذهب بكاملها إلى ناجي الذي لم يكلف نفسه عناء شكر أخيه ، إلا أن صطوف كان سعيداً وهو يلملم أجزاء حلم أخيه ويرتبها بجانب بعضها ، كان يشعر أنه بطريقة أو بأخرى يسعد أمه، أمه التي كان يحبها بالقدر نفسه الذي كانت تكرهه به، ويسعى لإرضائها بالقدر نفسه الذي تشعر تجاهه بغضب مدمر يسحق أضلاعه، فيعيش صراعاً يمزق قلبه بين حبه وكرهها،

وبين غضبه منها ورغبته في إرضائها، كان يعلم في قرار نفسه أنها ولا بد تشعر بفرحة ابنها البكر بالتخرج والعيادة والزواج، ويرغب أن يكون جزءاً من هذا الفرح، حتى ولو أنه جزء غير مرئي منه، وربما تمنى سراً أن يبقى غير مرئي في الصورة الكاملة ..إلا ببصمات باذخة يتركها خلفه دون أن تشي بملامحه .

تحدد تاريخ العرس، وطبعت الكروت ووزعت على المعازيم، وحجزت الصالة التي ستحظى بالاحتفال بالعروسين، وذهب صطوف خلسة إلى محل بيع ألبسة رجالية ، واقتنى لنفسه قميصاً وبنطالاً بما ادخره من قروش وصلت إلى يده بين الحين والآخر من الزبائن، بعد رؤية التفاصيل المدهشة التي كانت أكثر من مرضية بالنسبة لهم، كان يحلم بعرس أخيه، ويريد أن يكون شاهداً على الفرح هو الذي لم يشهده طيلة حياته، ورغم القلق الذي استبد بروحه إلا أنه صار يبث الاطمئنان في نفسه مذكراً إياها أن

حضـوره سـيكون فـي قاعـة الحفـل المخصـص للرجـال، وأنــه بطبيعــة الحــال لــن يضـطر إلــى مواجهة أي امرأة عند إيصال أخيه إلى قاعة حفل النساء، فهو ليس العريس بأي حـال، ولـن يتحتم عليـه اقتحـام تلـك القاعـة، وإلا لسـقط ميتـاً عنـد بوابتها .

شعر صطوف بسعادة غامرة وهو يجرب ثيـابه الجديـدة ، وبـدا لـه أن شكله القبيـح سوف يصبح أكثر وسامة مما تعود عليـه ، أو ربمـا أقل قبحـاً ممـا عرفـه سـابقاً، وبعد أن خلعهـا وطواهـا جيداً بتلك الدقة التي عرف بها، أخفاها لذلك اليوم محاولاً أن يتقمص دور أخ يشارك في فرحة أخيـه ، وفي نيته مفاجأة إخوته بأناقة فرحه في مناسبة كهـذه، وصـار يحلـم بينــه وبيـن نفسـه بابتسـامة مشـجعة مـن أخيـه تشـي بالرضـا، أو عنـاق حـار، بعد أن قدم كل ما في وسعه لـه، قدم لـه أكثر ممـا فعل والده، بل ربما تقمص دور والده بما قدمه .

وفي الورشة كان العمل يجري على قدم وساق ، يشرف على تفاصيله صطوف محاولاً ألا يكون في غرفة النوم والجلوس أي هفوة تخدش فرح أخيه .. وعندما انتهى من صنعها حملها إليه بنفسه وركبها في البيت ، ورتبها له بأناقة شديدة محاولاً أن يجعل الأثاث يبدو بهيئة منزل جديد لعروسين يكللهما الحب والنجاح، بدأ يبتكر تفاصيل صغيرة جديرة برجل ناجح كأخيه، تفاصيل باذخة يجيد صنعها تماماً، لتضفي لمسة حب واهتمام واضحة منه, فانوس صغير هنا، ومزهرية فخارية هناك، بعض الإضاءة المخفية في زوايا البيت المختلفة، وأشياء صغيرة أخرى زادت الأثاث أناقة وجمالاً.

إلا انه فوجئ يوم العرس بأن الجميع تجهزوا متناسين أمره ، وما هي إلا لحظات حتى أطلق أبوه على استفهاماته الخرساء رصاصة الرحمة، عندما أخبره بضرورة بقائه في الورشة، إذ أن

المعلم أبا نعيم ذاهب إلى العرس ، ولا ينبغي أن تغلق الورشة في وجه الزبائن أثناء غيابه.

ولم تكن فكرة تغييب صطوف عن العرس فكرة الأب، بل على العكس كان الأب خجلاً وهو يطلب من صطوف البقاء في الورشة، لكن العريس يريد أن تبدو عائلته بأفضل صورة ممكنة، فالعروس من عائلة غنية وراقية بإمكانها أن تفاخر بأبيها وأخوتها وأخوالها وعمومها، أما هو فقد كان يشعر بالحرج من عائلته الفقيرة، ولم يكن ينقصه ظهور صطوف ليزيد الأمر سوءاً، خاصة وأن العروس ألمحت له بأن وجود أخيه بحركاته الغريبة، ورأسه المنكس في الأرض، وعينيه اللتين تهربان من مواجهة العيون الأخرى بشكل ملفت للنظر، لن يكون ضرورياً في مثل ذلك اليوم، ولم يقوَ على رفض الطلب المبطن لعروسه، بل ربما كان في أعماقه يريد ذلك وإن لم يصرح، فقد أراد أن يبدو وعائلته بأفضل ما يمكن أمام عائلة زوجته الراقية، وهو وإن كان

طبيباً إلا أنه يبقى ابن عامل في ورشة نجارة، لذلك طلب من أبيه منع أخيه من الحضور بطريقة ما، وخجل ديبو من مواجهة صطوف برفض ناجي لوجوده، خاصة وهو يعلم أن ما تكبده صطوف من مشقة ومال كان يفوق ما تكبده ناجي نفسه، فتدبر أمر تلك الحيلة التي لم تخفَ على الأخير.

لم تُدمِ كلمات ديبو قلب ابنه صطوف فحسب بل اقتلعته من مكانه ، فانبرى إلى ركنه يعانق رفيقه ذا الفراء ويبكي بكاء طفل صغير، لم يكن هناك في المنزل غيره فرفع صوت نحيبه حتى تجرح صوته ، بكى كما لم يفعل من قبل، بللته الدموع وجففته الأنفاس الحرى لقلب مشتعل، وعوضاً عن الذهاب إلى الورشة بقي مستلقياً في سريره إلى جوار قطه، واشتكى لرفيقه ذي الفراء أوجاع روحه، قال له: أخي لا يريدني حاضراً في فرحه، إلا أنه طلب مني الحضور في كل تحضيرات ذلك الفرح. فأخبره

الأخير بأن كائناً مشوها مثله كان عليه أن يتوقع ألا أحد سوف يستدعي شوؤم قبحه إلى مناسبة تضج بالفرح، وأضاف: لو كنت مكانه لما أردت نفسك أيها الأحمق، رد صطوف بينه وبين نفسه: ولمَ جعلت أخي خادماً أستغني عنه بانتهاء خدماته.

كان صطوف يعلم في قرار نفسه بأن رفيقه على حق، فقد اعتاد أن يوجه اللوم في كل مرة إلى وجه لا يطيق صاحبه رؤيته في المرآة، كيف يلوم الآخرين إذن على تجنبهم رؤيته؟ إلا أنه ظل يمني نفسه بأن القصة وما فيها هي الورشة التي يجب أن تظل أبوابها مفتوحة بانتظار الزبائن، فهذا باب رزق يجب ألا يغلق مهما كان السبب.

إلا أنه فوجئ في اليوم التالي أن أحدا لم يسأله عن سبب غيابه عن الورشة، وأنها كانت مغلقة أصلاً، وتأكد له أن إحساسه لم يخبْ، وأن الأمر لم يكن سوى حيلة لاستبعاد قبحه عن جمال ذلك اليوم .

في ذلك اليوم ذهب صطوف إلى محل الألبسة الرجالية وأعاد القميص والبنطال ، واسترجع نقوده، وأكمل سيره اليائس باتجاه الورشة متجاهلاً جرحاً عميقاً جديداً ينزف في شرايينه، فتطفو مشاعر الخيبة فوق أنهار الدم الهارب، ويغص بطعمها رجل يكره ملامحه كل يوم أكثر.

رغم كل محاولاته لإخفاء أوجاعه إلا أنه أخفق في ذلك اليوم ، فقد آلمه أن يستخدمه أخوه ناجي كعامل مستغلاً حبه الأخوي ، ثم يدير ظهره له مبعداً إياه عن حفلة عرسه، وبطريقة غير لائقة ، يومها بدأ صطوف يتعلم كيف يكره، وكيف يقتلع كائناً من قلبه، مرة أخرى برزت في وجهه عيون أمه وملامحها، وتلك النظرة التي كانت تخبره بألا يقترب منها، ملامحها التي تشبه ملامح ناجي كأنما هو تقمصها في ذلك اليوم، وانبثقت أسئلة حارقة لا تكترث بما تخلفه وراءها من دمار في قلبه، سواء تجاهلها أو أجاب عنها

بأجوبة موارية تلتف حول الحقيقة ولا تصيبها، أحرقته تلك الأسئلة التي تبرز له من العدم كلما مر في منعطف قاس للحياة، حيث تصبح الأسئلة أحيانا أكثر لؤماً وقسوة من إجاباتها..عندما تجتاح سَكِيْنَة مزيفة يدعيها رجل يحترق:

- هل كان عليها أن تموت حتى يحظى باحتضانها؟

- وهل على أخيه أن يموت أيضاً ليتمكن من الاقتراب منه؟

-وهل هو شخصياً ميت أم حي حتى يرفضه الأحياء ويقبله الأموات؟

بدأ ناجي حياته العملية في عيادته بعد انتهاء إجازة الزواج التي حددها لنفسه، كان يحمل حلماً قديماً، وأمنية عليها أن تتحقق مهما كان الثمن، ويحمل ميراثاً من الخيبة عليه أن يدفع شبحها بعيداً عنه، تطاولت النشوة في قلبه إذ أصبح

طبيباً، وتـزوج مـن طبيبـة مـن عائلـة مرموقـة وميسورة، وخرج من الحارات الضيقة إلى شـارع أكثر رقياً، كـان الفرح يتـبرعم فـي صدره، إلا أن عقدة أخرى لم تلبث أن طفت علـى السطح لتبـدو واضــحة مــن خلال تصــرفاته، فقـد كـان يشــعر بالامتنــان لزوجتــه لقبولـهــا إيــاه، ولجـره نحـو الأعلـى، لـم يكـن هـو نفسـه يشـعر بـذلك الامتنـان بشــكل واضــح، ولا يصــرح عنـــه، إلا أن ولاءه الظــاهر لهــا ولعائلتهــا، وخضـوعه لأي شـــيء يقـترحونه عليـه، وانسـلاخه شـبه الكامـل عـن عائلته كمن يبرأ نفسه من عار قديم، ومحـاولاته المســتميتة لحفــظ قــواميس الكلمــات الراقيــة واستبدال مفرداته المستقاة مـن الحـارات الشـعبية الفقيــرة، وطريقــة أكلـــه، ولبســـه، وحركـــاته وسكناته، كل ذلك كـان يشي تماماً بمدى امتنـانه لتلك التي رضيت بانتشاله من هنـاك، لـتزرعه فـي مكـان يعشـش فـي أحلام أمـه قبـل أن ينتقـل إليـه بوراثة مدروسة ومبيتة من قبلها.

كان ناجي يحمّل أباه جريرة موت أمه، وجريرة الفقر الذي عاشوا فيه، وفي أعماقه كان قد فقد خيوط انتمائه الحقيقية إلى أسرته منذ ماتت أمه، وبقي متورطاً بأمر واحد فقط، الانتصار لأحلام أمه التي ماتت في ريعان الصبا، وكأنه تقمص أحلامها، ورؤاها، ومشاعرها، وكل ما يخصها، لذلك استمات في دراسته ليخرج من بيت أجير نجار، إلى عيادة هو الطبيب فيها.

وبتحقيقه لذلك الحلم سقط عبء كبير عن عاتقه، كأنما هو دفع دينا قديما لأمه عليه، أو كأنه انتقم لموتها المبكر، وللأمراض التي توالت على جسدها حتى أنهكته، هو لا يعرف ما الذي يعنيه له تماماً وصوله إلى هذا النجاح، إلا أنه يعلم تماماً أن له علاقة وثيقة بأمه.

ولعله دون أن يدري اختار زوجة تشبه أمه، ليس في شكلها فقط، إنما بأحلامها الكبيرة، ورغبتها في الانتماء إلى المجتمعات الراقية، وترفعها عن الحارات الشعبية والحياة المتواضعة.

لكن الفرق كان أن أمه اكتفت بأن تزرع أحلامها في رأسه، بينما كانت زوجته بطريقتها، تحول الحلم إلى حقيقة ملموسة.

ذات الخدود الوردية :

تجاوز صطوف التاسعة عشرة، وهو يعيش على هامش العمر حياة لا طعم لها ولا لون، يتعمد ألا يشغل حيزاً مساوياً لحجمه أو وزنه ، حيزاً قد يلامس فضاءات من حوله دون قصد، ولو من بعيد ، فيلمح تلك النظرة التي تطرده من ذاكرة الحياة إلى زوايا مهملة ، لم يطلب شيئاً، ولم يتذمر، ولم يحلم بشيء ولو مرة واحدة من أيام عمره الموزعة على منعطفات الشقاء، كان قد أصبح شاباً لكنه ضئيل الجسم رقيق العود، يبدو قلقه واضحا على حركاته

وتصرفاته، وما عدا كفيه لم يكن في جسده قوة تذكر.

كان قد أدرك أن الهوامش أمكنة أكثر أمناً، فللهوامش ظلال تستطيع إخفاء ضعفه عندما تدور به الدنيا وتميد به الأرض، أما الوقوف في وجه الحياة..فهو أكثر الأمور خطراً لمن يحمل ملامح كملامحه ينبغي إخفائها ما استطاع، فهناك لا ظلال يختفي خلفها إن واجهته انعكاسات غادرة لأضواء مسلطة على المرايا المهشمة، والنساء اللواتي يحملن في عيونهن ألف جرح وألف تهمة.

تعود على النهوض باكراً ، وازدراد ما يقيم به أوده وحده، بسرعة ودون شهية تذكر، ثم المشي وراء أبيه حتى الورشة دون صوت كأنما هو ظله، يقوم بعمله بدقة مدهشة، ومثابرة لا مثيل لها، ودون صوت، ثم يعود وقت الغداء لساعة واحدة، يبتلع غداءه بأسرع ما يمكنه، ثم يتمدد قليلاً على فراش الوحدة البارد، معانقاً

رفيقـه ذا الفـراء الـدافئ، يـداعب أحلامـاً تشـعره بالـذنب ، فمثلــه- كمــا يعتقـد- لا حــق لــه حــتى بالأحلام، وإلا فمن أين سوف تتحقق تلك الأحلام عنـدما يتجاهـل نـداء عقلــه، ويقتحـم سـماواتها الملونة بألف لون ولون؟ ومـن لـه بـالعزاء عنـدما يتبعثر العمر علـى مشـارف الخيبـة، وقد سقطت الأحلام فــي حفـرة عميقـة، وأهيـل عليهـا تـراب الوجع؟؟..

وككل يوم يستيقظ من قيلولـة لا تكمـل سـاعة، ويمشـي بخطى كئيبـة عـائداً إلـى الورشـة، ليكمـل رسم يـومه بآليـة رتيبـة جداً حد الغثيـان .. ورغـم أنــه لـم يغضـب مـرة واحـدة، وهـو يـرى إخـوته وأقرانـه في طريقهـم إلـى المـدارس والجامعـات، بينمــا لا يعـرف هــو إلا طريــق الورشــة, إلا أن أكواماً من الحزن تكدست فوق حواف قلب مثقـل بالوجع والخيبة، قلب تشظى حتى بات مشتعلاً بالأسـى ، مثخنـاً بـالجراح، تلـك الأكـوام شـارفت علــى حنــي ظهــره، بعــد أن بــدت عليــه علائم

شـيخوخة مبكـرة رسـمت يـد الوجـع تجاعيـد انكساراتها المتلاحقة بإتقان بائس فوق تفاصيله.

إلا أن الأحلام باغتته دفعة واحدة، واحتلت لياليه وصباحاته بالرغم من كل الحذر الذي أبداه، خوفاً من خيبة لم تكن تنقصه في هذا العمر الممعن في انكساراته، باغتته رغم احتفائه بالهوامش..ورغم تجنبه للحياة بكل ألوانها.

كان ذلك ذات ثلاثاء رائع من أيام الثلاثاء الباردة، الذي لا يبدي اختلافاً عن أي يوم آخر، مجرد ورقة أخرى من أوراق التقويم، رغم أنه حمل في طيات ساعاته زهوراً برية، وفراشات ملونة، وعبيراً لا يقاوم، وتغريداً لعصافير الجنة في نشيد للفرح.

وحده يوم الثلاثاء صار يحمل له متعة حلم واحد داعب لياليه وقيلولته بلون آخر، وأزال طعم الملح من أيامه ، منذ ذلك الثلاثاء الذي صادفها فيه ضيفة في منزله ، بعد أن انتقلت عائلتها إلى

المدينـة نفسـها .. ذلـك اليـوم الـذي أصـبح يحمـل بيـن أهـدابه زيـارة أخـت زوجـة أبيـه، مصـطحبة أولادهـا وابنتهـا البكـر مهـا ذات السـتة عشـرة ربيعـاً، والـوجه الملائكـي، والخـدود الورديـة، والعينيـن الناعسـتين، كـأن علـى أهـدابهما تغفـو أحلام البشـر، لـم يتمكـن مـرة واحـدة مـن أن يرفـع عينيـه لتلتقـي بعينيهـا ، لكنـه كـان يختلـس إليهـا النظر فيما هي مشغولة بملاحقة إخوتهـا الصـغار، أو تحضير الشـاي والقهوة لأمهـا وخالتهـا، وكـان يسترق السمع إلـى موسيقى صـوتها فيتعلـم كيـف تغرد العصافير بعيداً عن الأغصان.

أصبح يوم الثلاثاء بالنسبة له حدثاً استثنائياً يـزرع الأقمـار فـي ليـالي عمـره الجـدباء، ويـورق فرحاً في نـهاراته، حتى أوشك أن يؤرخ عمره كله بـه، ويقسمها إلى ما قبل الثلاثاء ومـا بعده، كـانت زيارة مـها تجعل لعمره الذي يمضي دون جديد ولا قـديم معنـى آخـر، فمـا أجمـل أن يكـون فـي عمـر الإنسان شيء جميل ينتظر هطوله كل ثلاثاء علـى

صحراء حياته، وما أحلى انهمار هذا اليوم غيثاً رقيقاً على قلب تشقق لشدة الجفاف وقسوته، ليغسل أكوام الحزن برقة فرح لم يُؤذن له بالدخول، بل اختلس لنفسه مكاناً دون إذن، تسلل كشعاع هارب من ثقب صغير في جدار قاتم يحجب النور.

صار يأوي إلى فراش الأحلام باكراً يوم الاثنين، ضاماً رفيقه ذا الفراء إلى صدره، مخفياً تحت قسماته الباردة التي لا تشي بشيءٍ ألف نار وألف بركان، دون أن يتمكن من ابتلاع طعام العشاء كما كل يوم لشدة لهفته .. وما أن يرمي بهيكله العظمي على سريره حتى تراوده الأحلام بلون وردي لم يسبق له أن رآه طيلة حياته .. صارت تلك الليلة تعده برؤى أخرى للحياة ، تبدأ بحلم يتكرر ويلح عليه .. فيراها مرتدية ثوب الزفاف الأبيض ، وتحمل في كفيها حزمة من الياسمين ترفعها إلى وجهها لتستنشق ذلك العبير الناعم الذي يستطيع وهو نائم أن يغرف من شذاه

حتى يتخم الروح، بينما يقترب هو منهـا، فتمطره حنانــاً وهــي تمــد يــدها لتمســك بيــده، وعيناهــا الناعستان تملآن الكون فرحاً وحبـاً بنظـرة واحـدة من حدقتين سوداوين تفيضان رقة .. لكنه فـي كـل مـرة ألــحّ عليــه هـذا الحلـم لـم يسـتطع أن يتـبين ملامحـه هو، كـانت قسماتها واضحـة فـي أحلامـه وضوح الشمس حين تشرق في يوم صاف تعانق فيه تغريد العصافير وأغصان الشجر، بينما وجهه وجـه رجـل يختـبئ خلـف نافـذة زجاجيـة فـي يـوم ماطر بغزارة ، كأنه لا يريد أن يرى لنفسه وجهـاً، وكمـا يتملـص مـن المـرور أمـام المـرآة فضلاً عن الوقـوف أمامهـا، متجنبـاً رؤيــة تفاصـيل وجهــه القبيـح، حتـى أنــه حيـن يقـوم بنقـل غرفـة نـوم مـن الورشة كان يتعمـد إمسـاك المـرآة مـن الخلـف لئلا يصافح نفسه ، كذلك كان في لاوعيه يتجنب رؤيـة التفاصيل البشعة لرجل من طين وخيـبة.

لم تكن تشغله عدم رؤيته لملامحه، بقدر مـا كـانت تشغله تلك الملامح الناعمة لمخلوقة من ياسمين،

ابتسـامتها ، نظرتهـا الـدافئة ، خـداها الورديـان اللذان تنساب عليهما بهجـة الحيـاة وخفر الصبا، وعيناهـا الواسـعتان الـتي تختـبئ فيهمـا أحلام عشـاق الأزمنـة الغـابرة، شفتاها الممتلئتـان دون اكتنـاز تخبئان كرز مواسم صيف هارب، وأنفها الصغير الذي عنـدما يتنفس في جو الغرفـة يحيل هواءها إلى نسائم رقيقـة كأجنحـة فراشـات ملونـة تحمـل رائحـة الياسـمين، أصـابع يـديها الرقيقـة البيضـاء ، أسـنانها اللامعـة ، شـعرها النـاعم المختبئ خلف شـال حريـري رقيق كـأنه يقول إن الشيء بالشيء يذكر، وصوت رقيق كخيط حريـر حاكته يرقة عاشقة أودعت فيـه شوقها واحـتراق قلبهـا ، أصـبحت مهـا تعيـش فـي سـماء أحلام صطوف أكثر بكثير مما يراهـا حقيقـة في رصيـف العمر العاثر.

يتذكر جيدا ذات ثلاثـاء خـائب ، أسرع فيـه خطـواته المتعـثرة نحـو المنـزل ، حيـث تكـون الشـمس قد كـومت دفأهـا بيـن غرفـتين ، إحداهما

تشغلها مها بكل صباها وجمالها وبراءتها ونقاء الياسمين المنجدل بروحها وعينين لا تتقنان التنقيب في تفاصيل وجه لا ملامح له ، والأخرى تحتوي بين جدرانها روحاً محترقة لرجل يرفض رؤية ملامحه ولو في الحلم .

ذاك الثلاثاء الحزين شد خطاه ميمماً شطر منزله وقلبه يسابقه خطى ونبضاً إليه، وما أن وصل إلى باب البيت حتى دق الجرس منتظراً أن يسمع أنغام خطى تراقص نبضات قلبه على إيقاع حب عذري يشتعل في قلبه، لكنه بعد عدة دقات يئس من سماع ذلك الإيقاع، فأدار المفتاح وفتح الباب ، باغته خواء المنزل بشعور مفجع بالضيق ،وصار يجري في أركان البيت كالمجنون، وكأنه يبحث عنها في تلك الزوايا الفارغة، ولما تيقن من خواء فضاءات بيته من أنفاسها العطرة ، انكب على فراش مدبب بأشواك مزقت جلده، وبكى بصمت حارق، وكعادته عانق رفيقه ذا الفراء الدافئ ذا العين الواحدة، ونام

على وسادة غارقة بدموع لا يبدو منها إلا آثار ملحها.

كان يشعر بلعنة الحظ العاثر وقد حلت في ذلك الأسبوع كله، حتى فقد رغبته في أي شيء، صار يشدُّ نفسه نحو الورشة شدّاً ، وعاف الطعام ، وانغلقت روحه على لعنة الغياب تنتحب أوجاعها دون صوت، تلك الروح التي ما عرفت إلا لعنة الحضور، وعندما آن الأوان لمسح طلاسم تلك اللعنة من على جدران قلبه ..اكتشف لعنة الغياب، ولم يستطع أن يحدد أي اللعنتين أوجع عندما تنحفر على جدران القلب.

كان عليه إذن أن ينتظر ثلاثاء آخر، عليه أن يحصي سبعة أخرى من الأيام بلياليها وساعاتها ودقائقها وثوانيها ، بفجرها وظهرها وعصرها ، وساعات الغداء الخاوية من أي شيء إلا الانتظار.

كان أسبوعاً قاسياً ذلك الذي حرم فيه من اختلاس النظر إلى وجه يعشق تفاصيله، ويمنحه الدفء والقوة ليكمل مشوار الحياة المتعرج بمنعطفات لا تعد، وانكسارات لا تحصى.

لم يكد الثلاثاء المنتظر يقترب حتى غادره النوم، وبدأت التساؤلات تنزف من شرايين القلق، وتبرز أمام عينيه بعد مخاض موجع للروح، تساؤلات كأنها سياط تجلد صبره وقلبه في آن واحد، يلقيها في أذن رفيقه ذي الفراء عله يبرد حر الانتظار بإجابة شافية تخفف احتقان القلق في أنفاسه... فيضنُّ الأخير عليه بها.

- ماذا إذا لم تأتِ هذا الثلاثاء أيضا؟

- ماذا لو أنها قد خطبت، فمثلها لا بد وأن باب بيتهم يفتح كل يوم لاستقبال الخاطبين، أو ربما حصل مكروه لها ؟

- وأي شيء بوسعه أن يحمل إليها كل الأحاسيس الجياشة الدافئة لوجه قبيح وقلب عاشق؟

صبيحة الثلاثاء صارت عصبيته واضحة, وبان القلق عليه بشكل ظاهر لا تخطئه عين ناظر، فهو لا يكاد يستطيع أن يفعل شيئاً ، صارت مها تحيا وتتنفس داخل أعصابه فتراقص خوفه على إيقاع دقات القلب القلقة، أحس أن عليه أن يفعل شيئاً تجاه ذلك ، ولكن ما هو هذا الشيء ؟

لو أن أحد أفراد أسرة صطوف، كان يعتبره فرداً منها، ويقترب منه بما فيه الكفاية، لانتبه إلى حالة العشق التي يحياها ، من فرحه يوم الثلاثاء، ومن حزنه صبيحة الأربعاء، ومن لهفته يوم الاثنين من كل أسبوع ، من دقة الباب كل ثلاثاء على أمل أن تفتحه هي، ومن عجلته إلى استراحة الغداء يومها، ومن حمامه الصباحي ومحاولته لهندمة نفسه، وانسكاب العطر على

تفاصـيل جسـد مسـتعر فـي ذلـك اليـوم .. إلا أن أحدهم لم يـُعـرْ هُ انتباهاً، ولـذلك بقـي سره طـي الكتمان، و لم يعرف به أحد، أي أحــد .

مرت الساعات بطيئة ذلك الصباح أكثر مما فعلت طيلة الأسبوع ، كان وقـع الـترقب والانتظـار في قلبه ثقيلاً، حتى أنـه بـدأ يحترق ويشم رائحـة الحـرائق المستعرة في قلبـه، ويسمع دقـاته جليـة كمـا لـو أنهـا قـرع طبـول حـرب فـي قبيلـة أفريقيـة تعلـن اسـتعدادها بفخـر لاحتمـالات مفتوحـة علـى النصر فقط، فيستسيغ عذاباً لذيذاً تسببه عينا مهـا ، وانتظــار مهـــا وخـــدودها الورديــة الطافحــة بالخـفر.

صــارت الســاعة المصـلوبة علــى جــدار الورشـة تشـاكس أعصـابه ، تعذبه كمـا لـم يسبق لـها من قبل ذلك اليوم، وكأن عقاربها تواطـأت مـع حزنــه وحظـه العـاثر والـترقب الـذي يعشـش فـي رئتيه منذ خمسة عشر يوماً ، فتوقفت لكي تشعل في أعصابه جميع الحرائق والبراكين التي يعرفها

الشوق في لحظة واحدة.. وما أن اقترب موعد الغداء حتى أصبح اضطرابه واضحاً، وهو يسقط الأشياء من يديه، ويدور حول نفسه، ويعجز عن دق مسمار في لوح خشب ، بدا أن حاله لم يعد يخفى على أحد , حتى أن أبا نعيم سأله عما به ، فتذرع بصداع حاد في رأسه لم يكن حقيقة إلا تصدعاً أحدُّ وأقسى أصاب قلبه، وكل جارحة من جوارحه، ذلك الجواب المراوغ عن صداع لم يحسه قط، كان سبباً في إعطائه رفاهية ساعة كاملة إضافية يتنفس فيها هواء الفضاء نفسه الذي تشغله مها، لم يصدق أذنيه عندما أخبره أبو نعيم أن بإمكانه أن يذهب إلى البيت من الآن وينام ، لوهلة لم يستوعب عقله تلك الهدية المفاجئة ، هو الذي ما تعود هدايا القدر، ولا تعويضه عن الحرمان .. نظر إلى أبي نعيم نظرة تحمل عرفاناً وشكراً لم يكن في وسع أبي نعيم أن يفك رموزهما جيداً ، ورمى كل شيء من يديه ، وطار إلى المنزل على جناحي فراشة ملونة بألف لون .. هذه المرة عندما دق الباب سمع

خطواتها ، وعلم تماماً أن التناغم الغريب بين خطوات تقترب من الباب ودقات قلبه لا يمكن أن يكون إلا بوقع خطاها، ولم تكذب مشاعره، فقد فتحت له الباب ذات الخدود الوردية، وسلمت عليه، وسألته عن حاله، ودَّ لو قال لها إن حاله تغير بسببها، وإنها تستوطن حلمه وقلبه، ودَّ لو أخبرها عن غيابها يوم الثلاثاء الماضي، وماذا فعل بقلبه، ودَّ لو قال لها إنه قد يحملها فوق أهدابه لئلا تطأ الأرض إن هي أحبته، أو نظرت في عينيه نظرة واحدة تحمل الدفء، لكنه بدلاً عن كل ذلك ردَّ وقد تملكه الارتباك والخجل بكلمات سريعة، وعينين مطرقتين في الأرض، بينما كانت كفه تحاول إخفاء ذلك الخد بقلق واضح وعصبية شديدة، تبثها حركة بندولية متأرجحة بين الأمام والخلف في نصفه الأعلى، أراد أن يرفع ناظريه ليصافح عن قرب وجهها، ويقابل عينيها وجهاً لوجه ، إلا انه لم يقوَ على ذلك، فهو موقن أن ملامحه البشعة قد تسبب لها وجلاً في أحسن الاحتمالات، وقد يبدر عنها ما

يشعره بالندم طيلة عمره لفعلته تلك ، فآثر أن يفعل كما كل يوم في حياته ، أن يأوي إلى ركن أحلامه ، ويطلق لخيال قلبه العنان ليحلم بذلك الصوت الندي الذي سأله منذ قليل " كيف حالك ؟ "، وما بين كلمتين لا تحملان معنى خاصاً، يقولهما أي إنسان لآخر دونما أي تأويلات مفترضة، تراقص قلب حمل تلك الكلمتين من المعاني أكثر بكثير مما تحتمل، حملهما أحلاماً وآمالاً ودفئاً فوق طاقتهما.

بعد شهور طوال ناجاها كما لم يناجِ أحداً طيلة عشرين عاماً من سنين عجاف، مرت عليه وهو يشغل ركناً بالياً من الحياة ، في كل ليلة من ليال تلك الشهور التي أكملت ميلاد سنة من عمره كان يهديها شيئاً من نبضات قلبه، وشرايين أحلامه ، وبعض ألوان الفرح المسروق من شعاع هارب لشمس لا تعرف الشروق على مدارات عمره النازف في غفلة من الخيبة ، لمح أخاه سالماً ذات يوم يختلس النظر إليها ، فتبادله

نظـرات دافئة تحمـل فـي طياتهـا حـديث عشـق صامت، وعلى وجهها شبح ابتسـامة خجول ، ثـم تهرب إلى حيث النسـاء ، حـاول أن يكذب عينيـه، إلا أنهمـا كانتـا أصدق من اتهامهمـا بشـهادة زور يتمناهـا فـي لحظـات كهـذه ، فانكفـأ إلـى عـوالمه الداخليــة يعلــن نزيــف قلبــه، وتصــدع أحلامــه، وهزيمة بقية إنسانيته، في حيز يشغله هو وحـده وكائن فرائي صغير معاق..

يومهـا تغيـب صـطوف عـن الورشـة، لـم يستطع رفع جسد أثقلته الخيبة عن فراش الأسى، فالنزيف في كبد يتفتت في جوفه أكثر ألماً من أن يقدر على تجاهله، والتظاهر بأن شيئاً لـم يحـدث ، هنـاك فـي أعمـاقه ثمـة شـيء يتصـدع، وتـهاجمه أوجاع روح ممزقة بحمى الخيبة، فيكيل اللوم إلى نفسه ويجلـدها بسياط مـن نـار، كـان يقـول لنفسـه مؤنباً : من أنـا حتى تنظر لـي حوريـة كهـذه؟! وأي مقارنــة بيــن وســامة ســالم وقســماتي المرعبــة؟ وبين شهادة جامعية في طريقهـا إلـى الـتربع علـى

عرش مستقبله، وبين الخواء الذي يستوطن أيام رجل لا مستقبل له، ولا يعدو كونه صبي نجار؟

لم يفكر في لومها أبداً، ولا في لوم أخيه، حتى ولو بشكل مقنَّع بينه وبين نفسه، لكنه استمر في كيل الصفعات لقلبه الذي تورم وتمزقت فيه أوردة الفرح المترقب منذ شهور حتى نزفت مشاعره، بعدها تأكد له تماماً أنه سوف يسلم قلبه ونفسه للعنة الحضور.. ولن يجد من تحرر روحه من تلك اللعنة كما كان يأمل.

كان جلياً أن لسالم -من بين كل أهل صطوف وأقربائه - مكانة خاصة في قلب صطوف، ولمها قلبه نفسه، لذلك صار وجعه شديداً عندما أدرك أن قلب مها يهفو إلى سالم وحده، ولم يكن وجعه عصيا على الفهم، فأن تختار صاحبة عرش القلب ومالكته من بين كل الناس الشخص الوحيد الذي يقترب منه ويكلمه،أمر موجع تماماً حد السخرية.

بدأ صطوف يناجي جرحه وهو قابع في زاويته يشد برفيقه ذي الفراء إلى صدره:" من لي بطريقة أغلق بها قلبي عن عينيها؟ وأدفن بها نبضات قلبي داخل أذين أحمق وبطين غبي؟"

فيجيبه ذو الفراء الأعور:"ومن قال لك أن تهواها أيها الأرعن البشع؟ بالله عليك هل هذا وجه يصلح للحب؟".

فيجيب دون صوت:"هي القلوب تدق لمن تهوى..وليس لأحد سلطان عليها".

في ذلك اليوم ارتفعت حرارة صطوف، حتى بدأ يهذي من وطأة الحمى التي ألمت به، وسقط طريح الفراش دون أن ينتبه أحدهم إلى أن العامل الممرض خرج من القلب، مجتاحاً كل ما يمكن أن يسمى جسداً، لكنه قبل ذلك كان قد قتل الروح بعد أن عاث بها خراباً، ومزق كل الأماني المزروعة فيها، وفي المساء سارع الأب إلى صيدلية الحي، واشترى لابنه مضاداً حيوياً ،

وهـل للـدواء أثـر علـى قلـب ممـزق؟ جـاء الأب بـالحبوب لابنـه، وقدمها لـه مـع كـوب مـن المـاء، دون أن يعلـم أن المضـاد الحيـوي الـذي جلبـه لا يمكـن لـه أن يشفي حمـى خيبـة أخـرى للحـب فـي قلب عاشق، قلب لم يعشْ فرح الحب ودفئه، لكنـه عـاش خيبـاته بكـل لغـات العـالم، وتحمـل أوجاعـاً ليست أقل من وجعه يوم احتضن جسد أمـه، وهـو يظن أنهـا أخيـراً قد قبلـت بـه ، فـإذا بقبولـهـا مـوت سـمرها فلـم تسـتطع أن تحـدجه بتلـك النظـرة، أو تنأى بجسدها عن جسده .

أدار صطوف وجهـه لمشـاعره، وعلـق علـى بـاب قلبـه أيقونـة حـزن أخـرى لـن تكـون الأخيـرة كمـا يتمنـى، وبقي يجتر خيبات تنمو في أحشـائه عشـبا بريـا شـيطانيا ترويـه أوجـاع لا قبـل لإنسـان علـى احتمالـها.

كل ثلاثـاء تنفس هـواءه فـي الأسـابيع التاليـة كـان فيضاً مـن الأحـزان، حيـث يجـر رجليـه جـراً ليصل إلى البيت، ورغم ذلك فقد ظل لوقع قـدميها عنـدما

تقــترب، وتتحــرك، وتصــنع القهــوة، وتلاحــق إخوتها فـي البيت، ونغمـة صوتها الـتي تتعمد أن ترفعهـا قليلاً لتقـع فـي قلـب حبيبهـا، فتـدرك دون قصـد منهـا آذانـا أربـع، لرجليـن يحترقـان بحـب امرأة واحدة، لتشعل النار في قلبه من جديد رغم أنـه أغمـض عينيـه عـن آخـر نظـرة، ودقـة قلـب، عنـدما أمسـكها بـالحب المشـهود، ترسـم شـبح ابتسـامة خجـول، ومـن عينيهـا تفيـض أقمـاراً، ونجومـاً، وكـواكب، وأزهـار ياسـمين، هـل الحـب واضح حتى ذلك الحد الذي تفضـحه شبه ابتسـامة خجول ونظرة تقول ما لا تلفظه الشـفتان؟ إذا كـان هو صطوف- استطاع أن يقـرأه -بكل لغـات العـالم وبلغـة العشـاق – مرسـلاً مـن عينيهـا زخـات مطر رقيقـة إلـى أخيـه، فكيـف لـم يسـتطع مخلـوق فـي البيت أن يقرأ حبـه فـي كـل خطـوة ونفس يصدر منه كل ثلاثاء؟!.

في ذلك اليوم قدمت لـه الحياة درسها الثاني ، الـذي مـا كـان إلا تـأكيداً للأول ، وأفهمتـه بـالحرف

والقلم أن وجها كهذا لا سبيل لأن يجد الحب بين الأحياء، ولا لأن ينظر إليه أحد إلا نظرة دهشة أو شفقة أو استنكار، وربما خوف إن كان الناظر طفلاً.

فهم صطوف درسه جيداً هو الرجل الذكي الذي تقبع أغلب إمكانياته في رأسه ، فانطلق في الحياة بعد ذلك دون أي توقعات أخرى، أو أحلام مصلوبة على بوابات الوهم ، لم يعد ينتظر من الحياة شيئاً، ولا يتوقع ممن حوله أي شكر أو محبة أو عرفان ، لم يعد يبحث عن الحب أو الاهتمام في ثنايا جملة أو عبارة وجهها أحدهم إليه، لم تعد الحياة بالنسبة له سوى تفاصيل باردة يعيشها في انتظار طلقة الرحمة تطلقها يد القدر فتردي خيباته قتيلة ، وتخمد أنفاس اليأس في صدره إلى الأبد .. وإلى أن تخترقه تلك الطلقة عاد شخصاً يعيش في ظلال أوجاعه، لا أحد يتذكره إلا إن كان يحتاج ذراعين قويين لحمل شيء ثقيل لا قبل لغيره في زحزحته، وحتى إن

كـان هـذا الآخـر يسـتطيع ، فلمـاذا يفعـل طالمـا أن صطوف هنا في الخدمة ؟!.

وحـدها الكتـب اسـتطاعت أن تـدفن بيـن أوراقها دموعـاً لا يراهـا أحد، وعذابات تنخـر فـي قلب متهـرئ، وأحلامـا تـورمت الخيبـات بهـا حتـى غدت كـوابيسَ تنـزف فـي شـرايينه، ولـذلك صـار ينكـب علـى الكتـب دون هـوادة، واجـداً نفسـه بيـن أبطـال تلـك الكتـب فارسـاً مـن الفرسـان الثلاثـة، وأميراً من أمراء الحب، وشخصـاً أسـطورياً يحيـا فقـط فـي حـدود الـورق، ومـا أن ينتهـي مـن هـذا الكتاب أو ذاك حتى يعود صطوف الرجل المنكسر المتوحـد مـع أوجـاعه وخيبـاته وكـائنه الفـرائي الأعور الدافئ.

<u>لعنة الفرح الغائب :</u>

فـي الأسـابيع التاليـة كـان علـى صطوف أن يتعلـم كيف يداوي جراحه وحده دون صـوت، كـان عليـه

أيضـاً أن ينسـى أو يتناسـى أنـه رجـل، وأنّ فـي صدره قلبا ينبض شـاء ذلك أم أبى، كـان عليـه أن يتعلـم كيـف يستسـلم للتفـاعلات الـتي تـؤدي- مـع الحـرارة أو الـبرد..مع الغضـب والحـزن- إلـى التحول شيئاً فشيئاً إلـى كـائن مـن شمع ليس فـي ظاهره فقط، بـل فـي أعمـاقه الـتي لا يراهـا سـواه، وحـده الشـمع لا يمزقـه الألـم، ولا يسـتطيع الفـرح أن يغشـه لينسـى نفسـه ويخـرج مـن الظلال لـتي يختـبئ خلفهـا إلـى حيـث يبـاغته الضـوء فتنعكس صورة أوجاعه على المرايا المهشمة الساكنة فـي أعمـاقه السـحيقة، مانحـة إيـاه انكسـاراً أشـد ممـا يعانيه.

تمكن فيما بعد من إقفال جميع الطرق المؤدية إلى قلبه، تحسباً لأي طارئ يغرس في قلبه سكيناً آخر ينـزف من جرحـه البقيـة الباقيـة من روحـه، تعلم كيف يعيش على هامش الحيـاة كائنـاً حيادياً تجـاه كل شيء ..حتى نفسه، وعلـّم نفسه إلا يقدم دقـات قلبـه ونبـض شـرايينه إلـى أي إنسـان، ليـس لأن

الآخرين لا يستحقونها، بل لأنه هو نفسه ليس مؤهلاً لها..يشهد على ذلك تشوه يحتل كامل خدّه علّمه منذ سنوات الطفولة أن ينسى أمر المرآة تماماً حتى تلك المختبئة داخل نفسه، تعلم أن المرايا لا تصادق أشخاصاً مثله، ولا تلقي عليهم تحية الصباح إن صدف والتقت بهم وجهاً لوجه..فلماذا يقترب إذن؟

كان يقول في نفسه:"لو كنت شخصاً آخر ورأيتني لما أحببتني، فلماذا ألوم الآخرين إذن؟ فلأحمد الله أن "رفيقاً" لا يملك المعايير التي يملكها البشر، وإلا لنفر مني ذلك الفرائي الأعور.

بقناعاته تلك استطاع أن يمضي في حياته ببرود أكثر يخفي تحت تفاصيله براكين مستعرة، وجروحا أقل، ورتابة لا مثيل لدبيبها، عاد إلى هوامشه الأولى، وأوصد دونه الأبواب والنوافذ جيداً، لكي لا يتحول قلبه ثانية إلى فراشة فيلاحق بصيص الضوء حتى يحترق في وهجه. بينما صار ليوم الثلاثاء وقعه على قلبين آخرين غير

قلبه المنكسر، فمها تنتظر فرحة لقائها بسالم، وسالم يتغيب عن المحاضرة الأولى كرمى لعينيها الجميلتين.

في الوقت نفسه بدأ سالم يعمل جاهدا ليختصر الطريق المؤدي إلى مها، هو الرجل الذي يعرف ما يريد من الحياة، ويخطط لخطواته جيداً، دخول مها إلى حياته خلق له دافعاً إضافياً ليكون أكثر جدية في دراسته، خصوصاً أنه لم يكن من ذلك النوع الذي يهوى المغامرات العاطفية، أو يجيد التقلب في أحضان أهوائه، جاد تماماً هو في عواطفه كما في حياته، ولذلك صار عليه أن يتخرج من جامعته في أقصر وقت، وأعلى معدل تخرج، لكي يضمن وظيفة جيدة في الجامعة تساعده لكي يتقدم خاطباً من أهل حبيبته.

في بداية الأمر كان سالم يعد لمها كل أسبوع رواية جديدة، ينتقيها بعناية، يحملها دفء مشاعره، ونبضات قلبه، ويخط تحت سطور الحب فيها خطوطاً، ويرسم بقلم الرصاص

مشاعره بخط رقيق تحت تلك الكلمة وهذه، لتصبح رسالة حب مشفرة، لا تخفي سرها عن قلب عاشق، فتمحو هي ما خطه لترسم خطوطا أخرى بقلب مرتجف، وأصابع مرتعشة تبادله فيها حباً بحب، وتعده بأن تنتظره عمراً إن كان وفياً لحبها كما يدعي، وما أن يقبل يوم الثلاثاء ناثراً دفئه على القلوب العاشقة، حتى تمد له يدها بالكتاب، فيعطيها كتاباً آخر تتساقط من بين كلماته وحروفه أشواق مستعرة، وتفضح العيون العاشقة والمترقبة ما أخفى بين سطوره.

ولأجل حبه وشوقه لأن تضمه وحبيبته جدران منزل واحد لينطفئ شوقه بلقاء أبدي، سعى سالم جاهداً لإحراز المرتبة الأولى أثناء الفصول الدراسية، بينما عمل في الصيف في محل لبيع الملابس الرجالية محاولاً تدبير بعض المال، كان يضنُّ على نفسه حتى بكأس عصير بارد يطفئ حر كبده خلال دوامه، حرصاً على جمع أكبر قدر من المال، واختزال أكثر ما يمكن من الوقت، وما

أن توافر له مبلغ كافٍ لشراء خاتمي الخطبة حتى سارع إلى إخبارها، أعطته خاتماً ليستطيع تحديد مقاس إصبعها، وأخبرته عن أحلامها الصغيرة، وكيف تحب أن يكون خاتم خطبتها، ويوم الثلاثاء التالي كان قد اشترى الخاتمين، وقدمهما لها، قبل أن يخبر أحداً من أهله بنيته لخطبتها، كاد يطير فرحاً وهو يعود بهما ليمنحهما لها، أما هي فقد أخرجها الفرح عن حذرها ليراها صطوف وقد تشابكت أصابع كفها الدقيقة البيضاء بأصابع أخيه، وهو يحاول على عجل تجريب الخاتم في إصبعها قبل أن يراهما أحد، لم تنتبه مها إلى وجود صطوف، وهي تنظر إلى الخاتم يحيط بإصبعها هالة من فرح، ومن عينيها تطير فراشات ملونة بألوان أحلامها، هي التي تعد الأيام بانتظار أن يأتي فارسها خاطباً، غادر صطوف الغرفة سريعاً، بينما ترك سالم الخاتمين في حوزة حبيبته مكللين بشوق لا يحتمل، في انتظار اليوم الذي يضعان فيه الخاتمين على مرأى من الجميع، ودون خوف.

تخرج بعدها من الجامعة بمعدل ممتاز، وسرعان ما تقدم إلى عدة وظائف، بعد مطاردة يومية لإعلانات العمل في الصحف والمجلات، وملاحقة لعناوين الشركات الخاصة والحكومية، وبحث هنا وهناك عن فرصة عمل جيدة تساعده في المضي قدماً نحو حلمه، حتى استطاع أن يشغل وظيفتين في آن واحد، إحداهما حكومية في الجامعة كما كان قد خطط من قبل، والثانية في شركة خاصة، مما أمن له دخلاً لا بأس به ليخطو خطواته الأولى.

وبعد أن ادخر مبلغاً معقولاً صارح أباه برغبته في الزواج من مها، ولم تمانع زوجة الأب هذه المرة، فالعروس بنت أختها، والعريس شاب في مقتبل العمر، يحمل من المؤهلات ما ينبئ بمستقبل آمن، تلك الليلة كان البيت يعج بخبر سعيد، ورغم أن صطوف كان قد أهال التراب على جراحه، ووضع عليها شاهدة قبر كتب عليها بدمه :" هنا دفنت مشاعري إلى الأبد"، إلا أنه لم

يتمكن من النوم مطلقاً في تلك الليلة، فقد عادت عيون مها لتقتحم خلوة جراحه، ونظراتها الوديعة توزع حنانها في كل مكان حوله..إلا ركنه القصي، عاد قلبه ينبض من جديد، وكأنه ما مر بكل ما مر به ليقفل ذلك الباب على مشاعره للأبد، لكنه كان قد آلى على نفسه ألا يؤذي أخاه وحبيبته، حتى بدموع تنهال غصباً عنه عبر عتمة الخيبة، في ركنه المنسي، وعلى كتف زاوية الغرفة القصية المختبئة خلف ستارة داكنة تفصل بين ركنه الذي لا يتجاوز حجم فراشه، وبين بقية الغرفة، حيث لا أحد يمر إلا هو ودموعه وكائنه الفرائي الأعور.

بدأ سالم يرتب أمور بيت صغير استأجره، كان يتحرى عن كل شيء بنفسه، لم يطلب مساعدة من أحد، ولا كلف صطوف-كما فعل الأخ الكبير- بما لا طاقة له به، لكن صطوف كان يندفع إلى مساعدة أخيه مخفياً أوجاعه كما لو أنها لم تكن

هنـاك أبـداً، مبـدياً فرحـاً ليـس مزيفـاً، بقـدر مـا هـو موشحاً بأحزان غير مرئيـة.

قبـل العـرس بأسـبوع اقتحـم سـالم الركـن القصـي لأخيه حاملا ًفي يده كيسا بلاستيكيا مرتبـا، اقتـرب من صطوف وقبلـه، ونـاوله الكيـس، وأخـبره بـأنه هدية صغيرة منه ومن مها ليحضر بها زفافهما.

لـم يسـتطع صـطوف أن يتفـوه بكلمـة، حـتى ولـو كانت" شكرا" رغم مشـاعر العرفـان الـتي فاضـت من كـل خليـة مـن خلايـاه، فـاقتراب أخيـه منـه إلـى ذلـك الحـد الحميـم الـذي لـم يعـرف طعمـاً لـه قبـل اليوم، واختراقه لهالـة الروح والوحدة الـتي يحيـط بهما نفسه هزته من الداخل، جعلتـه يشـعر بشـيء غريـب، شـيء دافـئ لكنـه مؤلم فـي نفس الـوقت، شـيء كـالجوع المزمـن الـذي أُريـد لـه أن يُشـبع بقضمة وحيدة، باغتته الأوجاع في لحظـة واحـدة، وهاجمته ذكرياتـه البـاردة وقـد مشـت فـي شـرايينه

سير فيضان مدمر، أراد أن يهرب منها..من نفسه إلا أنها لاحقته بشراسة، فعاد إلى ركنه القصي يعانق ذلك الكائن الفرائي الأعور، ويراقب أحزانه بصمت وينتحب دون صوت، تذكر أن أخاه ناجي لم يكلف نفسه بدعوته بعد أن استخدمه خادماً مطيعاً بين يديه، وتذكر أيضاً كيف كلف هذا الأخ أباه بشغله بحجة زائفة تبعده عن احتفالات عرسه لئلا يراه أهل العروس، وعاد يلقي بأسئلته الحائرة في أذني رفيقه الفرائي الأعور: وماذا إن كنت مشوهاً؟ هل اخترت أن أولد بوجه كهذا؟ أي غبي في وسعه أن يختار وجهاً كوجهي ولو قدم له معه مال قارون؟لماذا علي أن أعاقب لأجل وجه لم أختره ولا أردت له أن يتربع قمة جسدي؟ أدار الفرائي ظهره لصطوف مختبئاً من جراحه..فقد كان الآخر يبكي صديقه الموجوع دون صوت.

يومها وبعد تفكير عميق قرر صطوف أن خير ما يمكن أن يرد به لطف سالم وهديته وتقديره لكائن

لم يعرف التقدير يوماً، هو إعفاؤه من وجه كوجهه يثير تساؤلات المدعوين ويلفت نظرهم، فليكن سالم نجم الحفل بوسامته بدلاً من أن يتولى ذلك وجه كوجهه، كان يدرك بذكائه أن حضوره سيلفت نظر جميع الحاضرين ويثير تساؤلاتهم، إنما غيابه لن يلفت انتباه أحد، بل ربما تنفس أهله الصعداء، وهو يعفيهم من تبرير حركاته المترددة، وشكله المختلف بكل المعايير عن وجهي أخويه الوسيمين، ولذلك عزم على انتشال قبحه من تفاصيل ذلك اليوم الاستثنائي بفرحه في حياة أخيه، مانحاً إياه فرصة فرح باذخ الجمال، باغتيال لعنة حضور كائن عليه ألا يُرى في مواعيد استثنائية بتفاصيل جمالها المعلن، ونام صطوف ليلتها قرير العين بهديته لأحب شخصين لديه في مناسبة تكاد تصبح نعيا لقلبه .

وعندما حان الموعد، وأدركته ساعة الزفاف بانشغال الجميع من حوله وخروجهم نحو قاعة العرس، قضى صطوف ليلته ملتحفاً حزنه

ومتلفعاً بخيبته، كان يحدث رفيقه الفرائي بصوت عال دون خوف، بعد أن اطمأن إلى ذهاب الجميع إلى العرس، وإلى أنه وحيد في المنزل مع رفيقه، و بوسعه أن يلعن أحزانه بصوت عال، فلا يمكن لأهله في قاعة الفرح حيث تصدح أغاني الحب والأمل أن يستمعوا لأناشيد الحزن والخيبة التي تعلو في سقف البيت.

قال لرفيقه الفرائي: أنا مجروح حتى العظم، روحي تتبخر، قلبي تحول إلى شظايا صغيرة مدببة..كل ما فيّ ينذر بانهيار قريب.

فأجابه الأخير: ذلك قدرنا يا عزيزي، نحن كائنات خلقت دون مرآة في دواخلها، لذلك نحن لا نرى أنفسنا إلا عندما يرانا الآخرون، وعيون الآخرين يا صديقي- تلك التي تنعكس صورنا عليها ـ ما هي إلا مرايا متكسرة بقدر بشاعتنا تمنحنا صوراً مشوهة تخيفنا، ولهذا نحن نختبئ خلف ستارة قاتمة ضائعة بين الحدود الفاصلة بين الموت والحياة ،نحن نفتقد ذواتنا، وهذا يجعلنا كائنات

مكرسة لغيرها، عليها أن تقوم بخدمات مقابل أن تحظى بصاحب، فنحن لا نملك ما يجعل غيرنا يصاحبنا دون مقابل.

قال صطوف: لكنني أصاحبك!

أجاب رفيق: هب أنك تصاحبني دون مقابل فلأنني مثلك..كائن مشوه يفتقد مراياه..كائن مثلك لا صديق لديه..ولا أحد يهتم بأمره، إلا أنني في حقيقة الأمر أقدم لك شيئاً نبيلاً وهامّاً...أنت لن تستطيع الحياة بدوني..فأنا الوحيد الذي يسمعك.

حقيقة الأمر لم يكن صطوف قادراً على حسم أمره تماماً، هل كان احتواؤه لذلك الكائن الفرائي نبلاً منه أم أنانية؟ هل كان بمصاحبته له يقدم المساعدة لذلك الكائن أم لنفسه؟ ومن جهة أخرى لم يكن في مقدوره في ذلك الوقت أن يفكر في شيء آخر إلا قلبه المبعثر بين أخيه وحبيبته، والمتعثر بحب من طرف واحد، طرفه الآخر يحتفي في اللحظة نفسها بلقاء أبدي يجمعه مع

من يحب، كان هناك سؤال واحد فقط يؤرقه: كم على الإنسان أن يخسر وأن يظل قادراً على الوقوف والاستمرار في نفس الوقت، كم عليه أن يخسر قبل أن ينهار تماماً ويخسر نفسه إن افترضنا جدلاً أنها كانت لديه أصلاً؟ أي شيء يحقق تلك المعادلة القاتلة؟ لذلك أقفل فمه عند هذا الحد من الحوار.

بعد قليل تمدد إلى جوار رفيقه الفرائي، فبادره الأخير قائلاً:

-هل كنت لتصارح مها بحبك لو أن أخاك لم يفعل؟

فكر صطوف في نفسه، لقد كان لديه العديد من الفرص لمنحها إحساسا باهتمامه إلا أنه لم يفعل..لم يجرؤ مرة واحدة على رفع وجهه والنظر في عينيها، أجاب: أغلب الظن أنني ما كنت لأفعل ذلك أبداً.

سأله الفرائي: لماذا؟

-هل تسخر مني يا هذا؟ فتاة رقيقة مثل مها تحتاج أميراً أسطورياً وسيماً، لا ضفدعاً قبيحاً لا أمل لديه بأن تزول لعنة التشوه من وجهه ولا بألف قبلة من جميلته.

-إذن في حقيقة الأمر كان عليك عاجلاً أم آجلاً أن تواجه أمر زواجها من رجل آخر.

-ربما..على أنه لن يكون أخي، ولن أضطر إلى رؤيتها مرة أخرى.

-أيها البائس كنت لتراها وهي تزور خالتها سواء تزوجت من أخيك أو من أي رجل آخر، أخوك مثل أي عريس آخر يمكن أن يتقدم لها، مجرد رجل مناسب، لا يهم من هو، وإلى أي عائلة ينتمي.

-ربما كنت محقاً..ربما ليس الأمر أن أخي من تزوجها بقدر ما أنه زواجها من رجل آخر..وهو أمر متوقع، هل تظن أنها كانت لتقبل بوجه كهذا، تفتح عينيها الجميلتين كل صباح على نتوءاته الحمراء المقززة؟

عندما نظر إلى رفيقه منتظراً إجابته، كان الأخير قد غرق في أحلامه، وتركه وحيداً مع أفكاره وفجيعة قلبه، يستجمع شتات ذاكرته الغارقة في تفاصيل صغيرة تماماً، صغيرة حتى أنه لا أحد يراها سواه، لكنها كبيرة بما يكفي لتتقمصه، تلك التفاصيل التي ستحل في روحه كما لعنة مباركة.

صطوف يصادق البرادات:

مرت الأيام بعد عرس سالم والمنزل خاوٍ إلا منه ومن أبيه وزوجته، كانت تلك الأيام تزداد وحشة وبرودة في قلب صطوف، وصار ينتظر أيام الثلاثاء لرؤية أخيه وزوجة أخيه التي أحبها يوماً، كي يشعر أن في البيت دفئا يحيط به، فبعد أن غادر سالم أصبح البيت كتلة من صقيع وغربة، واحترف صطوف الصمت تماماً، صار فمه قطعة زائدة في وجه لا يطيق تفاصيله، عضو لا وظيفة له باستثناء افترارِه كل يوم عن تجويف يلقي في داخله لقيمات تمنحه القوة الكافية

لممارسة الخيبة اليومية، بتفاصيل غارقة في الرتابة القاتلة، وباستثناء ذلك فلا فم له.

في أحد أيام الثلاثاء الخائبة أخبره سالم أنه يريد محادثته في أمر خاص، مقترحاً خروجهما سوية إلى الحارة للحديث دون إزعاج بعد عودته من العمل، ورغم استغراب صطوف إلا انه لم يضع أي احتمالات أو توقعات، فهذا ما علمته إياه الحياة، أقله ألا يمني نفسه فيمنى بخيبة أمل إضافية تزيد من ثقل الحياة على كاهله، ثم بأي شيء يمنّي نفسه؟1 هل سيحلم أن أخاه سالم تحول إلى مصباح علاء الدين لكي يتمنى أو يحلم، ويكون على أخيه المصباح أن يحقق أحلامه.

عندما خرج وسالم معاً أخبره الأخير بأنه وجد له عملاً حكومياً، ربما لا يزيد راتبه عن دخل الورشة، إلا أنه يؤمن له تقاعداً عندما يصل إلى سن الشيخوخة، بالإضافة إلى ميزات أخرى

تؤمنها الوظائف الحكومية كالعناية الطبية والقروض والإجازات المدفوعة وغيرها.

لم يكن صطوف رجلاً مؤهلاً لاتخاذ قرار، ولا هو قادر على إبداء رأي واضح ينسبه لنفسه، لذلك كان إن صدف وسئل عن رأيه- وهذا قلما يحصل- أجاب بآراء الآخرين..بل ونسبها إليهم، متوقعاً أن رأي الآخرين المنسوب إليهم أكثر وقعاً وإقناعاً، وحتى حكمة من رأيه المجرد، ولذلك ما كانت عبارة (قال أخي أو يقول أبي أو حتى بطل من أبطال الروايات التي يقرؤها) تفارق مفردات آرائه أبداً، إن استطعنا أن نقول آراءه، ففي الحقيقة لم يكن صطوف يملك رأياً حاسماً بأي شيء حوله إلا نفسه، فهو شخص حيادي جداً يعيش على هامش الحياة، وحافة الأحداث، لئلا تترك فيه انطباعاً يجبره أن يتبنى رأياً شخصياً وحده، تاركاً للحياة توجيه قاربه دون أدنى تدخل مهما كان صغيراً منه، وهو ليس إنساناً مبادراً بطبيعته، فقد كان التغيير يخيفه حد الرعب، وهو

يكره الأماكن الجديدة والوجوه الجديدة، التي لا يعرف ماذا تخفي وراءها، وأي شيء يمكن أن يصيبه جراء اقتحامها حياته، لذلك أرعبته الفكرة، هزته من أعماقه، أن يترك مكاناً يعرف ما فيه، ومن فيه، ويقتحم مكاناً مجهولاً ، فكرة أربكته تماماً، ولم يستطع إزاء الميزات التي أخبره بها أخوه عن الوظيفة الجديدة أن يحدد له موقفاً واضحاً، هل يقبل بالوظيفة، ويضحي بشعور زائف بالألفة للأماكن والوجوه؟ وهل الوظيفة ومميزاتها تستحق منه فعلاً أن يضحي بسكينته؟ وأن يغادر الهوامش الآمنة ويلقي بملامحه في خضم الحياة، وعلى مرمى نظر من كائنات سوف تنظر إليه شذراً، لتطالعه بنظرات أكثر ما يتمنى ألا تصادفه في حياته ولا يراها.

أكثر ما استطاع أن يدرك إحساسه به ويفهمه هو الخوف، الخوف من الخروج من قوقعته، وكأن سالماً قرأ ما يدور في رأس أخيه، فأكمل شارحاً أن المكان الذي سيعمل فيه لن يشاركه فيه

أحد آخر، باستثناء مرور سريع يتم فيه تسليم جثث الموتى له لإيداعها في الثلاجات، وذلك كله لن يستغرق أكثر من دقائق.

طرقت كلمة الموتى سمع صطوف بقوة، وبانت الدهشة والرهبة على عينيه اللتين تدورتا حال وصول تلك الكلمة المرعبة إلى سمعه، فأطلعه أخوه على تفاصيل مكان العمل، موقعه سيكون في قبو المشفى حيث توجد برادات تستقبل الموتى لإيداع جثثهم حتى يأتي أهاليهم لاستلامها، وأخبره أن الأمر قد يكون مخيفاً في الأيام الأولى للعمل، إلا أنه سوف يعتاد عليه بعدها، وأنه كان يعرف الموظف السابق في هذا المكان، وقد كان سعيداً في عمله، إلا انه تقاعد.

وتركه بعدها يفكر بالأمر قبل إطلاع والدهما على تفاصيله، لم يكن تصرف سالم هذا من قبيل الصدفة، لكنه أراد أن يُشعر أخاه أنه أصبح رجلاً، ومن حقه أن يتخذ قراراته وحده، وثم عليه أن يتحمل مسؤولية تبعاتها .

بقي صطوف مذهولاً، وظل الخوف يتربع عرش قلبه بقوة، لم يكن أمر الأموات ما يقلقه ويثير خوفه، بقدر ما كان يقلقه أمر الأحياء، لكن أخوه تولى أمر إقناعه، وإعطائه تفاصيل تطمئن الخوف في قلبه، وأخبره أن عليه أن يخرج من حضن أبيه، وأن يواجه الحياة وحده كرجل، في حقيقة الأمر كان ذلك الأمر يؤرق صطوف كثيراً في الأيام القليلة الماضية، فقد أصبح في عمر ينبغي له فيه ألا يكون عالقاً بين جدران منزل أبيه، إلا أن المبادرة للخروج كانت تخيفه، هو الرجل الذي لو أوكل إليه أمر تنفسه لما بادر بأخذ شهيق واحد يحفظ الحياة في رئتيه، ومن جهة أخرى، فمن أين يأتي رجل بمثل ملامحه بخيار آخر؟.

لم يثق صطوف يوماً بإنسان أكثر مما وثق بأخيه سالم، لذلك كانت نصيحة سالم بالنسبة له أكثر إخلاصاً من أي نصيحة أخرى، كان بوسعه أن يعتبر كلام سالم قراراً متخذاً بشأن حياته، إلا أنه

لم يفعل بسبب خوفه المدمر من اقتحام الأماكن الجديدة، ومصافحة ملامح لم تعتد رؤية ما يشبه اضطراباته من قبل.

ولم يكن رأي الأب عندما طرح عليه موضوع العمل مخالفاً بأي حال لرأي سالم، فهو أيضا رأى في وظيفة حكومية ثابتة ملاذاً آمناً لصطوف، خصوصاً أنه في قرار نفسه كان يدرك أن صطوف سينتهي وحده، دون زوجة أو ولد، دون عائلة تسانده في منعطفات العمر الصعبة، لذلك فالوظيفة الحكومية سوف تصبح أماناً له في شيخوخة لن يكون فيها أحد بجانبه لمجابهة قسوتها، وهكذا شجعه والده أيضاً على المضي قدماً في هذا الأمر، لكنه بطبيعة الحال لم يكن ينتظر نصحاً، كان ينتظر قراراً حاسماً يريحه من عناء التفكير، ويبتر التردد والخوف اللذين يلازمانه كما ظله، وينهي أمر التفاصيل المخيفة التي تبرز له من كل زاوية وركن، لتقتل لديه أي رغبة بالتغيير، ولذلك اعتبر رأي أبيه بالإضافة

إلى رأي سالم قراراً واضحاً، تظاهر بينه وبين نفسه أنه من اتخذه..لكنه في حقيقة الأمر لم يتعدَ كونه تبنى قراراً اتخذه غيره، فسارع لتنفيذه.

وعندما أوى إلى فراشه تحدث مع رفيق في هذا الأمر، أخبره بأن عليه أن يغير عمله، وأن العمل الجديد فيه مميزات ليس من أهمها الخروج من دائرة أبيه وأبي نعيم، لم يكن الفرائي ليمانع طالما أن صطوف لن يتخلى عنه.

في اليوم التالي مر سالم إلى بيت أبيه، واصطحب أخاه ليستخرج له أوراقه الرسمية، ويقدمها إلى شؤون الموظفين، تمهيداً لدعمها بالواسطة اللازمة.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يغادر صطوف فيها محيطه الصغير في الحارة، ليبتعد عن كل ما يعرفه جيداً، مشى في الشارع مطأطئاً رأسه محاولاً ألا تلتقي عيناه بعيون الآخرين، إلا أن مرور بعض النساء بالقرب منه جعله كالعادة

يلتصق بأقرب جدار يراه أمامه، وترتفع وتيرة الخوف في قلبه، ويعلو تنفسه حد اللهاث، بينما تحاول كفه كالعادة إخفاء ذلك التشوه على خده، ويتحرك نصف جسده الأعلى حركته البندولية المعتادة جيئة وذهاباً بين الأمام والخلف دون أن يتحرك من مكانه فعلياً، ليمسك به أخوه محاولاً أن يبث فيه بعض الشعور بالاطمئنان، علّه يخفف احتقان المشاعر في قلبه، ويجبره على السير قدماً، والتعامي عن الخوف الذي يعتريه كلما مرت به امرأة.

لم يكن من السهل على صطوف أن يلملم شتات نفسه إزاء نظرات الشفقة التي يمطره بها المارة، تلك التي تلاحق تفاصيل اضطراباته وحركاته العصبية الواضحة، هي بالنسبة إليه أشد وأقسى من نظرات الاستنكار والسخرية والازدراء، وحدها نظرات الإشفاق تهاجمه كقاتل نهم ظمئ لمزيد من الدماء يتسرب بحلة حمامة سلام بيضاء لا تريد قتالاً، بينما كان بوسعه رغم خجله

الواضح، أن يبادل نظرات الاستنكار والسخرية بأخرى أكثر شراسة، وأشد عداوة ولو بشكل مبطن خجول، طالما أن من يرسلها لا يحمل صفة الأنوثة في تكوينه.

ما عدا تلك الدقائق المليئة بالتوتر، كانت عيناه توزعان دهشتهما على كل منعطف وزاوية، وعلى كل شجرة وغصن، كأنما هو يكتشف للتو أن الدنيا أوسع بكثير من حارته الضيقة، وأن الناس أكثر بكثير من الوجوه التي يحفظها جيداً بكل تفاصيلها في حارته الضيقة.

أما أصعب ما واجهه في ذلك اليوم العصيب فهو حاجته إلى صور شخصية، جعلت أخاه يصطحبه إلى المصور، فكيف برجل يكره المرايا حتى أنه حطم أول مرآة واجهت عينيه بتشوهات خده بفرشاة الشعر، بعد أن فشلت يداه العاريتان في تحطيمها في سنوات طفولته المبكرة، أن يحتمل تصويره وطباعة ملامحه على قطعة ورقية، كأنما هي شاهد إثبات على أوجاع وجه لا يطيق النظر

فيـه؟؟..لكنه رغم كل مـا اشـتعل فـي أوردتـه مـن مشاعر الحنق، حاول ألا يظهر اضطرابه، واكتفي بتجاهـل الصـور، ولـم يلـق نظـرة واحـدة عليهـا، كأنها لا تخصه، ولا تحمل ملامحه.

بعدها تـوجه مـع أخيـه إلـى مكتـب قيـد النفـوس، ومكتب العمـل، ومكـاتب حكوميـة أخـرى، لـم يفهـم مـا علاقتهـا بـوظيفته، ولـم يحـاول أن يفهـم، كـان يصعد مع أخيـه مـن مبنـى لآخـر، ومـن مكتـب إلـى ثان ٍدون صوت، لا ينبس ببنت شفة، بينمـا يتـولى سـالم أمـر طلـب الأوراق، وملأهـا، وإلصـاق الطوابـع، وحـتى توقيـع الأوراق بـدلاً مـن أخيـه الكائن المستكين صمتاً، القـابع إلـى جواره كطفـل لم يبلغ الحلم بعد.

وأخيرا اكتملت الأوراق وقدمت إلى مكتـب شـؤون العمـل بشـكل نظـامي، وعـاد صـطوف إلـى الـبيت رجلاً آخر، ترتسم الدهشـة علـى حـدقتيه ألوانـاً لـم يسبق لـه أن رآها، ورغم الخـوف الـذي كـان يحتـل مساحـة قلبه تجاه التغيير القـادم فـي حيـاته، إلا أن

فرحاً خفياً كان يتسرب إليه دون أن يعرف له سبباً واضحاً، سوى تلك الأماكن، والألوان، والوجوه، والشوارع، والأشجار التي رسمت على حدقتيه ملامح أخرى للحياة، لم يسبق له أن انتبه إلى تفاصيل وجودها في محيطه الضيق الذي لا يريد منه فكاكاً.

للمرة الأولى منذ وقت يكاد يناهز عمراً بحاله يستلقي صطوف محتضناً رفيقه الفرائي الأعور، وفي قلبه ترقب، وانتظار، وبهجة، لا يعرف لدبيبها سبباً في روحه، كان لديه الكثير من الأشياء التي يريد أن يقولها للفرائي، إلا أن الأخير أبدى مخاوف لا تحصى، وسأله قبل أن يغمض عينيه دونه:" هل تريد حقاً أن تبتعد عن وجه أبيك وأبي نعيم؟ وكيف هي الوجوه التي سوف تحل محلها؟ ما أدراك أنها لن تؤذيك؟ قد يتعين عليك العمل مع امرأة فتسلط عليك عينيها بنظرة باردة تحيل حياتك جحيماً، وتصب لعنة حضورها في تفاصيل عمرك".

لم يكن صطوف يفكر في هذا الأمر، فقد أكد له أخوه أنه سيكون وحيداً في مقر عمله، ولكن ماذا عن المكاتب الأخرى التي يتوجب عليه التعامل معها؟ أقلقته هذه الفكرة، إلا أنه عاد وطمأن نفسه، فعلى كل حال لن يكون هناك أحد غيره في تلك الغرفة التي سوف يشغلها ..وهذا هو المهم، أما الباقي فسيدعه لوقته، وبأي حال كان أكثر ما أراحه أن طريق العودة لن يغلق في وجهه، والورشة لن تهرب من مكانها، وباستطاعته أن يعود من حيث أتى، إلى الورشة التي احتضنته عمراً، إن لم يستطع احتمال التعامل مع ظروف وظيفته الجديدة.

خارج الحدود:

لم يكد يمر أسبوع بعد تقديم ملف صطوف، إلا وأرفق طلب التوظيف بالموافقة، بعد أن تدخلت الواسطة لملء الفراغ بالرجل المناسب حسب

الـترتيب الأبجـدي للواسـطة المسـتعملة، وأصـبح صـطوف موظفـاً رسـمياً، صـار عليـه أن يسـتلم وردية الصباح التي تبدأ منذ الثامنـة صباحاً حتى الرابعة عصراً فـي أسـبوع، ووردية المسـاء الـتي تبدأ منذ الرابعة وحتى منتصف الليل في أسبوع ثانٍ، ثم وردية الليل بدءاً من الثانيـة عشرة حتى الثامنة صباحاً في أسبوع ثـالث، ليبدأ مرة أخرى الدورة نفسها.

فـي اليوم الأول رافقـه سـالم حتى غرفـة البرادات التي ستصبح مقراً لعملـه بعد ذلـك، وجلس معـه، حـاول جاهـداً أن يخفـف احتقـان مشـاعر أخيـه بالوجل من بقـائه وحيداً مـع الجثث الـتي تستلقي فـي البرادات المحيطـة بـه مـن كـل اتجـاه، تجـول الأخـوان فـي المكـان لاستكشـاف تفاصيله، كـانت الغرفـة واسـعة، تشـعر وكـأن الكآبـة قـد طلـت جدرانها بلون باهت مقيت، حتى بلاطها يبدو كـأنه فقد لونـه بسبب التقـادم، تسند البرادات جدرانها مـن كافـة الاتجاهـات، وفـي طرفهـا يوجـد مكتـب

وثلاثـة كـراسٍ، أحـدها جلـدي دوار لـونه أسـود، وهـو للموظـف، كمـا يشـير مكـان تواجـده خلـف المكتـب، والآخـران أمـام المكتـب، وهمـا خشـبيان قـديمان، لاسـتخدام الـزوار، وعلـى المكتـب دفـتر كـبير هـو سـجل لتسـجيل أسـماء أصـحاب الجثـث الـتي اسـتلمها أو سـلمها، وعلـى الطـرف يوجـد سـرير متحـرك لنقـل الجثـث صـعوداً حيـث يتـم تسليمها للأهل في الطابق الأول، وتستخدم أحيانـاً للنـوم فوقهـا أثنـاء المناوبـة الليليـة، وفـي أقصـى الغرفـة بـاب يخفـي خلفـه دورة ميـاه، ومغسـلة، وغـازا صـغيرا ذا رأس واحـد مـع لـوازم صـنع الشـاي والقهـوة، وبضـع كـؤوس ذات أحجـام مختلفة.

بعد فترة قصيرة من الزمن آنس سالم في أخيـه شجاعة لم يتوقعها، فغادر مستغرباً، تاركاً الأخير في مقر عملـه، كـان التعامل مع المـوتى بالنسبة لصطوف أسهل ألف مرة من التعامل مـع الأحيـاء، ذلك ما لم يدركه سالم .

رغم ذلك، فبعد أن مضى سالم تاركاً وراءه صطوف وحيداً في غرفة الموت الباردة، شعر صطوف بخوف ووحشة بدأت تتسرب شيئاً فشيئاً إلى قلبه، البرادات ذات الأبواب المعدنية الباردة التي تتربص به من كل اتجاه، والصمت المطبق حوله مشحوناً بالقلق، تركا في قلبه شعوراً بالوحشة والبرد أشد مما توقع، ولذلك مضى الوقت ثقيلاً، وتلاعبت به أفكاره لحد كاد يدفع به إلى الهرب من ذلك المكان الموحش،إلا انه سرعان ما تغلب على ذلك الشعور..كيف لا وهو الكائن الذي لم يستطع حتى اللحظة أن يصنف نفسه بين الأحياء، بل ربما كان أقرب للموت منه إلى الحياة..وإلا لماذا يقبله الأموات ويعرض عنه الأحياء؟

أيقظ العمل الجديد مشاعر مختبئة في قلب صطوف، كان يحاول وأدها مهيلاً عليها طبقات من الخوف والخيبة، فقد كانت تستولي عليه أفكار غريبة، شعر مراراً كما لو أن أباه وأخوته

بأوزانهم الثقيلة جميعاً معلقون بسلاسل معدنية غليظة إلى رئتيه، كانوا عبئاً ثقيلاً جداً في بعض الأحيان، تمنى أن يستيقظ يوماً ليجد نفسه في جزيرة بعيدة غير موجودة على خرائط الكون، بعيداً عن الملامح التي يعرفها، وعن أي شيء يذكّره بهم ليحرر نفسه من تلك المشاعر، كان يشعر أنه عبء ثقيل حلت لعنته على أسرته منذ ولادته، ويتمنى أن يحررهم منه، ويتحرر من عبء امتنان موجع لهم، بسبب قبولهم له بينهم. فولادته بالنسبة إليه مصيبة حلت عليه، كما حلت على عائلته، إلا أنه معني بتحمل أوزار ولادته دونهم، كأنه كان يحمل في ذاكرته دون أن يدري كره أمه لخبر حملها به، وكرهها لولادته، لذلك حاول عبثاً في كل يوم من حياته، وبكل ما أوتي من صبر وقوة أن يكفر عنها.

ذلك الثقل أشبه ما يكون بحجر مربوط إلى جسد مقيد بسلاسل ثقيلة رمي في البحر، يشده ذلك الثقل بقوة للأسفل، وتعجز أطرافه المقيدة عن

رفعه فيزداد غرقاً كل يوم..يزداد اختناقاً، ما جعلـه يـدرك تمامـاً فـي أعمـاقه أن عليـه أن يحـرر نفسـه من وجوده بينهم، أن يريحـهـم منـه، ويريـح نفسـه من ذلك العبء الثقيل الذي يخنقـه، وهـو يعلـم أنـه يحتل مكاناً لم يعد لديه الحق في احتلالـه، خاصـة بعد أن أصبح رجلاً، يدرك هو بأن خروجه عنهم سيمنحه جنـاحين يطير بهمـا بعيـداً، قـد لا يصـبح نسراً، ولا حمامة، إنما بومة شمطاء تختبئ خلـف تفاصيل الظلام وتتوارى فـي العتمـة، إلا أنـهـا بـأي حال حرة..حرة تمامـاً تمد جناحيها علـى آخرهمـا لتباري أفقا بعيداً، وتحتـل مسـاحة لا تضـيق بهـا، وتخنق أنفاسها، ولا تتقوقع في ركن صغير مهمل لا يوازي حجم جناحيها حتى وهمـا مطويين إلـى جانب جسدها، إلا أنـه مـا تعود المبـادرة، لـذلك مـا تعدت تلـك الأفكـار يومـاً زاويـة الأحلام المؤجلـة التي قد لا تتحقق، إلا أن تلك الرغبـة صـارت تلـح عليه بشكل قاتل، أن يستيقظ صباحاً فلا يجد حوله مـن يشـعر إزاءه بـالحرج لاصـطباحه بـوجهه القبيـح، ولا يخنقـه الشـعور بـأنه لـولا الحيـاء

لتعوذت زوجة أبيه، و حتى أبوه نفسه من هذا الصباح العفن.

ذلك المساء عاد إلى المنزل قلقاً، لم يكن لديه رغبة في الطعام رغم الوقت الطويل الذي قضاه في العمل، كان الموت يؤرقه، ومرة أخرى وضع الفرائي على صدره، وأخذ يحدثه عن تفاصيل ذلك اليوم حتى غالبه النوم.

في تلك الليلة تحولت أحلامه إلى كوابيس، رأى نفسه هناك في مقر عمله، عندما بدأت البرادات تفتح من تلقاء ذاتها، ويخرج منها الأموات بوجوههم الشاحبة متجهين إليه في محاولة للإحاطة به من كل الجهات، استيقظ فزعاً، فأيقظ الفرائي الذي يقبع على صدره، وعندما سرد عليه تفاصيل ذلك الكابوس أجابه الأخير شامتاً: أخبرتك من قبل..من خرج من داره قلَّ مقداره..من قال لك أن توافق.

أنزل صطوف الفرائي من على صدره، وأدار له ظهره، فهو يعلم أنه لن يغلق فمه حتى الصباح إن لم يفعل ذلك، حاول أن يستعيد نومه إلا أنه لم يفلح.

في اليوم التالي عندما دخل صطوف مقر عمله للمرة الأولى وحده، كان المكان بارداً وصامتاً كما تركه، يكاد يشبه وجهه كثيراً، أدار رأسه فيما حوله، حيث أنه أصبح أكثر جرأة من اليوم السابق، ليرى جدراناً متهرئة الطلاء تختبئ خلف أجهزة التبريد الكبيرة المعدة لاستقبال أجساد فارقتها أرواحها، لم يكن لإنسان عاقل أن يقتحم هذا المكان الموحش دون أن تباغته رهبة الموت، وبرودة المكان، وصمته بشعور مهيب، فيبتلع كلماته ويقف صامتاً في حضرة الموت وفي غرفته.

أما صطوف الذي احترف الصمت منذ ولادته، فقد كان يحمل فلسفة أخرى للموت، فللموت قدرات خاصة تستطيع إخفاء تلك النظرات الباردة التي

كـانت تقتلـه أمـه بهـا كلمـا اقـترب منهـا، وحـده المـوت سـمح لـه بـالاقتراب مـن أمـه والنـوم فـي حضنها، ولأنه كائن لم يشعر بدبيب الحياة والحب في شرايينه فقد كان الموت بالنسبة إليه راحة من كـل شـر، ألـم تنتـه أوجـاع أمـه، وأوجـاعه مـن إبعادهـا الـدائم لـه بـالموت؟ لـذلك لـم يكـن يخشـى المـوت ولا هـو يكرهـه، بـل كـان يشـعر فـي قـرار نفسـه أنـه محظـوظ جـداً بإيجـاد عمـل فـي مكـان كهـذا، يعفيـه مـن تسـلط أبـي نعيـم، وأوامـره المتتابعة، وكفه الثقيل الذي سقط على وجهه عدة مـرات، عنـدما أخطـأ بـتركيب قطعـة مـن الخشـب، رغم أنـه نـادراً ما أخطأ.

في ذلك اليوم استلم صطوف جثة للمرة الأولـى، تركها الممرض له على السرير المتحرك ومضى، بعـد أن وقـع صـطوف علـى ورقـة يقـر فيهـا باستلامه لتلك الجثـة، لـم يتجـرأ فـي بدايـة الأمـر علـى الاقـتراب منهـا، وبعـد أن هـدأ روعـه قليلاً، اقـترب مـن السـرير، ودفعـه باتجـاه الـبراد، وفتـح

باب الثلاجة وقلبه يرتعش، وشد الحامل المعدني إلى الخارج، ثم دفع الجثة فوق الحامل، وأعاده إلى مكانه، وأغلق باب الثلاجة، بانتظار أن يأتي من يهمه أمرها لاستلامها ودفنها بطريقة لائقة بالموت.

بعد ذلك جلس مرتاعاً في كرسيه، كانت فكرة الاقتراب من تلك الجثة حتى ذلك الحد الذي يعتبر حميما عند الأحياء، وملامسته لها أثناء إيداعها في البراد، قد أرعبته تماماً، لكنه ما لبث أن استعاد سكينته بعد أن حاول صرف انتباهه عن البرادات وما في داخلها بقراءة كتاب كان قد أحضره معه.

أحلام الراتب الأول:

داوم صطوف على عمله وبدأ يعتاد وجوه الأموات الزرقاء، وأجسادهم الباردة شيئاً فشيئاً، ولم يكد يشعر بشبح استقلاليته بعد أن قبض

مرتبه الأول بيده للمرة الأولى، وشعر بملمس النقود على أطراف أصابعه، حتى بدأ ينحى بأفكاره إلى أطراف بعيدة لم يجرؤ قبل ذلك على التفكير بها.

فحتى الأمس القريب، ورغم أنه صار رجلاً منذ وقت طويل، إلا أن أبا نعيم كان يضع أجرته في يد أبيه كما تعود أن يفعل منذ أتى صغيراً إلى الورشة، فلا يصله منها قرش واحد ما لم يطلب، وحتى إن هو طلب شيئاً سرعان ما كان يشعر بامتعاض زوجة أبيه، وهي تردد عبارتها المبطنة بالتذمر: "حتى أنت يا صطوف صار لك طلبات"، وكأن هذا الصطوف حجر أو جدار، وعليه ألا يحتاج شيئاً ما دام لديه ركن يدفن فيه تعب يومه، ولقمة تقيم أوده، وكائن فرائي أعور يشاركه هموماً لا أحد يعرفها سواهما.

يذكر ذلك اليوم الذي تاقت فيه نفسه إلى طبق كنافة ساخن، كانت نظرة الاستنكار التي حظي بها

من أبيه وزوجته، أبلغ من أي كلمة بوسعهما أن يقولاها.

اليوم صار بإمكانه أن يضع راتبه في جيبه، أن يأخذ منه ما يريد، فمن الصعب على رجل كصطوف أن يطلب شيئاً من أي شخص آخر، مهما كان طلبه تافهاً، وحتى لو كان ذلك من أبسط حقوقه.

أما والراتب في يده، فسيتمكن من ترك ما يريد في جيبه، وإعطاء ما تبقى منه لوالده.

إلا أن فكرة الاستقلال في السكن بعيداً عن منزل أبيه، سرعان ما قضت مضجع الرجل، فبالإضافة إلى أن بقاءه في المنزل وحده دون إخوته جعله يشعر بأنه بات عبئاً ثقيلاً على أبيه وزوجته، خصوصاً مع ضيق المنزل، فإن مقر عمله يبعد كثيراً عن بيت أبيه، لذلك وجد نفسه يفكر في استئجار منزل صغير قريباً من عمله، يستمتع فيه بوحدته..حسناً ليس وحدته تماماً ما دام رفيقه

الفرائي الأعور سيكون إلى جواره، وبأي حال هو لا يعتبر رفيقه الفرائي كائناً آخر، ولم يمانع والده عندما أخبره بنيته في السكن قريباً من مقر عمله، على العكس تماماً، فقد شجعه، وأبدى استعداده لمساعدته في البحث عن منزل مناسب، فشكره صطوف، مخبراً إياه بأنه يمكنه التصرف وحده في ذلك، ولا حاجة لأن يُتعب أحداً معه، إلا أنه في الحقيقة كان متألماً، فقد توقع أن يرفض والده خروجه ولو من باب المجاملة، وفوجئ بترحيبه السريع بالفكرة.

قضى صطوف فترة يتنقل من مكان لآخر حول عمله، باحثاً عن بيت صغير يلم شعث خيباته، يعاين تلك الشقة، وهذه، وينتقل من هنا إلى هناك برفقة رجل المكتب العقاري، وذات مرة، وعندما ذهب لمعاينة أحد البيوت لفتت نظره عربة لبيع الخضروات متوقفة في بداية الدرج المؤدي إلى القبو الذي يريد معاينته للسكن، بينما تناهت إلى سمعه أغنية " طريق النحل" التي كان يعشقها،

مما منحه إحساساً عارماً بالألفة تجاه المكان، كانت تلك العربة تخص صاحب المنزل الواقع فوق القبو الذي جاء صطوف برفقة صاحب المكتب العقاري لمعاينته، وهو رجل خمسيني يتمتع بقدر كبير من المكر والدهاء، ولا تنقصه الخسة مطلقاً، وليس من أهم صفاته طيب المعدن أو المعشر، كان الرجل يستيقظ باكراً فيدير جهاز الراديو على محطة محلية تذيع موجز الأخبار في السابعة تماماً، وبعد انتهاء الموجز تملأ فيروز الفضاء بأغنياتها العذبة المحملة بأريج الورد، وتغريد الطيور، ونسائم صيف دافئ في " ضيعة" بعيدة، فيصدح صوتها عابراً هواء الصباحات الساكنة إلى الآذان البعيدة، يكون عندها الرجل قد تناول الإفطار الذي أعدته له وحيدته السمراء سحر، فيحمل زوادة صغيرة حضرتها له الفتاة، فيها بعض الجبن والزيتون، وأحياناً أخرى بقايا الطعام المطبوخ في يوم سابق، ويقفل باب المنزل دون وحيدته، ويمضي طالباً رزقه إلى سوق الخضار، فيحمّل ما يستطيع

من خضار الموسم الطازجة، بعد نقاش مع تاجر الخضار حول السعر يربحه هو كل مرة، ويجول في الطرقات الواسعة النظيفة، مستخدماً مكره لبيع كل ما تحمله العربة.

وجد صطوف ضالته المنشودة في تلك البناية التي يقطنها صاحب عربة الخضار المركونة في مدخل القبو، فهي تبعد شارعين عن عمله، بوسعه أن يذهب ويعود ماشياً على رجليه، رغم أن ذلك شكل له معضلة في بادئ الأمر، إلا أنه علم تماماً في قرار نفسه، أن ذهابه راجلاً أو راكباً إلى العمل سيان، ففي الحالتين سيواجه وجوهاً غريبة، ونساء يضطررنه إلى إخفاء خده، والتسمر ملاصقاً لأقرب حائط يراه أمامه.

وربما كان لصوت فيروز، وهي تغني أحب أغانيه، والألفة التي خلفتها بصوتها العذب، دور في اختياره لهذا البيت، إضافة للأسباب الأخرى.

لم يكن البيت الذي وجده بيتا بالمعنى الحرفي للكلمة، كان قبواً يتكون من غرفتين تحت البناء، مع مطبخ صغير وحمام، لكنه كان بالنسبة له قصراً منيفاً، مقارنة بركنه المنزوي الذي لا يشغل غيره في منزل أبيه.

وقع صطوف عقد الإيجار جازماً أمره للمرة الأولى، دون انتظار قرار يتخذه غيره ليكون عليه أن يتبعه فقط، ولم يلبث أن نقل حاجياته بعد أن فصَّل لنفسه ولرفيقه الفرائي سريراً واسعاً عند أبي نعيم، وطاولة للطعام، وأريكة، وبعض الأغراض الضرورية الأخرى، اعتبرها أبو نعيم هدية المنزل الجديد، ومكافأة لنهاية عمل صطوف في الورشة، وأبى أن يأخذ منه قرشاً واحداً، إذ أن شعوراً لطيفاً خالجه بغتة تجاه خطوات أجيره السابق في الاستقلال والمضي قدماً في حياته وحده، لم يعرف له سبباً واضحاً، قَبِلَها صطوف وفي قلبه تتدفق مشاعر الامتنان والشكر، شاعراً أن معلمه أكرمه بأكثر مما يستحق، وعندما

وصلت قطع الأثاث تلك إلى منزله الصغير رتبها في الغرفتين كما يحب تماماً، وما أن انتهى حتى نقل حاجياته التي لا تتعدى بعض الثياب، وأكداساً من الكتب، وكائنا فرائيا أعور لا يفارقه، ولم ينسَ أن يمسح مذكرات الخيبة التي كان يخطها على حائط ركنه جيداً..لئلا تقتحمها عيون فضولية تقرأ تفاصيل حزنه.

بعدها شعر صطوف فعلاً أنه أصبح رجلاً مستقلاً، له بيته الخاص..قفصه الصغير ..مهما كانت صفته، إلا أنه لا يمكن لأحدٍ أن يقتحم خلوة أوجاعه في ذلك المكان، ولا أن يبعثر أحزانه ويذروها في وجهه دون أن يعلم سر صمت هذا الكائن المتألم المتوحد داخل نفسه.

في ليلته الأولى داخل غرفة نومه، أغلق صطوف باب المنزل الخارجي وأقفله، إلا أنه ترك باب الغرفة مفتوحاً، ذلك أنه ينتابه شيء من الوجل في الأماكن الضيقة المغلقة، فهي تذكره بالركن الذي حبسته فيه أمه لأعوام طويلة لم تنته إلا منذ

يوم واحد فقط، وأحاطته بستارة داكنة لئلا تشي بملامحه من خلفها، بينما بقي أخواه ينعمان ببقية الغرفة خارج الستارة الداكنة، وأمام ناظريها لا يغيبان عنها لحظة واحدة، وها هو يشعر بالاختناق، وتطبق الجدران من حوله على قلبه، وتعتصره من الداخل مشاعر لا تطاق كلما وجد نفسه في ركنه ذاك، أو أي مكان ضيق مغلق آخر، كما لو أن السماء تطبق على أشلائه وأنفاسه في لحظة واحدة، وربما كان ذلك نتيجة حبسه تسعة شهور كاملة، وهو ما يزال جنيناً بعد في رحم يريد لفظه في كل لحظة، إلا أنه لا يستطيع رغم محاولاته المتكررة، وبدل أن يكون ذلك الرحم محتويا له بدفء، كان يحتمل وجوده غصباً، معرضاً إياه في كل لحظة إلى تقلصات شديدة، حرمته من الشعور بالأمان الذي يشعر به الجنين عادة في رحم أمه، بأي حال مهما كان السبب، فهو يضيق بالأبواب المغلقة دونه، ولولا الحياء لما أغلق باب الحمام عليه لئلا يختنق ويشعر بضيق صدره.

ألقى جسده على سريره الواسع، وتمدد مباعداً أطرافه عن بعضها إلى أقصى ما يستطيع، كأنه يتمطى،فيتعمد بذلك أن يشغل أكبر حيز يمكنه أن يشغله بجسده دون أن يحظى بنظرات تستكثر عليه الفضاء الذي يشغله، وترك لرفيقه الفرائي مساحة واسعة أكبر بكثير من جسده الضئيل، لعله هو الآخر يرغب في شغل مساحات أكبر في فضاء الحياة.

هكذا صار له رتابة أيام رجل وحيد لا أحد يشعر بوجوده على سطح الأرض، إلا قط صغير أعور.. يبدأ نهاره بالاستيقاظ باكراً ،يغتسل ويفطر ويمضي إلى عمله إن كانت ورديته نهارية، أما إن كانت ليلية، فهو يمضي نهاره ما بين التحدث مع رفيقه الأعور بصوت مرتفع دون وجل، وتجهيز وجبة طعام سهلة التحضير، وشراء بعض الحاجيات الضرورية، وقراءة الكتب التي كانت تفيض شيئاً فشيئاً عن مكتبة صغيرة، صنعها بنفسه، وبتصميم مبتكر-عندما كان صبياً

في ورشة أبي نعيم- جعل الزبائن الذين رأوها يطلبون الشكل نفسه لمكتباتهم.

أما في العمل فكان يبدأ دوامه بالحديث مع الأموات، يسلم على هذا، ويمازح ذاك، في بداية الأمر كانت جثث الموتى تترك في داخله إحساساً بالرهبة فيتجاهلها، إلا أنه سرعان ما اعتاد الأمر يوماً بعد يوم، وألف رائحة الموت ومظهره الشاحب، فأصبح يجالس الجثث، ويتحدث معها، ويصافحها، حتى أنه في أحد المرات تجرأ على صفع أحد أولئك الأموات، صفعه بقوة بعدما أحس أنه لا يصغي إليه، أخبره أن على أحد ما فوق الأرض- غير قطه الصغير- أن يستمع إليه ، وبما أن ذلك الميت هو الوحيد الذي ليس لديه خيار آخر فإنه سوف يصغي جيداً، وجيداً جداً، سوف يصغي بكل طاقته، كان صمت الموت يشعره بالاطمئنان، لكنه يومها وبعد عودته إلى المنزل شعر بالندم، وأدمته كلمات رفيقه الفرائي عن مدى نذالته، فبكى كثيراً جراء فعلته تلك، شعر

بأنه مجرد رجل وضيع يرفع يده في وجه من لا يستطيع صدها، فوحدهم الموتى لم يكن لديهم خيارات كثيرة، تتأرجح بين الخوف والحذر من كائن متألم حد الانتقام أحياناً، يمتلك أمر جثثهم حتى إشعار آخر- إشعار بالدفن.

صطوف يصبح عريساً:

اعتاد صطوف بيته الصغير، صار مكانه المفضل وجنته الصغيرة التي يختبئ فيها من كل شيء، كما اعتاد نظام حياته الجديد، فصار عالقا بين مكانين البيت والعمل، يخرج عن دائرتهما بين الحين والآخر بزيارة لأبيه يجتمع خلالها مع أخيه سالم، وفي مصادفات أقل حدوثاً من أن تذكر مع ناجي الذي يتجنب ما استطاع العودة إلى الحارة، والمرور إلى مكتبة اعتاد شراء كتبه منها، وما عدا ذلك فليس سوى الكتب والفرائي الأعور، وسرير متسع لاحتواء خيباته المتورمة في صدره.

كان يصادف جاره صاحب عربة الخضار كلما فتح باب منزله صاعداً من قبوه الصغير، ومتجهاً إلى دوامه الصباحي، وهو رجل ضخم ، أصلع الرأس، وما تبقى من شعره يبدو بشيبه وخشونته كنتف قطن لم ترتب جيداً باغتها سواد لم تختلط به، أسمر الوجه، يلتصق رأسه برقبة ضخمة كجذع شجرة عجوز ترتكز على كتفين عريضين، و يتدلى من تحت صدره كرش كبير يضطره إلى وضع حزام بنطاله أسفلها فتبرز أكثر، لديه أذنان كبيرتان بارزتان على طرفي رأسه تذكران بمنظر ثعلب يدبر مكيدة، وفي عينيه شيء يشبه المكر يطلق منهما نظراته الحادة المتفحصة، فيترك انطباعاً بعدم الارتياح والحذر، بادره الجار بالسلام، فرد عليه سلاماً مرتبكاً بصوت منخفض، في الأيام التالية صار سلام صطوف أكثر جرأة من ذي قبل، بحيث كان بوسع الجار أن يسمعه، مما شجع الأخير على الوقوف قليلاً معه وسؤاله عن عمله وأهله، وبضع تفاصيل أخرى، أجاب عنها صطوف

باقتضاب، ودون أدنى محاولة منه لتبادل بعض التفاصيل، بينما غلب عليه الشعور بالامتعاض من الفضول الذي يبديه الرجل، لم يكد يمضي شهران على اللقاء الأول حتى دق الجار باب بيت صطوف حاملاً معه طبق من ورق العنب، أخبره بأن ابنته سحر هي من قامت بتحضيره، كان الطعام لذيذاً وساخناً تفوح رائحته فتثير شهية رجل يفتقد طعم الأطباق المنزلية، مما جعل الأخير يقبل عليه منهياً آخر حبة منه خلال دقائق قليلة بعد خروج ضيفه الذي لم يُطل زيارته، بعدها بأيام دعاه الرجل لاحتساء فنجان من القهوة في بيته، ورغم محاولته اليائسة للتهرب من تلك الزيارة إلا أن جاره أصر على استضافته، وحاصره بإصراره على استضافته، ثم سحبه من يده سحباً إلى منزله، ولأنها الزيارة الأولى التي يقوم بها صطوف فقد شعر بالخجل، يومها عرف أن جاره يكنى بأبي توفيق رغم أنه ليس لديه من الأبناء سوى فتاة واحدة، وأن ابنته في السابعة عشرة من العمر تقطن معه وحدها بعد أن ماتت

أمها، وخلال تلك الزيارة حدث ما لم يكن في حسبانه، فقد دخلت الفتاة لتقدم القهوة لهما، فانتاب الفزع صطوف كما هي عادته عند اقتراب أي امرأة من هالته الحميمة، وارتفعت وتيرة تنفسه، واصطكت ركبتاه بشدة، واندفع كفه رغماً عنه يخفي الخد المشوه، وبدأت حركته اللاإرادية المتأرجحة بين الأمام والخلف تسيطر عليه، ازدادت حركته حدة باقتراب الفتاة التي بدا على وجهها الذهول، وأصيبت بارتباك واضح نتيجة حركاته،ودون أن تتلفظ بكلمة حاولت أن تقدم له فنجان القهوة، ولم تدرك أنها السبب فيما يحدث له، حاول جاهداً أن يرفع فنجانه بيده الأخرى التي كانت ترتجف بشدة، فانسكبت القهوة على الأرض..

كان أبو توفيق يراقب الرعب الذي استولى على صطوف باستغراب شديد، لكنه لم يعلق، اكتفى بقوله " خير...سكب القهوة خير إن شاء الله"، إلا أن صطوف لم يستطع أن يتكلم بعد ذلك، ولا

هو احتسى رشفة واحدة من فنجان القهوة الثاني، الذي قدمه له الأب بديلاً عن ذلك الذي سقط، كان يشعر بالحرج، ويريد أن يركض إلى غرفته ليستعيد سكينته بعيداً عن عيون هذا الرجل ووحيدته السمراء.

يومها ضم صطوف رفيقه الفرائي بشدة، أخبره بما حصل بصوت يرتعش لتخرج حروفه مشوشة، لا يستطيع فهمها سوى ذلك الكائن الذي لا يفارقه، فما كان من الأخير إلا إن وجه اللوم إليه على تلك الزيارة التي فوجئ فيها بفتاة تقدم له القهوة، وسأله باستفزاز:" هل سألت نفسك ماذا يريد رجل مثله من مسخ مثلك؟"، تحول هذا السؤال المباغت إلى عود كبريت أضرم النار في القش المتراكم في أحشاء صطوف، فلم ينم ليلتها، كان كل شيء مربكاً بالنسبة إليه، كل شيء يحتاج إلى تفسير واضح.

في اليوم التالي سمع صطوف طرقات على الباب، وعندما فتحه وجد أبا توفيق أمامه يحمل طبقاً من

التبولة، قدمه له مخبراً إياه أنه من تحضير ابنته سحر أيضاً، لم يستطع صطوف أن يطلب منه الدخول، فقد سيطر عليه الارتباك منذ تلك الحادثة، وتوجس شراً بسبب ذلك السؤال الذي قذفه رفيقه الفرائي به في وجهه.

بعدها بأيام دعا أبو توفيق صطوف إلى فنجان قهوة آخر، وكما في المرة الأولى لم يدعْ له مجالاً للرفض، سحبه من يده كما لو كان طفلاً صغيراً، لم يكن صطوف من أولئك الأشخاص الذين يجيدون الرفض عندما يضطرون إلى شهره سلاحاً في وجه أحدهم لسبب أو لآخر، لذلك كثيراً ما قام بما يمقت فعله عندما ضلت كلمة(لا) طريقها خارج شفتيه، ولم تجدْ لها مخرجاً ولا مكاناً بين مفرداته القليلة التي يسمعها الآخرون بصوته، فأطاع جسده بينما كانت روحه تتمزق غضباً.

في هذه المرة كان في جعبة أبي توفيق مفاجأة غير متوقعة، لذلك ما أن جلس وضيفه، حتى بدأ

بالكلام دفعة واحدة، ودون أن يدعَ للضيف فرصة للرد، أخبره عن وحيدته سحر، كيف رباها طيلة تلك السنين بعد أن ماتت أمها وهي في الخامسة من عمرها، أخبره أيضاً أنها كل ما لديه في الدنيا، وأنها طيبة تجيد الطهي، والأعمال المنزلية، فقد كانت تتحمل أعباء المنزل وحدها، بعدها بدأ صوته ينخفض وهو يصل إلى أهم جزء في القصة، عندما قال بأن الفتاة تعرضت لحادث مؤلم منذ سنة، عندما طرق باب بيته في غيابه أحد العمال الذين لاحظوا وجود ابنته وحدها في نفس الوقت من كل يوم، فاغتصبها وهرب، وأنه لم يبلّغ عنه الشرطة لئلا ينتهي الأمر بفضيحة ابنته، ولإيمانه بعدم جدوى البلاغ بعدما هرب الجاني، أنهى الجار حديثه بأنه ارتاح لصطوف، وأنه يتمنى أن يزوجه ابنته دون أي شرط، هذه المرة عندما دخلت الفتاة لتقديم القهوة كان صطوف أكثر ارتباكاً من أي وقت مضى في عمره كله، كان يعاني تصدعاً حاداً في قلبه، وغلياناً في شرايينه، لم يستطع حتى أن يمد يده اليسرى

ليأخذ فنجان القهوة، حيث أن اليمنى مشغولة في وظيفتها الدائمة عندما تتواجد النساء على مقربة من صاحبها، فكيف إن كان لهذه المرأة مشروع علاقة مستقبلية خاصة به، وأنقذ أبو توفيق الموقف بحمل الفنجان ووضعه على الطاولة أمام الضيف المرتبك.

أدار أبو توفيق الحوار كما لو كان مخرجاً على خشبة مسرح ما، وفي نيته أن يحول المتفرج الوحيد المتقوقع بعيداً عن خشبة المسرح إلى بطل لتلك المسرحية ، لوّح له من خلال الحديث ما لم يفت صطوف أن يلتقطه بذكائه، فقد أخبره بطريقة ملتوية في غاية الخبث أنه كرجل يتفهم أن يكون لدى صطوف عائق جسدي يمنعه من الزواج، كانت تلك استدارة خبيثة حول الرجل، استطاع بها أن يجبر الأخير على القبول الفوري بالزواج دون إعلان واضح، هو الذي بأي حال لا يملك الرفض، ولا يعرف مكاناً لـ"لائه" المختبئة منه تحت طبقات من الخوف والشك وانعدام

تقديره لنفسه، من جهة أخرى أي رجل في الكـون بوسعه أن يعترف علـى الملأ بـأن لـديه مـا يعيقـه جسدياً عن الزواج؟ وهو إن رفض هنـا، أو تلعثـم بالموافقة أعطى إشارة لا يمكن تفسيرها إلا بـأمر واحد، لن يقبلـه رجل علـى الأرض حتى وإن كـان عـاجزا فعلاً، فكيـف يقبلـه صـطوف وهـو ليـس كذلك؟ هنـا تحديداً وجد صطوف نفسـه وقـد اعتلـى خشبة المسرح مكرهاً، وأدى الدور المطلـوب كمـا هـو متوقـع منــه تمامــاً، كمــا أنــه أدى الحــوار المفـترض الـذي كتـب بيـد الشـخص نفسـه الـذي أجبره على اعتلاء تلك الخشبة.

تلك الليلة كانت من أطول الليالي التي عاشـها منـذ أصبح جاراً لـهذا الرجل، كـان دوامـه ليليـاً، جلـس على مكتبه وهو مصاب بحالة ذهول، لم يفكر مرة واحدة في حياته في أنه قد يتقدم لإحداهن للـزواج ويصبح لـديه عائلـة، فإذا بـه يُخطب كمـا لـو كـان "عريسـا لقطـة"، أي مفارقـة هذه؟ ثـم إن البنـت صغيرة السن متوسطة الجمـال، وهو أكثر بكـثير

مما قد يحلم به كائن مثله، وهي -من جهة أخرى- تشبهه كثيراً، فهي مثله تعاني نقصاً ليس من صنعها، ولا هو بسبب ذنب اقترفته، إلا أنه بأي حال يجعل الأحلام وفرسانها الوسيمين رفاهية ليست في متناولها، مثله هي تنتمي إلى فئة المنبوذين على الأرض، أولئك الذين تنتزع منهم الحياة أحلامهم وفرصهم انتزاعاً لأنهم أقل من غيرهم، وكما قال رفيقه الفرائي مقولته ذات البعد الفلسفي ذات يوم محمل بالبؤس :" نحن كائنات خلقت دون مرآة في دواخلها، كائنات ضائعة بين الحدود الفاصلة بين الموت والحياة، نفتقد ذواتنا، ولا نرى في أنفسنا إلا التشوه الذي جعلنا كائنات مكرسة لغيرها، علينا أن نقوم بخدمات مقابل أن نحظى بصاحب، فنحن لا نملك ما يجعل غيرنا يصاحبنا دون مقابل"، إذن سيكون مكرساً لها كما ستكون مكرسة له، كائنان لا يقويان على النظر في عمق ذاتيهما لأسباب مختلفة بقدر ما هي متشابهة. في تلك الليلة كان صطوف يفتقد أكثر ما يفتقد قطه الصغير، كان يريد أن يحدثه إلا

أن ظروف العمل أجبرته على فراقه وهو في أمس الحاجة إليه.

لم يكد صطوف يصل إلى منزله صبيحة اليوم التالي حتى دقَّ أبو توفيق جرس بابه، وعندما فتح الباب اكتسحه الرجل اكتساحاً، لم يترك له مجالاً لكلمة واحدة، أخبره بأن عليه أن يأتي بأهله لطلب يد الفتاة كما هي العادة، وأنه يتمنى أن يكتم العريس سر عروسه، وأن يصطنع عدم معرفة أبي العروس بنيته في الخطبة، إلا من باب التلميح الخجول من قبل العريس قوبل بتلميح آخر من الأب بعدم الممانعة، كما بيَّن له رغبته بأن يتم الأمر دون ضجة وبأسرع وقت ممكن، برر له ذلك بكونه رجلا كبيرا ومريضا، وقد لا يمهله الوقت ليطمئن على ابنته، وبما أن صطوف رجل فقير لا يملك إلا راتبه، فلا حاجة إلى تكليفه بما لا يطيق من حفل زفاف وجهاز وغيرها، في تلك الزيارة أيضا حدد له موعداً لزيارة أهله،

وموعد عقد القران، بمدة لا تتجاوز أسبوعين كحد أقصى.

لم يكن هذا التصرف من أبي توفيق تهوراً، أو خطوة غير محسوبة، فقد أدرك الرجل الخمسيني بخبرته وبعد دراسة ومراقبة، أن رجلاً كصطوف لا ينبغي أن يُترك له أمر القرار، لأن ذلك لن يحدث، سيبقى إلى الأبد يفكر بالأمر، ويقلبه على جميع جوانبه، وقد يمتلك النية الواضحة في إبداء قراره بالموافقة أو حتى بالرفض، إلا أن الأمر سيبقى في الزوايا غير المرئية للنوايا التي لا تجد لها تصرفاً واحداً يترجمها إلى حقيقة واضحة، فالرجل لا يستطيع أن يتخذ قراراً، وعليه هو – أبو توفيق- أن يتخذ القرار نيابة عنه ويجبره على تنفيذه، حسنا ..ليس إجباراً بالمعنى الحرفي للكلمة، فبمجرد أن يشعر صطوف أن هناك قراراً يخصه قد اتخذ، وأن عليه أن يفعل هذا الأمر أو ذاك، سيمضي مباشرة إلى تنفيذ بنود القرار دون أي تردد، ذلك ما دفع أبا توفيق للقرار والتخطيط

بهذه السرعة، وإلى سحب صطوف من يده، وجره جراً إلى بيته لرؤية العروس من جهة، ولاطلاعه على قرار الزواج الذي اتخذ، وبقي عليه التنفيذ.

كان الذهول واضحاً على صطوف الذي لم ينطق بكلمة واحدة، واكتفى بهز رأسه بطريقة آلية، وعندما خرج الرجل، تمكنت الأحلام من رأسه حتى نسي أمر رفيقه، كان يخطط لأسرة هو ربها، وفكر في نفسه أنه سوف يجد ورشة نجارة قريبة من منزله، أو ربما يعود إلى ورشة أبي نعيم للعمل فيها في أسابيع الدوام الليلي، ليزيد من دخله من جهة، وليستطيع أن يؤثث بيته بيديه.

في اليوم التالي استغل صطوف دوامه الليلي، وذهب إلى أبيه، وأخبره برغبته في الزواج، فغر الأب فاه دهشة، فهو أكثر الناس علماً بأن ابنه لا يطيق اقتراباً من امرأة، وأنه يرتبك، ويتوقف عن المشي، ويلتصق بالجدار، وتعتريه حالة من الحركة البندولية المتراوحة بين الأمام والخلف،

دون أن يتمكـن مـن السـيطرة عليهـا إن اقـتربت امرأة منه صدفة، وهي تمشي في الشـارع، فكيف سيتعامل معها عندما تصبح إلى جواره فـي الـبيت والفراش.

في الحقيقـة شغل هذا الأمـر صطوف أيضـاً، إلا انــه حـاول أن يتجـاوز مخـاوفه، رغـم أنـهـا تملـك نبضــات قلبــه فــي تلـك اللحظـات، كــانت فرصــة الزواج الذي عرض عليـه شـيء كالخيـال لا يمكـن تصـديقه، ووجـد أنــه سيكون غبيـاً إن هـو أضـاع فرصة كهذه لن تأتيه مرة أخرى مهما حصل.

رجـل هـو كـأي رجـل آخـر، يحلـم بـامرأة تحتـوي أوجاعه، وبأولاد سليمين معافين يحملـون اسـمه، يحلـم بمنـزل هـانئ، وبـوجه مبتسـم يقـابله عنـد عودته مـن العمـل، مـا أجمـل أن يفتـح البـاب عن وجه يبتسم لـك بسـعادة، عن امـرأة تشـعرك بأنـهـا تنتظرك، أعادته أفكاره تلك إلى أيـام الثلاثـاء الـتي كان يركض فيهـا إلـى الـبيت، ينتظر فقط أن تفتـح الباب مهـا بابتسـامتها الرائعـة، وتلقـي عليـه تحيـة

مساء عابر، تلك الكلمات التي لا تتجاوز أصابع الكف، وابتسامتها، وصوت قدميها وهي تقترب من الباب لتفتحه، كفيلة بإسعاده أسبوعاً كاملاً لاً،كيف إذن عندما تكون زوجته بانتظاره بينما تفوح رائحة أطايب الطعام من منزله، ويحبو طفل صغير نحوه، ويرفع له وجهاً باسماً ليناديه بصوت رقيق (بابا).

ذهب ديبو، وزوجته، وسالم، و صطوف في الموعد المحدد إلى بيت أبي توفيق، وسرعان ما اعترى الجميع وجوماً قلقاً عند خروج الفتاة لتقديم القهوة، فالفتاة صبية صغيرة، علاوة عن أنها تتمتع بقدر وإن كان متوسطاً من الجمال، إلا أنه يمنحها فرصاً للزواج تتجاوز بكثير هذا الصطوف البائس، إلا أنهم ابتلعوا إشارات الاستفهام مع رشفات القهوة الساخنة، وطلبوا يد الفتاة حسب الأصول.

أدار أبو توفيق الحديث بحنكة بالغة، وبطريقة ملتوية استطاع أن يجعلهم يطلبون منه ما خطط

هو لترتيبه في هذا الزواج، حتى أنه تريث قليلاً، ولم يوافق على ما خططه هو بتلك السهولة، مبدياً امتعاضاً من السرعة الغريبة التي سيتم بها ذلك الزواج، وطلب مهلة حتى اليوم التالي ليفكر ملياً في الأمر.

كان صوت أبي توفيق يحمل نبرة هادئة متوازنة، لكنها عالية وخشنة بطبيعتها دون تكلف منه، مما جعله مسيطراً بصوته المرتفع على أي صوت آخر يمكن أن يرتفع في الصالة، وكيف لا يفعل، إذا كان أكبر الضيوف، وصاحب الكلمة العليا بينهم ديبو الوالد المكلل بالدهشة، والذي أتى ليخطب لابنه وهو غير واثق من أن ذلك الأمر سوف يحدث أصلاً، فمن تلك التي سترضى برجل مضطرب الشخصية مثل صطوف؟ علاوة عن أن ديبو أصلاً ما يزال رجلاً ضعيف الشخصية منعزلا، منعدم الطموح والخبرة، ومن ثم أتته الضربة القاضية عندما رأى العروس، فتحول من رجل غير واثق من نتائج زيارته، إلى رجل غير

فاهم لما يحدث أصلاً، ولماذا يقبل أب متزن قوي الشخصية واثق من نفسه كالرجل الجالس قبالته، بتزويج ابنته الصغيرة متوسطة الجمال من رجل فقير ومضطرب، فضلاً عن الفرق الذي يتجاوز الإحدى عشرة سنة بينه وبين العروس؟ هذا كله جعله مقتضب الحديث، متردداً حتى أنه صار يتأتئ في كلماته لشدة اضطرابه.

أما سالم فرغم ثقته العالية بنفسه، إلا انه وجد نفسه فجأة في بيت غريب يخطب صبية صغيرة، لرجل لا شيء فيه يعطيها سبباً مقنعاً لترضى به، مما منحه رفاهية دهشة علقت بحلقه فأمسك دونها لسانه، كما أنه -من جهة أخرى- كان عالقاً بين رجلين من كبار السن، أحدهما والده، مما اضطره إلى حبس لسانه احتراماً لمقام الأب، والجلوس على هامش السيرة مستمعاً بتعجب للحديث الدائر بين رجلين مسنين.

أما صطوف..فهو في أحسن أحواله رجل صامت متردد ليس بوسعه أن يتخذ قراراً وحده، كيف الحال به إذن في يوم كهذا؟

ولذلك استطاع أبو توفيق بسهولة شديدة أن يفرض شروطه كما لو أنه يخرج مسرحية للدمى المتحركة، ويوزع الأدوار، ويملي الحوار على دمى تحمل أشكالاً آدمية حقيقية، إلا أن أطرافها مقيدة بخيوط غير مرئية، يديرها الرجل كما يشاء، طارحاً بأصواتهم ونبراتهم تفاصيل حوار ساذج رتبه بذكاء شديد، كان الوحيد بين الجالسين الذي يحرك رأس هذا، أو عيني ذاك، أو لسان الثالث بخيوط خفية لا يرونها، حتى أن سالم نفسه صدق أن أباه كان يقترح التفاصيل ويقررها، بينما كان أبو توفيق يوافق عليها بطيبة نادرة، وانتهت الزيارة دون أن يشعر أحد منهم بالخيوط الخفية التي حركهم بها الرجل الماكر الذي كانوا في زيارته، وقد سقطت فوق

أطرافهم، بعد أن انتهى فصل من فصول تلك المسرحية.

أنهى ديبو زيارته هذه وهو في حالة ذهول مما جرى أمام ناظريه، إلا أنه سرعان ما برر الأمر بأنه هدية من السماء لرجل لا طعم لحياته، وأعادته تلك اللحظة إلى زمن غابر، عندما خطب زوجته الأولى، كانت صغيرة ندية يتفتح الورد في شرايينها، وتفوح رائحة الفل من ابتسامتها، وفي عينيها شيء يقاتل الحياة، وينتصر عليها، بينما كان هو رجلا يفوقها عمراً بما يتجاوز عقدا من الزمن، تفوح منه رائحة الخيبة، لما رآها للمرة الأولى، أقسم بينه وبين نفسه أن هذه لن ترضى مثله، رغم أن ملامحها قد أسرت قلبه، وبثت الدفء في أوصال أحلامه، إلا أن القدر قدم له رضاها هدية فرح لم يطق قلبه تحمل وطأتها ، وسرعان ما اصطحبها إلى بيت متواضع من غرفتين، في مدينة بعيدة عن أهلها، وهو يمشي برفق لئلا يوقظ نفسه من حلم كان يعتبره

مستحيلاً، ارتـاح لتبريره هذا، ويمم شطر داره، تاركـاً صطوف فـي حالـة لا يمكـن وصـفها، هـي مزيج من ألم وراحة، سعادة وكآبة، فرح وخوف، فـي تلـك اللحظـات كـان الخـوف- كالعـادة- أكـثر وضـوحاً وسـيطرة مـن أي شـعور آخـر يمكنـه أن يشعر به، رغم أنـه كـان ينفذ تعليمـات أبـي توفيـق بالدقـة نفسـها الـتي اعتـاد أن يقص بهـا الخشـب، ويركبه فوق بعضـه البعض، ليبدو بعدها إنجـازه عملاً في غاية الإتقان.

فـي اليـوم التـالي لـم يكـن رد أبـي توفيـق مفـاجئاً لصطوف على الأقل، فقد وافق علـى أن يتم عقد القـران فـي الأسـبوع القـادم، وبعـد عقـد القـران بأسـبوع بإمكـانه أن يأخـذ عروسـه إلـى منزلـه، موضحاً أنه لولا إحساسه بطيب معدن تلك العائلـة وابنها، لما رضي أبداً بزواج كهذا، وأنـه لا حاجـة لحفـل بالنسـبة إليـه، فهـو وابنتـه غريبـان فـي المدينة، لا أقارب لهما، ولا أصدقاء.

فرحة لم تكتمل:

في ذلك اليوم قدم صطوف طلب إجازة من العمل لمدة شهر، كانت تلك هي المرة الأولى التي يطلب فيها إجازة، ولم يكن هناك ما يمنع من الموافقة عليها.

وسرعان ما ذهب صطوف إلى ورشة أبي نعيم -وسط دهشة الأخير وفرح دافئ غزا قلبه بعرس أجيره- ليفصل خزانة صغيرة من أجل عروسه، بدأ يصمم لها شكلاً مختلفاً، ويعمل بها والأحلام تأخذه إلى كل اتجاه، فتصبح كوابيس تقتل في صدره الفرح حيناً، وأحلاما وردية تفوح منها رائحة الياسمين التي افتقدها سنين حيناً آخر.

قبيل يوم الزفاف بأسبوع كما جرى الاتفاق، ذهب أبو توفيق، وابنته، وصطوف، وأبوه، وأخوه سالم إلى المحكمة لعقد القران، بينما اعتذر ناجي عن الحضور بسبب انشغاله في العيادة، وجرى عقد القران بهدوء، ودون احتفالية واضحة، لم

يبدُ على وجه العروس أي انفعال يشير من قريب أو من بعيد إلى أنها قبلت بصطوف زوجاً، أو حتى رفضته، كانت تمشي بآلية ودون اكتراث، كأنما هو عقد قران فتاة أخرى لا تمت إليها بصلة من قريب ولا من بعيد.

ورغم تحفظ عائلة صطوف على ذلك الوجه الخالي من أي تعبير، إلا أنهم أكملوا الإجراءات كما ينبغي تماماً دون أدنى صوت يشير إلى امتعاضهم، هم الذين ما استفاقوا من دهشتهم حتى تلك اللحظة.

بعدها كان صطوف قد انتهى من تصميم خزانة للعروس، ومكتبة صغيرة أخرى يمكنها أن تقترن بمكتبته الصغيرة القديمة، فيلملم بها شعث أكوام الكتب المتكدسة دون ترتيب في بيته، وكرسيين إضافيين للجلوس عليهما وقت الطعام، كما أنه اشترى جهاز تلفاز صغيرا، وبعض أدوات المطبخ من قدور وأكواب وصحون وملاعق، وبدأ يرتب منزله استعداداً لاستقبال عروسه.

تعود صطوف خلال عمره كله على رتابة الأيام، وكانت تلك هي المرة الأولى التي تخرج مجريات حياته عن جدولها المعتاد، كان يشعر بشيء مختلف، بقدر ما هو مخيف هو لذيذ أيضاً، ذلك الترقب لحدث هام في الحياة يمنحها نكهة خاصة، ربما تحمل القلق، إلا أنها تحمل احتمالات مفتوحة للفرح والرضا أيضاً.

كان يمني نفسه بأن هذه الصبية الصغيرة ستخلصه من مأساة خوفه المرضي من النساء، أنها ستعوده كيف يقترب منهن، ويقتربن منه، دون أن يُقتل في قلبه كل لحظة شيء آخر لا يستطيع تحديد ماهيته، سوف يفتح معها صفحة جديدة من عمره، يعقد فيها معاهدة صلح مع نفسه،وملامحه، ومع الجنس المخيف..الذي سوف يصبح في نظره أخيراً جنساً لطيفاً، يكفي أن تقبل به امرأة واحدة في العالم ليتصالح مع خوفه، يكفي أن تحبه امرأة واحدة ليحب نفسه بما يكفي ليتابع حياته ببعض السكينة والرضا،

يكفي أن تشعر به امرأة واحدة ليشعر بالأمان وقد غـزا قلبــه..وها هـي قـد أتـت تحمـل فـي جعبتهـا معجــزة..معجزة شـفائه مـن الخـوف الـذي احتـل شرايين الفرح في حياته منذ عرف أن أمه امرأة.

كـان مـن المقـرر ألا ترتـدي العـروس ثـوب زفـاف أبيض، طالما أنه لن يكون هنـاك احتفـال، وبـالطبع كـان هـذا أمـرا مريحـا لصـطوف ليـس مـن أجـل مصاريف العرس وحدها، بل من أجل وجه لا يريد أن يواجه بـه النـاس فـي حفـل سيكون هو نجمـه، وعروسـه الصـغيرة شمسـه السـاطعة، لكن سـالماً لم يرضَ لأخيه أن يمر زواجه المعجزة دون أدنـى أثر، فأحضر ثـوب عرس زوجتـه للعروس، وبـزة رسـمية اشـتراها خصيصـاً للعريـس، وزيـن بيـت صطوف، وجلب له قالباً من الحلوى يليق بعرس صغير بلونه الأبيض ومنحوتة صغيرة على شكل عروسين تتوج بياضه.

وفي اليوم المحدد اجتمعت العائلتـان في بيـت أبـي توفيـق، وتعرف أبـو توفيـق للمـرة الأولـى علـى

ناجي، الذي أتى وحده دون زوجته، متحججاً بانشغالها في العيادة، وارتدت العروس ثوب الزفاف الأبيض، كان سالم يحمل آلة التصوير، ويصور بعض تفاصيل العرس، متعمداً أن يشعر أخاه بأنه يتجنب تخليد ذكرياته بصورة يظهر فيها وجهه رغم أنه العريس في ذلك اليوم، وصطوف مرتاح تماما لتجنيبه العين الفضولية لعدسة التصوير، ففي تلك اللحظات بدأ يختلس النظر إلى الثوب الأبيض الذي تعمد القدر أن يبرز سخريته من خلاله، فهو ثوب زفاف حبيبته، ترتديه الآن امرأة أخرى سوف تصبح زوجته.

بعد قليل انتهت المراسم المتواضعة لعريسين يحملان في قلبيهما من الأسى ما يحملانه، وصعدا إلى بيتهما، بينما غادر بقية الحاضرين كل إلى منزله، عائدين إلى أيام متشابهة لا جديد فيها، كان عرس صطوف مفاجأتها الكبرى.

دخل صطوف وعروسه المنزل، كان مرتبكاً حتى أن بوسع دقات قلبه أن توقظ سكان الحي بأكمله،

يرتجف بينه وبين نفسه، أما العروس فقد شعرت في أعماقها بأنها سجنت في قفص مع قرد بغيض، لم تنظر إليه، ولا هو نظر إليها، كانا يتحاشيان النظر في وجهي بعضهما لئلا تلتقي العيون، ورغم أن كل منهما كان له أسبابه التي لا تشبه أسباب الآخر في شيء، إلا أن الدوافع المختلفة تمخضت عن سلوك متشابه تماماً حد التطابق.

سرعان ما جلست سحر على الأريكة التي تعتبر نسبة إلى مكان توضعها أقرب الأثاث إلى الباب، كأنما هي تستعد لتغادر، أما صطوف فقد دخل إلى غرفة النوم، حاول أن يجبر نفسه على العودة للعروس، ودعوتها إلى غرفة النوم، إلا أنه لم يستطع، كان ارتباكه قاتلاً في ذلك الوقت، وأنفاسه تتصاعد بشكل مخيف، وأعضاؤه ترتجف، كل ما فيه مضطرب، حتى أن ظهورها أمامه في تلك اللحظات كان كفيلا بقتله خوفاً.

جلس صطوف على حافة سريره محاولاً أن يقنع نفسه بإبداء أي تصرف يظهر ترحيبه بوجود العروس، إلا أنه لم يفلح، بينما جلست هي على حافة الأريكة تفكر في الحياة مع رجل كهذا، كان بوسعها أن تبكي حتى تغرق الكون ببحر من الدموع، إلا أنها لم تفعل، فقد جفت دموعها منذ زمن بعيد، وصار لديها مناعة مزيفة من البكاء، إذ كان كل شيء فيها يبكي، إلا عينيها.

لم ينم صطوف تلك الليلة، ولا زوجته فعلت، كما أن أحداً منهما لم يقترب خطوة من الآخر، كلاهما التزم حافة تحميه من الغربة الشرسة التي هاجمته فجأة، فظل هو جالساً حتى الصباح على حافة السرير، بعد أن خلع البدلة الرسمية التي كان يرتديها، أما هي فقد تسمرت على حافة الأريكة بفستان العرس الأبيض، وكأنما إدمان الحواف قد هاجمهما بشكل شرس في تلك الليلة، فقضوا ساعاتها يشبعون نهماً خفياً لانتحال حوافٍ تسير بعيداً عن براكين المواجهة.

صبيحة اليوم التالي طرق أبو توفيق الباب، فهربت ابنته دون شعور منها إلى غرفة النوم، تعجب صطوف من هروبها، هو الذي توقع منها أن تفتح الباب لأبيها مرحبة لتلوذ به من غربتها، ومن تفاصيل ليلة قضتها بثوب الفرح على أريكة خارج حدود غرفة النوم كما هو غير متوقع، وعزا تصرفها إلى حياء أنثوي ألمَّ بها، خرج صطوف واستقبل الرجل مرحباً، كان الأب يحمل بين يديه صينية، وضع فيها ثلاثة أطباق تحمل قطعاً من الحلوى التي تبقت من حفل الزفاف، وثلاثة أكواب من الشاي، وأخبره أنه أراد أن يشرب شاي الصباح معهما ليطمئن عليهما.

كان أبو توفيق يعلم تماماً أنه لم يقطع خلوة عريسين في صباحيتهما، وأنهما على الأغلب لم يتبادلا حتى حديثاً يذكر، لذلك اقتحم صباحهما دون أدنى شعور بالخجل، فقد بات متيقناً أن صطوف رجل عاجز لا حاجة به للنساء، وسرعان ما خلعت الفتاة ثوب العرس، وارتدت

ثوباً آخر، وخرجت للجلوس مع رجلين تكرههما في أعماقها، وتتمنى لهما الموت في لحظة واحدة، لتتنفس هواء الحرية.

جلس الرجل قرابة ساعة يحاول قطع حبل الصمت العالق في أجواء الغرفة، إلا أن الوجوم كان واضحاً عليهما، فتركهما ومضى إلى منزله.

حملت الفتاة فناجي القهوة والأطباق، ومضت بها بصمت إلى المطبخ حيث غسلتهما، وجففتهما، وأعادتهما إلى مكانهما، وحضرت فطوراً لزوجها، ووضعته أمامه، نظر إليها صطوف واقترب منها بخطوات مترددة بين الإقدام والإحجام، محاولاً إظهار ما يمكن أن تترجمه المرأة تودداً، إلا أنها تركته ليأكل وحده، وهربت مرة أخرى إلى المطبخ، لم يكن صطوف جائعاً إلا أنه اعتقد أنها رتبت الفطور لتكسر الصمت العالق بينهما، فأسرع مبدياً حسن نيته، إلا أنه عندما رآها تهرب إلى المطبخ، عاف الطعام، وقفل عائداً إلى غرفة النوم.

مر اليوم الأول على هذا الحال، وفي اليوم الثاني كان عليهما أن يلبيا دعوة أبيه على الغداء، فارتديا ثيابهما، وخرجا معاً دون صوت، إلا أن وجودهما بين بقية أفراد العائلة، أجبرهما على كسر الصمت العالق بينهما، خصوصاً مع التعليقات المرحة التي كانت تستهدف عريسين غريبين...لا أحد يدرك مقدار الغربة العالقة بينهما.

في الليلة الثانية كان بوسع صطوف أن ينظر قليلاً، ودون تمعن في وجه زوجته، وأن يناديها، وبوسعه أيضاً أن يترك لها مكاناً إلى جواره في السرير علها تنام جانبه، إلا أنها لم تأتِ ليلتها أيضاً، واستلقت عوضاً عن ذلك على الأريكة نفسها قرب الباب، كأنما هي في قرار نفسها قد حزمت أمرها على الهروب من شيء ما عبر ذلك الباب الذي تلتصق به.

وفي اليوم الثالث لبيا دعوة الغداء في بيت سالم، وفي جو مشتعل بالود والدفء، استطاع صطوف

أن يبتسم رغم كل ما يعتمل في دواخله من أحاسيس متناقضة، كما تحدثت زوجته قليلاً فسمع صوتها جيداً، كانت مها تتحدث إليها، وتسألها، وتجرها جراً إلى الحديث، ولم يبقَ هناك حيلة في يد الفتاة إلا مجاراة مها، ومبادلتها بعض الأحاديث الجانبية، مما أجبرها بعد قليل على التحدث مع زوجها، وتقديم كوب الشاي له، وطبق الحلوى، وأتاح له أن يتخلص من شيء قليل من الغربة التي تعتريه إزاءها، مدركاً في قرار نفسه أن عليه هذه المرة أن يملك زمام المبادرة، فالمبادرة منوطة بالرجل عندما يتعلق الأمر بامرأة، عالماً أنها لن تقترب خطوة واحدة ما لم يفعل هو، ففي النهاية ليس لديه ما يغريها بالاقتراب.

في ذلك اليوم انتبه صطوف أيضا إلى أمر بدا غريباً جداً، حشد في قلبه الكثير من التساؤلات، فالكدمات تلون ذراعي زوجته بشكل مثير للانتباه، ورغم أن تلك الكدمات الحمراء الصغيرة

المتقاربة على ذراعيها أثارت فضوله، إلا أنه لم يكن في ظرف أو وقت يتيح له سؤالها عن سببها، فتجاهل الأمر محاولاً التركيز في الأمر الأكثر أهمية،علاقته بها، وانتهت الزيارة في ذلك اليوم ، وقد ذاب شيء من الجليد الذي يسورهما.

تعود أبو توفيق أن يدق الباب صباحاً بحجة أو بأخرى، ليشاركهم أحياناً فنجان قهوة الصباح الذي تفوح منه رائحة الغربة، وفي بعض الأيام كان يأتي مساء أيضا كفنجان قهوة آخر له طعم المساءات الحزينة، لم يحتجْ صطوف إلى الكثير من الذكاء ليدرك أن ثمة هوة عميقة بين أبي توفيق، وبين ابنته سحر، التي ما أن تسمع طرقاته على الباب حتى تركض إلى غرفة النوم لتختبئ فيها، ولا تخرج منها إلا بعد أن يناديها أبوها مرات عدة، فمن الواضح أنها تتعمد أن تتجاهله، وأن عينيها يصبان عليه وابلاً من الكره والعدائية كلما اضطرت إلى النظر إليه، وهي قلما تفعل ذلك، ذلك أنها تتجنب النظر إليه، والجلوس

معه، ومبادلته أي حديث ما لـم يضطرها إلـى فعل ذلك، تأكد لصطوف ذلك عندما طلب أبوها منها يومـاً أن تنـزل إلـى بيتـه لـترتيب بعض الأمـور، فتحججت بأن صطوف يريد منها أن تطبخ وتكوي لـه في ذلك الوقت، يومها ظهر الاستغراب على وجه الأخير إلا أنـه لـم يتكلم، وإن تكلمت ملامحه بلون الدهشة التي صبغت وجهه.

وهكذا مرت عشرة أيام زادت الكلمات فيها بينهما تدريجياً، إلا أن الجدار الحـائل بينهمـا بدا سميكاً، بحيـث أنـه لـم يكـن مـن السـهل أن يثقبـه ليتسـلل نورهـا إلـى قلبـه، رغـم أنــه عمـل جاهـداً علـى إزالتـه ..لكنـه لـم يفلـح، إلا أنـه اكتشـف فـي تلـك الأيام، وبينما كان يراقبهـا سـراً وجد أنـهـا تتسـبب لنفسها بطريقة أو بأخرى كل مرة تـدخل فيهـا إلـى المطبخ بكدمة، لكنه لم يجد سبباً منطقياً لذلك.

فـي الليلـة التاليـة، اسـتطاع أن يشـحذ جرأتـه ويقـترب مـن أريكتهـا ليلاً، جلـس إلـى جوارهـا، وبادرهـا الحـديث بعد أن حضر لـه ليـالٍ قـائلاً: لا

تخافي مني أنا أعلم ما حصل معك، فنظرت إليه نظرة أشعَّ فيها من الألم ما جعله يشيح بوجهه وقالت له: أنت لا تعلم شيئاً.

-بلى ..أبوك أخبرني بكل شيء.

- أخبرك عن القصة الغبية لعامل دخل إلى المنزل عنوة و......وأشاحت بوجهها بعيداً تواري دمعة هاربة من عينها عن أنظاره.

-نعم..أخبرني بذلك.

-تلك كذبة غبية ..لعلك صدقتها؟

.......بدت على وجه صطوف علامات استفهام لم يترجمها إلى كلمات.

-القصة أكبر من ذلك بكثير.

-أخبريني بها، بإمكاني أن أساعدك مهما كان الأمر قاسياً.

-لا ليس بإمكانك أن تساعدني، وما اختارك أبي لتزويجي منك إلا لأنه يدرك ذلك تماماً.

شعر صطوف بالخيبة، وهو يقرأ بين كلماتها استهانة به..لكنه سرعان ما أضاف:

-هل هو رجل آخر أحببته وتركت نفسك له؟ صدقيني أستطيع أن أفهم مشاعرك، أعرف سطوة الحب فلا تخشي شيئاً.

احتقن وجه سحر بشكل مثير للانتباه، وبدا أن عروق رقبتها انتفخت حتى أنها قد تنفجر في أي لحظة لشدة الغضب المتواري خلف قسماتها، عندما قالت:

- وهل تعرف سطوة الكره؟

-..............

بدأ صطوف يقلب كلماتها في رأسه دون أن يفهم شيئاً، فاستدركت بينما كانت دمعة ساخنة تخرج

عنوة من عينها اليمنى، وهي تحاول أن تلملم شعث أوجاعها لئلا تنفجر باكية.

- هل تعرف ما معنى أن تكون يتيماً وحيداً معلقاً كسؤال غبي على لهاة الحياة، والشخص الوحيد المعني بأمر حمايتك ورعايتك، هو من يقوم بقتلك كل يوم ألف مرة؟.

امتقع وجه صطوف وجحظت عيناه وصرخ وهو غير مصدق: ماذا؟

-نعم هذه هي الحقيقة، أبي لم يتزوج بعد أمي إلا لأنه اعتبر أن جسدي ملكية خاصة به، بإمكانه أن يفرغ فيه قذاراته كيفما شاء...

هاجمتها دمعة أخرى فأدارت رأسها إلى حيث يمكنها مواراة دمعتها دون أن يراها صطوف جيداً ثم تابعت:

بدأ ذلك الطقس القذر في يوم ما عندما كان يغسلني، كنت أصغر من أن أفهم ما يحدث، لكنني شعرت بأن أصابعه لم تكن أصابع أب، كان فيها

شـيء فـي منتهى القذارة، وصـار الحمـام عقوبـة تتكـرر مـرات فـي الأسـبوع الواحـد دون ذنـب اقترفته، كنت أشعر بالقذارة لكننـي لا أستطيع أن أفعل شيئاً، خاصة وأنه سافر بي بعيداً عن خـالتي التي كان بإمكانها أن توقفه عند حده.

- لا أصدق ..هذا غير معقول...أبوك؟؟!!

- نعم أبي..هـل تصدق ذلـك؟ هل هنـاك علـى الأرض مـن يصـدق؟ كنـت أكـبر كـل يـوم، وأدرك أكـثر مـدى بشـاعة مـا يصـنعه بـي، وأعزم على قتله في كل مـرة إن هو اقترب منـي، إلا أن الجـرأة تخـونني فـي كـل مـرة، بعدها عندما كبرت قليلاً، وبدأ جسدي يأخذ منحنيـات النسـاء وتكـوراتهن، صـارت طقوسه أكثر قذارة وأكثر عمقـاً، بل وأكثر تكـراراً، عنـدها أخرجنـي مـن المدرسـة وفـرض علـي حصـاراً قـاتلا بيـن جـدران المنزل.

- يا إلهي!! أيها العجوز القذر..سأقتلك.

- ثم في ليلة مشؤومة خرج أبي مساء ليعود سكراناً، تلك الليلة دخل علي وأنا نائمة، واغتصبني بكل ما تعنيه الكلمة من معنى... تماماً كما لو كنت زوجته، عندما استفاق من سكرته، وأدرك ما فعله بي، بحث عن حل يخرجه من هذا المأزق..وصادف انتقالك إلى هنا أثناء بحثه، فكنت أنت الحل المفترض.

امتقع وجه صطوف، وبدا أنه استغرق في أحزان الفتاة حتى نسي أمر اضطرابه بسبب وجودها، سألها مستغرباً:

- لماذا لم تهربي؟

- كيف أهرب؟ فكرت مراراً بالهرب إلى خالتي، فهي تقيم في حمص، ولن يصعب علي الوصول إليها، إلا أنه لم يترك لي الباب مفتوحاً يوماً واحداً لأهرب من

المستنقع الذي أغرقني فيه، كان يقفل الباب عد خروجه، ويقفله وهو نائم ، و يحاصرني جيداً من كل الاتجاهات، مغلقاً في وجهي أيّ طريق قد أفكر فيه..حتى أنه لم يجلب لنا خطاً هاتفياً لئلا أتصل بخالتي..أو بأي شخص آخر.

- لا تخافي منه لن يجرؤ على الاقتراب منك بعد اليوم.

- ومن قال لك ذلك؟ لم يأتِ اختيار أبي لك من قبيل الصدفة كما تعتقد، أبي رجل خبيث وماكر، هو ما انتقاك إلا لأنك تسكن تحت منزله، وبك من الخجل ما يمكنه من خداعك.

كان صطوف يشعر بالإحراج جراء كلماتها الجارحة، إلا أنه كان أكثر عطفاً في تلك اللحظات من أن يسمح لنفسه بالانسحاب إلى داخله، وافتعال الصمت المطبق.

أكملت سحر: أرجو منك أن تأخذني إلى خـالتي وتتركني عندها، لا أريـد أن أرى لـه وجهـاً بعد اليوم.

- قلت لك لن أسمح له بالاقتراب منك.

- هـل تسـتطيع أن تقـف فـي وجهــه غـداً، وتطـرده مـن المنـزل؟ قـل لـي إنـك تستطيع ذلـــك..أرجوك..قل لــي إنــك تســتطيع أن تواجهه بقذارته، وتخبره أنـه لا يمكن لـه أن يرانــي بعـد اليــوم..قل لــي إنــه بإمكانـك أن تقتله إن هو هاجمني في غيابك، قل لي إنك تستطيع أن تقول له ألا يأتي إلى هنا إلا فـي حضورك، وأنك لن تسمح لـه بإرغامي على النزول إلى بيته..قل لي إنني سأستيقظ مـن هـــذا الكـــابوس أخيـــراً، وســـأعطيك عمري..سأهبك كل ما تريد.

عند هذا الحد كانت سحر قد غرقت في بكاء أليم، بدأت تختلج بفعل زفرات الألم الخارجة من صدرها كما لو أنها شهقات موت آتٍ عما قليل، بينما صمت صطوف وقلبه ينزف، بدا موجوعاً حد الانصهار، إلا أنه لم يستطع أن يحدد أي مقطع من حديثها آلمه أكثر من غيره، أهو الأب الغادر؟ أم كلامها عن اختياره له بسبب ضعف شخصيته؟ أم إحساسه بعدم ثقتها به المتساقط من كل حرف وكلمة وجملة تخصه نطقت بها؟ أم شكه في قدرته على الوقوف في وجه الرجل وطرده شر طردة من البيت؟.

تلك الليلة بينما بدأ ود خجول يتسلل لقلب الفتاة بعد أن كُسر حاجز الصمت العالق بينها وبين زوجها، انسحب صطوف إلى غرفة النوم مجروحاً، متألماً، متعاطفاً...وحزيناً حد ثمالة القلب بخيبات معتقة.

تركها بعد أن شعر بمدى عجزه عن الاقتراب منها، عن عناقها وإشعارها بحمايته لها، عن شدها من يدها لتشاركه أوجاعه وسريرا مغسولا بدموع الألم، لم تنمْ هي ولا هو فعل، كانت تبكي بصمت على الأريكة، بينما هو ينتحب فوق سريره، ناجاها دون صوت متمنياً أن تسمع ما يقوله..أن تقرأه في عينيه، أن تشعر به وهو يكتوي بجراحها وجراحه، بعد قليل خرج إليها محاولاً أن يستكمل حديثه معها، فتظاهرت بالنوم، فهي لا تريد في تلك اللحظات إلا الانكفاء على جرحها النازف وحدها، ولم ترد أن تشارك أحداً أوجاعها ، جلس على طرف الأريكة ووضع كفه فوق رأسها، ومسح على شعرها بحنان غريب تملكه بعد أن عاين دموع الوجع التي انسكبت من عينيها، بعد قليل بدأ يكلمها والدموع تنفر من عينيه فيمسحها بكفه، ويختلج صدره وهو يغص بدموع تطفر غصباً عنه، دون أن ينتبه

إلى أنها كانت تسمع كل كلمة يقولها وتشعر بوجوده إلى جانبها، ناجاها قائلاً:

مسكينة أنت يا زوجتي.. واسمحي لي أن أستخدم حقي القانوني في مناداتك..فهو الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أحظى به فيما يخصنا.

مثلي أنت تماماً..

مشوهة..تفتقدين مرآة داخلية تعكس صورتك، ولأنك لا تملكين تلك المرآة، فقد اكتفيت برؤية انعكاس صورتك في عيون غادرة..في مرايا مهشمة لا تعكس إلا صوراً ناقصة لما تراه.

تفتقدين لذاتٍ لا تعرفين كيفية التواصل معها.

مثلي أنت تحملين نتوءات تخجلين منها..تحاولين إخفاءها.

إلا أن تلك النتوءات لا تظهر على السطح كما هي لدي، ولا حاجة لديك لترفعي كفك كل مرة لمواراة ضوء غادر يلتمع في عيون فضولية بشكل وقح.

أورامــك تختــبئ وراء وجــه يحــاول ألا يبــوح بأسراره.

لكنك سرعان ما تضعينها في مواجهة أي شـخص يقترب منك..أي رجل..كما فعلت معي.

في ظروف غير هذه..ظروف مثاليـة كـان يجب أن تتعشق نتوءاتنـا بعضـها ببعض فنلتحم بجراحنـا، ونواسي بعضنا.

إلا أن ذلـك لا يحـدث إلا فـي ظـروف مثاليـة ..وفـي ظروف مثالية كان الأولى ألا نحمل جراحنـا ...وألا يكون لدينا جراح أصلا.

أما في ظروفنا نحـن، فكـانت النتـوء مقابـل النتـوء تماماً حد الاحتكاك المؤلم، فخدشنا بعضنا.

هل خطر في بالك أنني متخن بـالجراح، وأننـي لـم أتوقف عن النزف منذ ولدت؟

هـل خطـر فــي بالــك أنــه لا مكــان لــدي لجــرح آخر،نزيف آخر؟

لا ..لا أظن ذلك فقد كنت مشغولة بأوجاعك حتى العظم..كما كنت أنا، ولم يخطر في بال أحدنا أن الآخر لا ينتظر جرحاً..وربما لا ينتظر شيئاً.

غريب أن أواجه وجهي الآخر فيك! أن أواجه ذاتي بملامح امرأة..

أنا الذي أتقنت الخوف حتى ارتداني ثوباً، وارتديته حذاء ليسير بحياتي كيف يشاء، ويبعثرني بخوفي من كل امرأة تمر إلى جانبي، أو أقع على مرمى نظر منها.كانت لعنة حضورها تبعثر بقية أشلائي على منعطفات الشك، وتمزق بقية كبرياء رجل لا أدري كيف كان لها أن تبقى داخلي.

رسمتها في ذاكرة الوجع كائناً مخيفاً بمخالب حادة، وأنياب مفترسة..كائناً يتوق إلى الدم، ويحتفي بالجراح التي يسببها لمخلوق آخر يحمل ملامح تشبهني تماماً عندما تكون المرايا مهشمة.

وإذا بك تباغتين منصة الغياب التي رتبتها جيداً بظهورك لتقفي في مركز الضوء..هل حلمت بأن تقفي في ذلك المكان يوماً؟! أنت التي تتقنين الاختباء جيداً..أنت التي تدمنين الغياب، وتخشين الحضور..أكنتِ ساعتئذ فرحاً ألمّ بأفق حياتي في ساعة باركتها السماء، أم حزناً آخر عليه أن يرتدي قدري؟..خوفاً أم أمناً؟..لا أدري فقد كنت مشغولاً حد الثمالة بخوفي حتى نسيت أن أشعر بشيء آخر، فأضعتُ في غمرة الخوف وميض الفرح وبهجة الظهور الأول ..هل أضعتها فعلاً؟ كيف لي أن أضيع شيئاً لم أملكه يوماً..لم أعرفه؟؟.

عندما لمحتك كان بإمكاني أن أرى شخصاً يحتضر.

بوسعي أيضاً أن أشم رائحة الدخان الكثيف المنبعثة من الحرائق التي تشتعل في شرايينك.

كنـت أنظـر إلـى وجهـك، وأنـت تتحـدثين عـن أوجاعك فأرى ملامحي ترتسم فوقه..أرى التشوه على وجهي وقد ارتسم على وجهك كما لو صرتِ مرآتي، وأصبحت أنا مرآتك، نحن أرواح يعتريها خوف فاسق فتضيق بنا الأمكنة ونتوارى خلف قسماتنا.

امرأة تخاف الرجال وتنكمش عندما تعلق في دائرة لعنة حضورهم..تتزوج من رجل يخشى النساء..ويحترف الالتصاق بالهوامش لئلا تراه النساء..أي سخرية خبأها لنا القدر هدية زفاف غير متوقعة؟!ليجمعنا زوجين بأربعة احتمالات..كل واحد منا كان يرى نفسه مظلوماً، ويرى الآخر ظالماً.

إذن كنا أربعاً نجتمع في منزل لا يتسع لاثنين..

كنا ظالمَيْن ومظلومَيْن..كل واحد منا حمل الشيء ونقيضه في الزاوية الضيقة نفسها التي لا تتسع لشهيق وزفير ساعة ضيق.

أي مفارقة أن تكون النساء اللواتي خفتهن وتجنبتهن كن يحملن ملامح أمي، يرتدين صوتها وصورتها، لأختنق بها حيثما رأيتهن، بينما كان الرجال في عينيك بصورة أبيك فكانوا طعنة في خاصرتك أينما حضروا.

لا أدري بأي الكلمات أواسي جراحك؟ كيف لي أن أخبرك بأنني أقدم لك أنفاسي لترفعي أشرعتك وتسافري إلى حيث المدى أوسع، والأفق يسير إلى ما لا نهاية..إلى حيث تصبح أوجاعك كرمة عنب تعتقين منها ما شئت، وترمين ما شئت .

أنني أمد جسدي لك جسراً لتعبري به إلى حيث الأمان...فلا تخافيه.

ثقي بحمايتي ولن أخذلك يوماً..

أنا لا أخاف الرجال حتى لو ظن أبوك بي الضعف، فعهد بك إلي لتظلي تحت مرمى قذاراته، يطالك بها متى شاء..أنا لا أخشى إلا النساء.

سأقتص لك منه..سأهرب بك إلى آخر العالم..إلى مكان لا يستطيع فيه أن ينال منك بأصابعه الآثمة، وسوف تعيدين ترتيب أبجدية حياتك بعيداً عن قذارته.

سأكون لك قلباً واسعاً تدفنين فيه أوجاعك، وتهيلين عليها تراب النسيان..وسأخفي ذلك القبر حتى عنك، وأتركه دون شاهدة لئلا تفجعك ذاكرة الوجع بتفاصيل واريتها تحت التراب.

سأكون فارسك وحصانك..وأعيد إليك ما سرق من طفولة عينيك.

سأداوي جرحك بألف طريقة وطريقة...لكن أعطني فرصة، اقتربي مني قليلاً ليبرد خوفي، اقتربي مني ليشع دفؤك في حنايا قلبي.

اقتربي لكي يكون للأنثى معنى آخر في ذاكرتي، لأمزق بعضاً من تلك الذاكرة الحمقاء علني أتخلص من غيها، وأفتح صفحة جديدة أتصالح فيها مع نفسي..مع أورامي...مع رائحتي،

وملامح وجهي..لأتصالح مع الأنثى فأرى وجهي بمرآة عينيها.

دعيني أرسم للأنثى وجهاً آخر في ذاكرتي، دعيني أعطيها بُعداً آخر غير الغياب المتعمد، والحضور المدمر.

يخطر في بالي أن الذاكرة تصبح لعنة في بعض الأحيان، وأن فقدانها قد يصبح نعمة فلماذا لا أستطيع أن أفقد ذاكرتي ولو ليوم واحد؟

لا تقلقي سيدتي فلن أجبرك على النظر في وجهي..ولا على ملامستي، سأضع بيننا مخدة إن رضيت بالنوم في سريري، كبير هو سريري ويتسع لكائنين تورم قلباهما بالخيبة، وتشققا عطشاً.

هل تخافين القطط؟

سألقي برفيقي الفرائي الأعور خارج المنزل إن كان يخيفك فمن له حاجة به إن كنتِ تملئين القلب حضوراً؟

سأفعل كل ما من شأنه أن يشعرك بالاطمئنان...وسأعلم أنني سأستيقظ يوماً لأجدك تنامين في قلبي ملء جفونك.

سأتركك تقررين متى وكيف؟

فقط اتركي لي الباب موارباً، لأعلم أنك قد تمدين يدك لي يوماً..اتركي الباب موارباً ففي داخلي رجل يتعذب مثلك تماماً.

في داخلي رجل علّق تميمة الغياب، وأدمن العيش على الحواف الخالية من كل شيء... كما أنت تماماً.

في داخلي رجل أدمن الخواء، حتى أسكنه حنايا قلب نازف، فأورق في شرايينه خيبات كثيرة بدمامل لا تشفى. كما أنت.

فأنا أشبهك تماماً سيدتي..إلا أن التشوه لدي مرئي..وعندك مختبئ خلف وجه يعلن حياديته إزاء كل شيء، فتفضحه عيناه وهي تعلن حالة

دفاع نادرة..تنبئ بخوف مزمن مستعصٍ على الفهم.

تحبين الهوامش أنت مثلي تماماً، فادخلي هوامشي لتصبح واسعة بعرض الحياة، وتكتسح كل شيء في طريقها، دعينا نتحد في وجه أوجاعنا..في وجه أمي وأبيك.

دعينا نتحد لنستطيع أن نقول لا لمرة واحدة .

دعيني أتوسد حزنك، وأسرجي فتيل الوقت لنستلقي على ضفاف الضوء لمرة واحدة، ونترك العتمة خلفنا.

دعينا نملأ الخواء حضوراً، ونفاجئهم ذات شمس بأننا نقف هناك على قارعة الوجع دون خوف، وأن عليهم أن يرونا جيداً..ملء قلوبهم.

لا تشيحي بوجهك عني..فهذه هي المرة الأولى التي أنظر فيها إلى امرأة دون خوف.

أرجوك يا سحر لا تشيحي بوجهك عني، فدموعك تخنقني، كما تخنقني دموعي تماماً.

عليّ الآن أن أكون رجلاً..أن أحمي زوجتي..سأكون رجلاً يا سحر..فقط مدي لي يدك لتشعلي بي ناراً مقدسة، تحررني من الخوف الذي لازمني عمرا بحاله.

أرجوك..دعيني أمسك بيدك..وأحميك كما يفعل أي رجل عندما تشعر زوجته بالخوف.

انذريني لحزنك، ولا تخافي..فليس من طبعي الغدر.

صدقيني أبشع ما فيّ هو ما ترينه أمام عينيك الآن، ولن تفاجئك أورام أخرى مختبئة خلف قناع جميل أو حتى قبيح.

هل أخبرك بسري الصغير؟

أنا وجه مشوه لا قناع لديه، لذلك كان ورمي عرضة للضوء، وكان يتورم أكثر كلما سلطت

الأضواء عليه..كلما نظرت إحداهن متفرسة فيه، وكنت أوشك أن أتقيأه مع بقية عمري لأنهي مأساة رجل لا يتقن ارتداء قناع.

لكنهم يا صغيرتي يحملون أوراماً مختبئة خلف أقنعة لا تستطيعين تمييزها...لا وجه حقيقيا يبدو أمامك..إنهم أقنعة، أبوك الذي ارتدى أمامي قناع الأب الوقور الخائف على ابنته..من كان يدري أنه يخفي تشوهاته خلف وقار مصطنع لوجه بلون البرتقال الفاسد؟ أخي الطبيب المرموق يحمل ورماً في جمجمته..ويرتدي ثوب الإنسان المثقف صاحب القيم الذي ما توانى عن جعلي حماراً يمتطي ظهري للوصول إلى غايته دون أن يستدير ليقول شكراً؟

لماذا عليك أن تخافي تشوهاً واضحاً لا يختبئ مثل غيره خلف قناع ملون بشكل متقن حتى تصدقيه ليباغتك بعدها بانحرافات لا تحتمل؟

في تلك اللحظات تحديداً، وبينما هو يراقب وجهها فتقع عيناه على كل تلك الكدمات المتوازية الموشومة بالألم على يديها، كان عليه أن يمتلك الذكاء الكافي ليدرك سبب تلك الإصابات الغريبة التي تتسبب بها لنفسها كل يوم.

كانت سحر تحمل في أعماقها ميراث الذاكرة الجماعية لنساء الكون، تلك الذاكرة المحملة بالذنب، والتي تذكرهن في كل لحظة بأنهن كن سر اللعنة التي حلت على آدم ..بل على جنس البشر، عندما أغرت حواء آدم بقطف ثمرة من تلك الشجرة المباركة.

ومنذ ذلك اليوم حملت كل امرأة في أعماقها شيئاً من وزر تلك الخطيئة، وصارت خطيئة آدم وصمة لحواء، وذنب ابن آدم بعدها، ما هو إلا ميراث لأول ذنب نقشته يد الإنسانية، وكان على المرأة- ابنة حواء- أن تتحمله بطريقة أو بأخرى، ففي داخلها ثمة شيء يقول لها إنك أنت الغواية..وإنك حتى ولو من دون أن تدركي بشكل واضح دورك

الذي قمت به، إلا أنك كنت السبب في الخطيئة التي تعرضتِ لها..كنت الشريكة ولم تكوني الضحية.

منذ ذلك الحين..الخطيئة الأولى.. اعتادت المرأة فيما اعتادت أن تكيل اللوم إلى ذاتها في كل مرة يخطئ فيها الرجل، فإن لم تجد ما تواجه به نفسها لتعلن لنفسها أنها مذنبة، انكفأ الشعور بالذنب إلى لا وعيها، وأوجد له ألف طريقة يطفو فيها إلى السطح دون أن يناقشه عقل ولا منطق..تلك كانت خدعة الكدمات التي أتقنها العقل الباطن لسحر..عقوبة جسدية تقتص بها من نفسها دون أن تدري أنها تفعل ذلك.

أي لعنة حلت على النساء بذلك الإرث؟!.

أي لعنة تحملها الضحية..عندما تعاقب نفسها على ذنب لم تقترفه..تلك كانت المسألة التي لم تخطر في بال صطوف مطلقاً.

ولم يستطع أن يجزم بأي حال من الأحوال من منهما كان أكثر ألماً، وكان على الآخر مواساته.

في اليوم التالي عندما دق أبو توفيق باب منزله، نظرت سحر في عيني صطوف نظرة ذات مغزى، نظرة أخبرته بها بأنها تنتظر منه أن يتصرف..أن يحميها..أن يرفع الظلم عن كاهل أيامها ،ركضت بعدها إلى غرفة النوم كعادتها دون أن تنبس ببنت شفة، فقد كان كلام عينيها أبلغ ما يمكن أن يقال في تلك اللحظة، اتجه صطوف إلى باب البيت بخطوات مترددة، لم يكن متأكداً مما عليه أن يفعله، هل عليه أن يطرد هذا الرجل من بيته؟ هل عليه أن يخبره بأنه عرف كل شيء؟ ماذا عليه أن يفعل ليحمي زوجته، ويفي بوعده لها؟

فتح الباب فاندفع أبو توفيق داخلاً، وهو يقول: صباح الخير.

"صباح النور" رد صطوف تلقائياً، بينما اشتعل الأسى في داخله مع كل حرف نطق به قسراً،

عاجزاً عن منع نفسه عن الرد، وعن النظر إلى وجه أبي توفيق .

وكعادته، نادى أبو توفيق ابنته بصوته الجهوري الخشن، ليصل إلى مسامعها برفقة أكوام جديدة من الحنق ستتبت في قلبها، مخبرة إياها بأنه لا شيء تغير، إلا أوجاعها التي تزداد يوماً بعد يوم، لم تستجب الفتاة لصوت أبيها إلا بعد أن ناداها للمرة الثالثة، كانت هناك في غرفة النوم، تكفكف دموع الخيبة قبل أن تواجه الرجلين بوجه لا ملامح له..وجه لا يقول شيئاً.

خرجت سحر، ولم تنظر في الوجهين المترقبين في الغرفة، وجلست دون صوت، في تلك اللحظة التي أجهضت فيها أحلام فتاة لم تكن تحلم بأكثر مما ينبغي لها، لم يكن يبدو على الأشخاص الثلاثة العالقين في نفس المكان والزمان أي تفاصيل مختلفة عن تواجدهم في نفس المكان خلال أزمنة سابقة.

وما عدا الغضب المستعر في قلب صطوف، والخيبة المشتعلة في صدر زوجته، لم يكن هناك أي شيء آخر يمكن الحديث عنه، فقد أكمل الرجل زيارته اليومية، وخرج من تلقاء نفسه دون أن يشعر بما كان يدور في خلد رجل يتمنى أن يمتلك القوة ليحمي امرأة احتمت به..امرأة هي زوجته على الأقل قانوناً.

بدأت مشاعر سحر في تلك اللحظات تتدحرج فوق جمر مشتعل يكوي أعصابها دون صوت، يخنقها ندم فاسق كونها فتحت قلبها لرجل اعتقدت أنه سوف يكون فارسها، فيحميها وينتقم لأوجاعها، إلا أنه بطريقة أو بأخرى وقف في الجانب نفسه الذي يقف عليه أبوها، وتجاهل احتراقها، والنيران المشتعلة في قلبها، كأن شيئاً لم يحدث، في تلك اللحظات كان بوسعها أن تقسم أنه تآمر مع والدها، وأنه نسخة منه بملامح أخرى..وبقناع آخر مكنه من التسلل إلى حيث لا يمكن لرجل آخر أن يفعل، أرادت عندها أن تغرس

سكيناً في صدره، ولم يخطر في بالها أنه يحترق مثلها لأنه جبن عن حمايتها، لم تفكر في احتمال ضعفه بقدر ما أيقنت أنه مجرد مخلوق قذر آخر..رجل آخر.

يومها لم يستطع صطوف النظر في وجه زوجته، كان يدرك في أعماقه أنه خذلها، لذلك انسحب دون صوت إلى غرفة النوم، وعاد إلى صديقة الفرائي يشكو همه، قال لرفيقه: عجزت عن حماية زوجتي.

فرد الأخير: وهل تمكنت من حماية نفسك يوماً؟

قال صطوف: لم أعد أستطيع أن أنظر في عينيها، أنا الذي نظرت في عيني امرأة للمرة الأولى في حياتي البارحة فقط.

فرد الفرائي: وهل تستطيع النظر في عينيك؟..

قال صطوف: لا يمكنني مواجهتها بعد اليوم.

رد الفرائي: وهل كنت تتمكن من مواجهة نفسك قبل اليوم..أو بعده, هل يمكنك أن تواجه مرآة...مجرد مرآة زجاجية تعكس ملامح خيبتك؟.

انكمش صطوف على نفسه واستلقى في سريره كما لو كان جنيناً يسترجع ذكرى رحم أمه، باستثناء أن وجوده في رحم أمه كان ذكرى موجعة ليس عليه أن يسترجعها، خاصة في تلك اللحظات التي كان بإمكانه أن ينتحب فيها، إلا أنه لم يفعل، فما الجدوى من ذلك طالما أنه بأي حال عاجز عن أن يقدم على أي شيء من شأنه أن يحمي زوجته..عاجز عن أن يصبح رجلاً.

أسئلة آبقة:

بعدها بأيام قليلة لم يحدث فيها أي جديد سوى أنه لم يعد ينظر في وجه زوجته، أو حتى يكلمها، ولا هي فعلت، صار على صطوف أن يعود إلى عمله بعد أن انتهت إجازته، بات ليلتها متوجساً من

تركه لزوجته وحدها في المنزل، فكر في إقفال باب المنزل بالمفتاح دونها، إلا أنه رأى أن ذلك سيكون مؤلماً لها، كما لو أنه يكرر ما فعله أبوها، أو كأنه يعاقبها على ذنب لم تقترفه، فيترك الجاني حراً، ويحبسها هي، لم يكن الجاني في نظره أباها فقط، بل حتى هو الخارج إلى العمل صباح غدٍ، تاركاً وراءه زوجته في مهب فسوق أب جاحد، وزوج لا يعرف الحزم.

ذهب صطوف يومها إلى عمله وقد تغير شيء فيه، ثمة نار تشتعل في ضلوعه دون هوادة لتزيد من حنقه، بينما تضفي مشاعر الندم والخجل حرارة أخرى إلى نيران حرائقه، قضى ساعات دوامه محاولاً أن يتخذ قراراً حازماً بشأن أبي توفيق، وقرر أخيراً أنه سيطرده من منزله مهما كان الثمن..وإن عجز فسيغير عنوان بيته، ويستأجر بيتاً آخر يودع فيه زوجته بعيداً عن ذلك الفاسق، هارباً من المواجهة التي يعجز عنها.

تنفس قلبه الصعداء بعد قراره ذاك، كمن تخلص من هم يتوضع فوق شرايين قلبه مباشرة ويضغط عليها بقوة، وأخذ يفكر في السيناريو المناسب الذي يمكن أن يقال، وكيف يمكن أن يرد عليه؟

قلب جميع الاحتمالات في رأسه، ووضع إجابة افتراضية لكل سؤال طرأ على ذلك الرأس، إلا أن احتمالاً واحداً غاب عنه.

انتهت ساعات دوامه الصباحية يومها، فعجل خطاه يسابق نفسه إلى البيت مستبشراً بما في جعبته من حلول، يريد أن يبشر زوجته بخلاصها، ويخبرها أنه رجلها الذي سوف يحميها من كل ما من شأنه أن يهدد أمنها، وعندما وصل إلى البيت، دق الباب فلم يلق رداً، تسابقت الأفكار إلى رأسه، هل يمكن أن تكون في منزل أبيها؟ أم أنها تتوقع أن يكون الطارق ذلك الأب الفاسق فلم تجب؟ أو ربما هو غضبها منه يمنعها من فتح الباب، أخرج مفتاح المنزل، ووضعه في القفل وفتح الباب، كان البيت فارغاً منها، لا أثر فيه

لها، جن جنونه، أراد أن يصعد إلى منزل أبيها، لكنه جبن عن ذلك، دار غاضباً في المنزل عدة مرات كثور جريح، آخر الأمر استقر رأيه على الصعود إلى بيت أبيها، كان يخشى أن يجدها هناك، بقدر ما كان يخشى ألا يجدها، فوجودها لا يعني فقط أنه أخفق في حمايتها، بل يعني أيضاً أن الأب لا يريد التوقف عن غيه، وأنه لا يرى في صطوف شبح رجل ليعمل حساباً له، وهو يعتدي على حرمته، أما عدم وجودها فمعناه أنها كانت واثقة من ضعفه فتركته لتحمي نفسها بطريقتها.

عندما دق صطوف باب بيت أبي توفيق، وبعد دقائق وقف فيها على الباب عاجزاً عن الإقدام على قرع الجرس، خشية مما قد يراه ويدركه، خرج الأخير مرحباً دون أن يبدو عليه أي شيء يمكن قراءته أو تأويله، سأله صطوف عن زوجته فامتقع وجهه، بداية الأمر حاول أبو توفيق الاحتفاظ بهدوئه، رغم انتفاخ أوداجه، وظهور القلق على ملامحه، وهو يسأل الزوج

عما إذا كانت قد أخبرته بأنها تريد الخروج إلى مكان ما..قد يكون سوق الخضار مثلاً..أو أي مكان آخر، وعندما أجاب الأخير بالنفي جن جنونه، صرخ بصطوف:

ماذا فعلت بها؟ لماذا هربت منك أيها المختل؟ لو كنت رجلاً حقاً لما خرجت زوجتك من المنزل دون أن تعلم مكاناً لها.

وقبل أن يستوعب صطوف كلمات جاره، تركه الأخير وراءه، ونزل درجات السلم راكضاً إلى الشارع للبحث عنها، تاركاً وراءه رجلاً موجوعاً، مرتاعاً، باغتته وقاحة جاره بنصال سامة اخترقت قلبه، أراد صطوف أن يصرخ به أنها لم تهرب منه بل هربت من نجاسة أبيها، إلا أنه لم يستطع، خانه صوته ..كما خانته كل الكلمات التي كان بوسعها أن تصفع وجه وقاحة أبي توفيق، فشد خطا أوجاعه ميمماً شطر منزله .

عند ذلك أيقن صطوف تماماً أن سحر هربت إلى خالتها وأنه لن يرى لها وجهاً بعد ذلك اليوم، ومع أنه أدرك أنها لم تهرب إلا عندما تأكدت من عجزه عن حمايتها من فسوق أبيها، إلا أن أنامل غضب خفية تسللت إلى أعصابه، وعبثت في حنايا قلبه حتى أوجعته، وبدأ يسأل نفسه: لماذا لم تعطني فرصة كافية؟ كان لا بد وأن أجد حلاً لو تركت لي الوقت إلا أنها لم تفعل، كما لو كانت تريد حجة للهرب وجدتها بأسرع مما تتوقع، بالنسبة لها لم أكن إلا حرفاً ساقطاً من أبجدية الرجولة، أو سلماً مهترئاً صعدت درجاته بأسرع ما يمكنها لتفتح الأقفال المغلقة في وجهها..وها هي قد خرجت وتركتني وحدي.

وبقيت الأسئلة الآبقة التي رماها أبو توفيق في وجهه تؤرقه، بدأ الغضب يتزايد في قلبه ليزيد من غليان مشاعره، لماذا عليه أن يكون ملوماً حتى في الأحداث التي ليس فقط لم يشارك في

صنعها، بل حتى أنه لم يكن موجوداً ساعة وقوعها؟؟..

لم يعد يستطع أن يحتمل غليان الغضب في قلبه فاتجه إلى بيت أبي توفيق، وفي نيته أن يصرخ في وجهه أنه قذر، وأن ابنته هربت منه هو، وأن صطوف لم يكن بالنسبة إليها إلا مكاناً متواضعاً تهرب إليه من وجه أبيها، ولولا ذلك ما وافقت على الزواج منه، ولم يكن بالنسبة لأبيها إلا غطاء لآثامه، ولولا ذلك ما زوجها منه . إلا أنه لم يجد من يفتح له الباب الذي طرقه بغضب خجول، شعر صطوف بالارتياح عندما رأى الباب متسمراً في مكانه لا يتحرك، فقد باغتته الشكوك بعدما طرق الباب بقدرته على مواجهة الرجل بأمر ابنته، أغلب الظن أنه كان سيتحجج بأي أمر آخر، سيسأله إن كان قد عرف لابنته مكاناً، أو يتلفظ بأي شيء غبي آخر، باستثناء الشيء الوحيد الذي يتمناه..أن يصرخ في وجه ذلك

النجس بأنه أب فاسق..فيما لو فتح له الأخير باب البيت.

بعد قليل تملكه خوف من أمر آخر خطر في باله ليزيد من كوابيس أوجاعه، كيف بوسعه أن يبرر أمر اختفائها وهربها أمام أبيه وأخوته، هل سيخبرهم أنها هربت منه بعد أن عجز عن حمايتها؟ أم يقول لهم أنها هربت فقط دون أي تبرير؟ لا بد أن ألف فكرة وفكرة غبية سوف تطرأ في رؤوسهم، وهم يفكرون في أمره، سيتنازعون أمره بينهم، وسيتشدق ناجي بنظريات غبية لا يناقشه فيها أحد،لأنه طبيب، وكل ما يقوله صحيح ومنطقي مهما كان تافهاً، ولن يجد بينهم من يحمل معه تعثره بحظه، من يبرره له، من يواسيه فيه..في تعاريج حظه..في تعاريج وجهه.

ازداد غضب صطوف في تلك اللحظات، فهي لم تستغله كما لو كان مفتاحاً للباب الذي تعمد أبوها أن يقفله في كل يوم عليها ليحتفظ بها في عفونة

داره، إلا أنها وضعته في موقف لا يحسد عليه، أي رجل هذا الذي تهرب منه زوجته بعد سبعة عشر يوماً من زواجه دون أن يكون بينهما علاقة من أي نوع؟؟..

من وجهة نظره، وبعد تفكير، كان بإمكانه أن يقترب منها لو أنها أعطته الفرصة، إلا أنها آثرت منذ اللحظة الأولى أن تنام على الأريكة قرب الباب، لا بد أنها كانت تكرهه منذ البداية، وعجزه عن حمايتها كان شماعة علقت عليها خروجها من المنزل بهذا الشكل المخزي.

كيف سيبرر لأهله هربها هذا؟

كيف سيخبرهم بأنها لم تره رجلاً، ولا أي شيء آخر، ولا احترمت له وجوداً؟

أنه كان بالنسبة لها مجرد مفتاح صادف وأن تطابق مع الأقفال المفروضة على عمرها، فكان بإمكانه أن يفتح لها الأبواب المغلقة على

مصـراعيها، وأن يضـعها علـى ناصـية الطريـق، خارج الجدران الأربعة، بعيداً عن أبيـها؟

عند هذا الحد استبد الغضب في صدره استبداداً شديداً، نتف مخدته إلى ندف صغيرة، مـزق ثوبهـا الأزرق المورد ،آخر ما لمحها ترتديه قبيـل غيـابه عنها في العمل، رمى بحذائها ضاربـاً وجـه الحـائط بقـوة كأنمـا هـو يريـد تشـويه الجـدار بنـدبات مـن حـذاء نسـائي خفيـف، ثـم بكـى حـتى بلـل فراشـه بالــدموع..واستلقى فـي سـريره بجـانب صـديقه الفـرائي غارقـاً فـي بلـل المـاء المالـح النـابع مـن عينيه ليصب في خيبته، كان يستحلف الحزن في داخله أن يتأخر قليلاً فما زال الفرح في قلبه جنيناً لم يولـد بعد، ولا يحق للخيبـة إجهاضـه، ومـا زال الحلـم مشـروع أمـل بـدأت تظهـر عليـه أعـراض مَرَضـيِّة تنـبئ بـالتحول إلـى كـابوس مـدمر، كـان يستحلف الحـزن بـأن يتـأخر قليلاً علـه يجـد خيبـة تناسـب مظلتـه الـتي لا تقيـه إلا مـن شـعاع فـرح هارب صادفه في مكان بعيد، وزمن أبعد.

صباح اليوم التالي كان صطوف قد قضى ليله جالساً يراوح بنصفه الأعلى بحركة بندولية نحو الأمام والخلف، كعادته عندما يستبد به القلق، وهو يشعر بالغبن، تقتله أسئلة جاره المحملة بألف اتهام له، و يختنق بأنفاس الغضب الذي يغلي في صدره، وقد خرج بقرار إثر ليلة قضاها يقظاً مشحوناً بغضبه.. هو الرجل الذي اعتاد الاختباء وراء قرارات الآخرين وآرائهم، فما كان منه بعد تفكير عميق إلا أن كتب على الوجه الداخلي لغلاف مزقه من أقرب كتاب طالته يده من مكتبته الصغيرة بخط كبير:" أنت تعلم تماماً أن سحر هربت منك أنت ومن قذارتك، وليس مني"، واتجه إلى بيت جاره وألصقها على الباب، وعاد إلى المنزل وقد خالجه بعض الارتياح، وهو يزيح عن كاهله مسؤولية هرب زوجته، ويضع الأمور في نصابها، تاركاً شيئاً من شحنات الغضب المدمر الذي يعتريه على الورقة نفسها.

كـان علـى الصـباحات القادمـة أن تتناسـى رائحـة القهـوة، وألا تنتشـي بطعـم الهيـل المعتـق فيهـا، وعلـى عصـافير قلبـه أن تتوقـف عـن التغريـد، وتلملم أجنحتها، فلن تحلق بعيداً بعد ذلك اليوم، كـان علـى مـدن الحـزن الممتـدة مـن الوريـد إلـى الوريد داخل قلب أدمن الهذيان أن تغرق بطوفـان المـاء المالـح، وعلـى الأشـرعة الممتـدة مـن الليـل إلى آخره أن تنسـى شطآنها، أن تبقـى تائهـة بيـن موجة وموجة، وأن تترك لزبد البحر أن يعبث بـها ما يشاء.

أكان على الحياة أن تنتقي لأحلامـه كل مـرة خيبـة أقسـى وأمـرّ طعمـاً؟؟.. أكـان عليهـا أن ترسـم لـه على ذاكرة الفقد ألواناً مختلفة لخيبة واحدة تتمـدد على رئتيه بقدر حزنـه؟؟..

صــار علــى صــطوف بعــدها أن يســتعيد رتابــة حياته..بخيبـة أكثر..وفرح أقل وموانـئ هاربـة مـن علـى خـرائط العمـر لا سـبيل للوصـول إليهـا، وأن يغلق عينيه جيداً عندما يغفو على وسادة اليأس

لئلا يحلم، فقد كان الحلم رفاهية لا قبل لوجه يتنكر لملامحه به، وأن يترك طيور الحزن تقتات من قلبه كما يحلو لها.

لذلك أصبح يتوسد مرارة ذكرياته كل ليلة، ويعانق الفرائي الأعور، ويصرخ بملء وجعه:

-أتعلمين أنني لم أمت بعد؟؟..

أتدرين أن حقيبة الأحزان التي سافرتِ دونها لن تقتلني كمداً؟

<u>أوجاع الموتى</u> :

يحدث أن يستولي علينا الحزن دون أن نقصد، ليس لأننا نمر الآن في موقف يستدعيه، بل لأنه لدينا مزاج معتّقٌ بالانكسار، نستدعي الحزن استدعاء ، وقد نشتريه لو أنه عرض على واجهة باذخة في وقت يلائم مزاجنا الكئيب.

ذلك أنه في الردهات السرية القصية لكل إنسان يوجد مؤونة من الحزن والألم والخيبة يحاول ألا

يراهـا، وألا يـترك لهـا مكانـاً فـي ذاكـرة الوجـع تمكنها من الإلحاح عليه في لحظة ما، على أنـه لا بـد وأن يـأتي يـوم تطفـو فيـه تلـك الأحـزان فـوق مســتنقعات الخيبــة الــتي تملأ أرواحنــا برائحــة العفن، وتجبرنـا على الإصغاء لإيقاعها الموجع.

صـارت تلـك النوبـات مـن الحـزن تـداهم صـطوف بشكل عنيف من حين لآخر، تـهاجمه حتى يوشك علـى المـوت ..علـى الانتحـــار...ربما علـى شـنق نفسه، إلا أنه في قرار نفسـه لـم يكـن ليفكـر جديـاً في قتـل نفسـه رغـم تمنيـه للمـوت فـي كـل لحظـة، ليس فقط لأنـه لا يملـك الحـزم الكـافي الـذي يمكنـه مـن اتخـاذ أي قـرار، فضـلاً عـن قـرار صـعب مثـل هذا، لكن لأن فـي قلبـه بقيـة مـن إيمـان تخيفـه مـن غضـب الله كلمـا شـعر بـأن الأبـواب موصـدة مـن حولـه بأقفـال مـن حديـد، وأنـه يعـاني وحـدة مزمنـة تكاد تقتلـه..أو تجعله يقتل نفسه.

على أنـه لا يمكـن للأحـزان إلا أن تعيـث فسـاداً فـي سَكِيْنَة مزيفـة لقلـب ممـزق عنـدما تسـتولي عليـه

وترفـع رايتهـا عاليـاً، وهكـذا فعلـت، كـان الحـزن يحاصر صطوف من جهـاته الأربـع، يسقط عليـه مـن السـماء، ويـبرز لـه مـن كـل زاويـة يسـتدير إليها، ولو فتح باب الثلاجة لقفز الحزن في وجهه كاشـفاً عـن نـاب أزرق يسـتعد للغوص عميقـاً فـي شرايينـه.

أثنــاء ذلـك، لـم يسـتطع صـطوف أن يـواجه أهلـه بهرب زوجته، فتحاشـاهم فترة مـن الزمـن، إلا أن أخاه وأباه فاجآه بزيارة في بيتـه مساء أحد الأيـام، بعد أن طال غيابه، واستغربا غياب العروس الذي سرعان ما برره صطوف بسفرها إلى خالتهـا فـي حمـص،دون أن يفكـر فيمـا بعـد ذلـك، ومـا الـذي يمكن قوله عندما يطول غيابهـا، لـم يخشَ يومهـا صطوف مصادفتهم لعمه، ومعرفتهم الحقيقـة عن طريقه ، فقد غادر الأخير منزلـه إلـى غيـر رجعـة، ودون أدنـى أثـر، تلاشـى هكـذا فـي الهـواء بعـدما أيقن أن سره افتضح.

لكن بعد ذلك بأسابيع، كان عليه أن يقر بحقيقة هرب زوجته منه، صارت الحروف تختنق على شفتيه وهو يعلن أن غيابها أبدي...وأنها لن تعود أبداً، دون أن يعطيهم سبباً لذلك، وكانوا هم أعقل وأكثر حكمة من أن يسألوا رجلاً يعيش احتضار الفرح، وحداد الأماني، عن سبب ذلك الغياب.

ولم يبق بعدها لدى صطوف مكان واحد يهرب إليه إلا الورق، حيث أن الكائنات الورقية تحسن ضيافته ورفقته، قد لا تستمع إلى أحزانه جيداً، ولا تمضغ معه طعم العلقم الفاسد المتمكن من رئتيه، إلا أنه بوسعها أن تمسكه من تلابيبه، وتشده إلى بعد رابع لا شيء حقيقيا فيه إلا هو..الكائن الذي لا يمضغ إلا خيبته.

كانت تخطر في باله أحياناً فكرة غريبة، أو أمنية مستحيلة إن صح التعبير، لو أن معجزة تحدث فتحتجزه في ذلك البعد المتخيل، ليرسم حدوداً يمنع الحزن من عبورها إلى قلبه، ويهدي لنفسه ملامح أخرى تسره عندما يلقي عليها تحية صباح

دافئة، كم كانت الأحلام لتسعدنا لو أنها تتحقق هكذا ...بهذه السهولة، كما لا ينبغي لها.

يوم آخر لا جديد فيه إلا اسم الكتاب الذي يحمله، كان دوامه ليلياً في ذلك اليوم، ذهب إلى عمله بالرتابة القاتلة نفسها ليستلم ويسلم جثث من قذفتهم الحياة خارج حدود الزمان والمكان، في ذلك اليوم تمدد إحساس المرارة في داخله حتى بدأ ينحل في حلقه ويتورم، لم يكن قد تمكن من نسيان زوجته التي ما أكملت أياماً في رفقته إلا وتركته وهربت إلى غير رجعة، ولا استطاع أن يتجاهل فكرة استغباء أبيها له، وجعله أضحوكة وهو يكمل مخططه القذر للاحتفاظ بجسد ابنته، متجاهلاً حقيقة رجولة الزوج وكرامته، كان يشعر بالغضب يتفجر من بين أصابعه، من عينيه، من رئتيه، من كل خلية تتنفس الحياة في جسده.

يومها وصل إلى مقر عمله وجلس على مكتبه مفكراً بأحداث الأسبوع الفائت، فإذا بممرض من

قسم الإسعاف ينزل إليه ليسلمه جثة رجل مات بجلطة دماغية مفاجئة، أكمل إجراءات استلام الجثة كما هي العادة، ثم مضى يجد لها مكاناً بارداً بين جثث أخرى لم تحظ برفاهية إكرام ميت حتى تلك اللحظة.

لكنه في لحظة ما شعر بأن الميت الذي- ولسوء حظه- حمل ملامح ذكرته بأبي توفيق يراقبه هازئاً منه، حتى أنه كان يرمقه بتلك النظرة التي يكرهها نفسها ، حاول أن يتجاهله إلا أنه لم يتمكن من ذلك، ارتفعت فجأة وتيرة تنفسه حتى صار بوسعها أن تسمع الموتى إن هم عادوا أحياء، وبدأ صدره يعلو ويهبط بسرعة كبيرة، وانبثقت حرارة عالية غشيت أنحاء جسده، وفجأة ودون سابق إنذار وجد نفسه يوسع الميت ضرباً، صفعه بوحشية، صب عليه غضبه كما لو كان عدواً يتربص به، ركله بقدمه، ولكمه بقبضته الفولاذية، وضربه بكل ما يستطيع من قوة حتى مات الميت مرة أخرى بين يديه، وعندما تعب من

ضربه جلس إلى جواره يبكي كطفل صغير، صار ينتحب بكل ما تعنيه الكلمة، وكانت أمه تقف هناك بجسد بارد تنظر إليه النظرة ذاتها مخبرة إياه بألا يقترب منها..وأنها لم تحبه يوماً.

صرخ بأمه لماذا..ماذا فعلت لك؟ وماذا فعلت

لجاري؟

ماذا فعلت للحياة..لأخي..لزوجتي..لنفسي؟؟..
لماذا عليكم أن تعاملوني بكل هذا اللؤم؟؟..

بعد دقائق عدة ابتلع صطوف بقية غضبه ممزوجاً بطعم دموعه المالحة، وحمل الميت إلى الثلاجة، مدده على اللوح المخصص للجثث فيها، وفي داخله شعور يتنامى بالانقباض والذنب من سلوك غير مبرر تجاه جثة لا يعرف صاحبها.

بعد ذلك سيصبح هذا اليوم بداية لتغيير واضح في سلوك صطوف، فلن يعود الرجل المتوحد في صمته وأحزانه، المغلق على نفسه بألف قفل دون مفتاح واحد، سيفتح أقفال انكساراته المستحكمة

فـي نفسـه علـى الأجسـاد المسـتلقية حـوله دون حراك، سوف يقتص بعد ذلك اليوم من كل ميت يضعه حظه العاثر بين يديه أثناء نوبة من نوبـات الغضب التي كانت تنتابه كلما ألمَّ به وجع، أو نُكئ له جرح يتقيح داخل ذاكرة الفقد.

صار يتخلص من مشاعر الغضب بضرب الموتى، بعـدها بقليـل صـار يخـترع طقوسـاً أخـرى، فبـدأ يجـالس المـوتى ويحـدثهم، بعـدها يضـربهم ضـرباً مبرحـاً إن صـادفته نوبـة غضـب عـابرة فـي تلـك اللحظـة، أو يسـتمر فـي جلسـة هـادئة مـع أحـدهم يكلمــه بمحبـــة..كانت تلـك الطقـوس تحـدث فـي أسبوع الدوام الليلي، أما في مناوبـات النهـار فقد سارت الأمور على ما يرام لينجو الأموات من كفه الثقيل، وهو يسقط على وجوههم الشاحبة.

وفي أحد الأيام واتته الجرأة أكثر عندما سلمت لـه جثـة امـرأة فـي متوسـط العمـر، فأخـذ يتحسـس تفاصيل جسدها بخوف، كـانت يـداه تمـران على تضاريسـها فيرتجـف، يرتعش لوقـع الحـدث فـي

قلبـه، ومـا هـي إلا لحظـات بعـدها حـتى بـدأ وجـه المرأة يتحول شيئاً فشيئاً إلـى وجـه أمـه، فقد كـان جسد أمه يختبئ خلف جلد كـل أنثى ميتـة ، لـذلك كـانت تلـك التجربـة بشـعة بالنسـبة إليـه، انتـابته بعدها نوبة غثيان مقيتـة، أكسبته شـعوراً بـالقرف تجـاه نفســه، وآخـر بالـذنب تجـاه أمــه، وتجـاه صاحبة الجسد المسجى أمامه بتفاصيل غير قابلـة للمســاس دون أن تصـــيبه بلعنـــة، فللمـــوت قدسـيته..ومن ذا الـذي يتجـرأ علـى اقتحـام هالـة الموت دون أن يصاب بلعنته؟؟ .

يومها تملكه شعور شديد بالـذنب كـاد يقتلـه لشـدة وطأته، عذبه لياليَ عدة لـم يتمكـن فيهـا مـن النـوم ولـو لـدقائق، بعـدها آلـى علـى نفسـه بـألا يقتحـم حرمة جسد امرأة مهما حدث، ذلك أن الرجال فقط معنيون بأمر مزاجـه المتقلب، أمـا النسـاء فلينمـن فـي الـبرادات آمنـات، فهـو يخشـاهن حـتى وهـن ميتـات، ولـو أنـه يخشـاهن أكـثر وهـن علـى قيـد الحيـــاة..وفي الحـالات كلهـا كـن يحملـن ملامـح

يعرفها جيداً، ونظرة قضى عمره يهرب من سطوتها.

رغم تلك الحادثة العابرة التي ما تكررت، ظل الموتى الرجال مسرحاً لجنون غضبه، يهوي عليهم بكفه الثقيل متى شاء، أو شاءت نوبة استياء أثارتها ذكرى عابرة، أشعلت النار في قلب مثقل بهموم لا تغادر، وذكريات بطعم الحنظل تأبى شفاءً أو نسياناً.

وما عدا تلك الطقوس الجنونية كان صطوف يعود إلى كتبه ليصبح رجلاً هادئاً من جديد، وليتقمص أحد أبطال الروايات فيقاتل طواحين الهواء بسيف من خشب.

" لو كنا أكثر جرأة ":

هل كانت السماء أكثر زرقة هذا اليوم ، وهل أسقطت العصافير فرحها الصباحي دون أن تدري على يوم من عمر صطوف ؟! .

لا يدري هو أي بركة من السماء حلت عليه بشكل صدفة جعلت إحدى زميلاته في العمل تضطر للنزول إلى غرفة ثلاجات الموتى ، تلك التي أصبحت يوماً بعد يوم داراً ثانية علق على جدرانها الكئيبة أيقونات الوحدة واليأس، كان نزولها لتلتقط إجابة سؤال طرحته عليها إحدى جاراتها، ولم تجد لديها إجابة شافية، عما إذا كانت الثلاجة تقدم مجاناً للموتى، أم أنه على من فجع بهم من أهلهم أن يدفع ثمن اختيار الموت لهم في وقت أو ظرف غير مناسبين للدفن.

لم تكن زميلته مُنى جميلة تحمل أنوثتها علامة فارقة تواجه بها عيون الرجال بجرأة تفرضها تلك الثقة المتكدسة في أعماقها، على العكس فهي أقل من عادية، سمراء اللون، جافة الملامح، لها شعر أسود مجعد تربطه خلف

رأسـها، أمـا عيناهـا فمـن السـهل قـراءة تاريـخ الخيبـة فيهمـا، يبـدو عليهـا أنـها تكـبره بسـنوات نـاهزت الخمـس أو أقـل قليلاً، بدينـة إلـى حـد مـا، مثلـه كـانت تشـغل فضـاء وحـدتها بـالتجول بيـن الروايات والعيش في أحضان مدن لا توجد إلا فـي صفحات الكتب، وبين سطور أوراقهـا، باحثـة بيـن دفتيهـا عـن حـبيب مفـترض ، وأصـدقاء دافئيـن، وحياة مؤقتة أقل بؤساً من تلك الـتي تحياهـا علـى سطح أرض الواقع .

كانت منى قد لمحت صطوف مرات عـدة، لـذلك لـم يعـد وجهـه، وحركـاته المـترددة مثـاراً للاستغراب بالنسبة لهـا، علـى العكس فمـن مثلهـا يعـرف لعنـة الشـكل الظـاهري عنـدما يغـدو حكمـاً مطلقاً على إنسانية شخص لا يملـك مـن مقومـات الجمال ما يعطيه جواز مرور نـاجح إلى قلـوب مـن حولـه , خصوصاً من الجنس الآخر، ولم تكن حالـة الفزع التي تنتـابه غريبـة عنهـا، فقد سـمعت بهـا، كما سمع بهـا جميـع مـوظفي المشفى، حـتى أنـهم

حاولوا استثارة فزعه عدة مرات بتكليف إحدى الموظفات باعتراض طريقه، والوقوف معه للتندر عليه، لذلك حاولت قدر الإمكان ألا تعيره اهتماماً، وأن تشغل عينيها بأي شيء بعيداً عنه، لكي يتسرب إليه بعض الشعور بالاطمئنان، فهي تعرف ما معنى الألم المستحكم في داخل النفس، ولا تطيق أن تجرعه لكائن حي مهما كانت صفته.

عندما اقتربت مني من مكتب صطوف لفتت نظرها بضعة كتب مرصوفة فوق بعضها ، تعلوها رواية " العطر" لـ (زوسكيند) ، تمدد شيء ما في قلبها بفعل حرارة غير متوقعة باغتت شرايينها، وهي تجد شيئاً مشتركا يربطها بالرجل ، سألته عما إذا كان قد قرأها، مشيرة إلى أنها قرأت للكاتب نفسه رواية اسمها " الحمامة " ، وأنها كانت تبحث عن تلك الرواية لقراءتها ، فانبرى صطوف يتحدث عن الشغف الوحيد الذي سمحت له الحياة به، بينما كان يتطوح بهدوء- بخلاف عادته- إلى الأمام والخلف، وكفه تخفي

نصف وجهه، وعيناه تمشطان وجه المكتب، كانت عيون المرأة التي تتجنب النظر إليه قد أشعرته بشيء من الاطمئنان، مما خفف من احتقان القلق في أنفاسه، وجعل حركته أقل حدة مما هي عليه عادة، سألته عن الروايات التي قرأها، ومن بين تلك الأحاديث العفوية التي ولدت من تلقاء نفسها، اكتشفت منى أن في جعبة ذاكرة كل منهما صوراً متشابهة لروايات سبق وحملت كل منهما على حدة على جناح الحلم فوق السحاب .. في تلك اللحظات تماماً، وللمرة الأولى من سنوات العمر الهارب إلى ضفة الهباء نسي صطوف نفسه، وأسهب في الحديث ـ دون أن يفكر ـ عن أبطال تلك الرواية وأحداثها، ومع كل هذه الطقوس التي جمعت روحين لا تملكان الجمال الكافي، في مكان لا يحمل الدفء المطلوب ، كان صطوف يتعمد ألا يترك العيون تلتقي بشكل مباشر لئلا يقرأ فيها ما ينكأ أوجاعه، فهو يخشى أن يجد تلك النظرة التي حاول أن يضيّع تفاصيلها في منحنيات قصية في أعماق الذاكرة السحيقة

عله لا يتوصل إلى إيجادها ثانية ، ورغم ذلك كان يختلس النظر إلى تلك السيدة من حيث لا تدري، بينما يده تلتصق بخده بشدة كأنما هي تحاول الالتحام بها لئلا يباغتها ما يجبرها على ترك الخد المسكين عارياً أمام العيون الفضولية .

زميلته تلك سيدة في الأربعين من العمر، أو جاوزتها ببضع خيبات، لم تتزوج قط، تحمل قلب أم، وأحلام صبية في مقتبل العمر، إلا أن فارس الأحلام الممزقة المسافر خلف أشرعة الخيال لم يأتِ ، وتركها تلوك كوابيسَ متنكرة بثوب أحلام ليلية .. وحلم وراء حلم كان الشباب يذوي، ثم ماتت أمها مخلفة وراءها طفلة في عمر النضج، وهاجر أخوها الوحيد إلى أمريكا حيث تزوج واستقر، ولم يعد أبداً، فبقيت كنخلة في وسط صحراء قاحلة تستجدي مطراً لا تجد إلا غيومه ورعده ، فتلوك جليد الوحدة في المساءات الباردة بين دفتي كتاب يأخذها بعيداً عن جدران الخيبة ، ويرحل بها إلى فضاءات تسكنها أرواح

لا تتنفس ، تعيش من خلالها كما صطوف حياة أبطال الرواية، وتشاركهم أفراحهم، وأحزانهم، وقصص الحب، وخيباته ، لتنتهي عند الغلاف الأخير للكتاب على مخدة أسفنجية تتوسد أوجاعها، فتبتلع الدموع المالحة دون صوت، وتترك آثار الملح على سطحها شاهد عيان على خيبة روح متمردة تقطن جسداً مستكيناً.

لم تكن والحالة هذه نشوة مني بالحديث المتبادل عن الاهتمام المشترك بينهما أقل من نشوة صطوف- رجل المرايا المهشمة- على الإطلاق ، فأوجاع بشاعة هذا الكائن توازي أوجاع عنوسة تلك ، كلاهما كان ينظر لنفسه بمرآة مقعرة كفيلة بتشويه تفاصيله بما يكفي ليكره نفسه، ولئلا يحمِّل خيبته عبء الوقوف أمام المرايا، كلاهما ينتمي إلى تلك الكائنات التي تفتقد ذوات تستطيع التعامل معها، كلاهما خلقا دون مرآة داخلية تغنيهما عن رؤية تفاصيل ملامحهما في عيون الآخرين.

في اليوم التالي مرت منى بغرفة حفظ الموتى حيث يوجد صطوف منذ الأزل، وفي يدها رواية " الحمامة "، متحججة بنية إهدائها له عربون صداقة طالما أنه يرغب بقراءتها .. كان وقع هذه الهدية على قلب صطوف أكبر بكثير مما بدا على ملامحه الجليدية الباردة التي تعودت أن تخفي أخبار النيران المتأججة في الأعماق ، فبين غلافي تلك الرواية بصمات إنسان يقبل عليه بكليته، دون أن يعير قبح وجهه المشوه أي اهتمام ، وعلى غلافه آثار علاقة إنسانية يوشك برعمها بالخروج من تحت التربة رافعاً وجهه في وجه الشمس ، وفوق كل ذلك كان هذا الإنسان امرأة ، هو الرجل الذي ما قَبِلَته امرأة حتى أمه .

تعددت زيارات منى لصطوف ، أغلب الزيارات كانت تحمل حجة تداول كتاب، وتتطور لتصبح نقاشاً في رواية، أو مجموعة قصصية أو شعرية، ثم لتطال أمور الحياة العادية، بدأت بعدها حركات الفزع والاضطراب التي تنتاب صطوف

عند اقتراب امرأة منه تصبح أقل وطئا، صارت تضمحل وتتلاشى كل يوم أكثر، ولم يبق فيها إلا آثار اضطراب تنفسه، وحركة لا إرادية تخفي خده بهدوء، دون ذلك الاضطراب الملفت للنظر، والمبالغ بأمره دون إرادة من صاحبه ، بدأت ساعات العمل الصباحي تتخذ شكلاً آخر لدى صطوف، صار ينتظر أيام الدوام الصباحي ويعد الأيام عداً بانتظار تلك الأيام، فيمعن في ترتيب نفسه، ويضخ العطر على جسده، ويمسح حذاءه، ويتفقد تفاصيل أناقته قبيل خروجه إلى العمل، ويعيد تفقد تلك التفاصيل عند وصوله إلى مكتبه ترقباً لزيارة منى، ولم تكن لهفة منى بحال من الأحوال أقل من لهفته، صارت تتمنى لو أن دوامه يتحول بكامله إلى الصباح لتتمكن من رؤيته، وتحفظ جدول دوامه، وتترقب أيام الدوام الصباحي بلهفة.. بدا من الواضح أن منى تكنّ شيئاً ما لصطوف، قد لا يكون حباً، بقدر ما هو مجرد احتمال لكونه الرجل الذي يهبها لقب أم في زواج لا يتطلب منه إلا أن يتخذ الخطوة الأولى،

ويصارحها برغبته في الزواج منها ، بالنسبة لها رغم أن المرأة غالباً ما تعير العمر اهتماماً خاصاً، ولا ترغب في الارتباط بمن هو أصغر منها سناً، إلا أن هذا الكائن المتوحد مع صمته، والمنزوي في ركن لا يسمح لأحد باقتحام حدوده ، بسكونه المدروس، وكلماته الرزينة القليلة ، كان حلماً للاستقرار تحقق فيه أمومتها في اللحظات الأخيرة.. قبل اليأس، فهي تجد في شخصيته المهزوزة، وحركاته البشعة تسوية عادلة للسنوات التي تكبره بها، وغياب الجمال عن تفاصيلها، وبضعة كيلوغرامات تزيد من عرضها وتنقص من طولها .

لذلك كان بإمكانها أن تقدم بشجاعة على حلم الزواج وتعتبره منصفاً تماماً لكل منهما، وتتخيله زوجاً يهبها فرحة طفل تقتل به غياب الأمل عن حنايا عيشها.

في ظروف أخرى كان على صطوف أن يفهم إشارات الأنثى الخجولة التي تطلقها بحذر

خوفاً من الرفض، أو من صفة تعود الرجال إطلاقها على كل امرأة تبادر في مثل تلك الأحوال إلى تعرية مشاعرها، كان عليه أن يرفع عينيه ليقرأ قبولها الأنثوي الصامت لرجل تحتاج وجوده ، وتتوق لأن يلملم شعث وحدتها , إلا أنه لم يكن لدى صطوف أي جرأة ليفعل ذلك، رغم أنها شغلت كل تفكيره بينه وبين نفسه، وأرادها أن تشاركه خواء وحدته فتملؤه حضوراً، إلا أنه بأي حال كان رجلاً يفتقد المبادرة، ولا يستطيع أن يملك زمامها، ولو ملكها لغيَّر الكثير من تفاصيل حياته المزرية.

كان بإمكانه أن يغرف الحب من عينيها غرفاً، وأن يتصالح مع جراحه بلمسة حانية من كفها، وأن يودع ماضي علاقته السيئة بجنس حواء في مقبرة النسيان ، لكنه آثر أن يتنكر لكل خفقة من قلبه، معفياً نفسه من رفض مؤكد كما كان يتصور، فتجاربه مع الأنثى.. الأم، والحبيبة، والزوجة، أقسى بكثير من أن يغامر بقلبه المثخن

بالجراح مرة أخرى ، فينكأ جراحاً لم تندمل كما ينبغي .

كان يعاني مما يمكن تسميته بلذة الاستسلام للخوف، تلك التي بقدر ما تمنحه من اليأس والحزن ، بقدر ما تخفي جراحه طي النسيان ، وتسمره في زاوية للأمان الكاذب حين تبتعد به عن احتمالات رفض جارح، وهو في أعماقه يريد أن يختبئ في زاوية آمنة ، حتى حين يعني ذلك خسائر مفترضة، وحتى جسيمة، لأنه يعني من جهة أخرى ألا يترك جراحه مفتوحة أمام النصل الحاد لسكين الواقع العشوائي الذي يحمل احتمالين متساويين لأن يصيبه في مقتل، أو ألا يصيبه أبداً.

رغم الزيارات التي أصبحت شبه يومية، إلا أن صطوف وطن نفسه على ألا يقترب من امرأة تحمل قلباً ينبض مهما حصل .

- هل كان صطوف مخطئاً ؟

ـ هل كان خاسراً؟

هناك أسئلة في الحياة لا أحد يستطيع أن يجد إجابة لها، فهو مثلاً تعود على نمط أحادي في الحياة منذ أن صرخ صرخته الأولى، معلناً قدوم روح سوف تصبح معذبة، ولذلك لم تكن تشكل هذه الوحدة معضلة حقيقية له بقدر ما كانت تشكل قباحة ملامحه المشوهة ، ولو كان في الأمر خياراً، لاختار أن يغير من شكله لا من وحدته .

نحن نصبح متمسكين بواقعنا أكثر حتى حين يكون مراً كلما طعنَّا في الحياة ، فالتغيير يصبح مأزقاً، ومنعطفاً مخيفاً تقف على زواياه كل الاحتمالات الممكنة بالتساوي، فنعود للمثل القائل عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة، حتى حين يكون عصفورنا منتوفاً بشع الصوت ، بينما بقية العصافير على الشجرة ملونة بألف لون ولون، وتغرد بأعذب الأصوات وأجملها.

ولـذلك كـان صـطوف يخشـى التغييـر بينــه وبين نفسه، وخصوصاً أن التغيير المنتظر متعلـق بـامرأة، هو الـذي مـا سمحت لـه خبراته السـابقة بأن يثق بامرأة حتى لو كانت أمه.

دب اليـأس بعد قليل فـي قلـب منـى ، وبـدأ تواتر الزيارات يتناقص ، والكتب المحمولة تقـل.. بعد فـترة أتـت لتخـبره بأنـهـا سـوف تـتزوج مـن قريب لصديقتها .

لم تكن حزينة أبدا، ولا فرحة تماماً ، كـان فرحهـا مشـوباً بمخـاوف وخسـارات تعبـث بقنـديل الأماني في قلبها، فالتغيير الذي سوف يطـرأ علـى حياتها ، رغم أنه يحمل لها من الآمـال مـا يحمـل، إلا أنــه يخيفهـا، يشـعرها بـالتوتر والقلـق، ومـن جهـة أخـرى خسـارة هـذا الرجـل الأعـزب الماثـل أمامهـا، والـذي وجـدت فيـه قلبـاً دافئاً، وصـديقاً مقربـاً، وألفت بينهـا وبينـه تفـاهم مبهـم، وملامـح مشـتركة لتفاصـيل سـاعات النهـار المنقضـية فـي حضن كتاب، مقابل رجل متزوج لديه مـن الأطفـال

ما يجعل خبر حملها- إن هي فعلت- نعيا للراحة التي ينشدها بعيداً عن ضجيج عائلته في بيته الصغير ، كل ذلك يحتسب خسارة جسيمة لها، لكن احتمالات كسبه زوجاً لها كما تتمنى كانت غير محسوبة ، ولا يمكن التكهن بها .

لو أنه نطق في ذلك اليوم ، لو أنه قال كلمة واحدة يعدها فيها بغد مشترك، لتركت الآخر دون ندم .. إلا أنه تغلف بصمته بعد تهنئة قصيرة ، وتنامى في داخله شعور عميق بالفقد والخسارة، لكن ملامحه لم تمتعض ولو للحظة، بل احتفظ تماماً بجليد الملامح المرسوم على وجهه في محاولة منه لمداراة خيبته التي بدأت تثير فيه شعوراً قاتلا بالحاجة للبكاء .

كان ذلك اليوم آخر عهده بمنى ، وعندما استيقظ في اليوم التالي أدرك تماما في قرار نفسه أنه أخطأ في تركها تمضي، وأن عهداً قديماً من الوحدة السمجة سوف يعود، بثوانيه الثقيلة التي تمر كساعات لتطبق على أنفاسه .

بعدها عاد صطوف إلى رتابة أيامه يجتر عشباً برياً وحدة ،لا يشاركه تفاصيل أوجاعها في روحه، إلا كائن فرائي أعور..بشع مثله.

****

ثوب الزفاف النازف:

في ذلك المساء ثمة عرس في مكان آخر يطرز الفرح فيمن حضر تفاصيله الباذخة، هو حفل زفاف شاب أسمر وسيم الملامح، طويل القامة،له جسم رياضي تفوح منه رائحة القهوة العربية والهيل،على فتاة حنطية الوجه، بلون الفرح، ورائحة الياسمين. سمحة الملامح، متوسطة الطول، تعتدُّ ابتسامتها بأسنان بيضاء مرصوفة بعناية، وشفتين مكتنزتين كإطار يحيط بذلك البياض اللؤلؤي.

تلك الليلة ترتبت تفاصيل ساعاتها المعدودة بعد تحضيرات شهور، لئلا يباغت الفرح ما يعلق غصة في حلقه.

كـان الحفـل رائعـاً، ورغـم الشـتاء الـذي يجـاهر بعصيانه دفء ذلك اليوم، وبصقيع يخدر أطراف من تسول لـه نفسـه أن يتحـدى بـرد يـوم كـانوني مكفهر، إلا أن دفء الصالة أخفى ملامح السماء المتلبدة بسحاب لا يمطر، كل التفاصيل منتقـاة فـي قاعة الفرح بعنايـة قلـب عاشق يوشك أن يجـاهر الكون يفرحـه، نزلـت العروس إلـى الحفـل بصدفة كـبيرة، واسـتقرت الصـدفة علـى الأرض لتتفـرج عـن عـروس البحـر الفاتنــة بفسـتانها الأبيـض، وابتسامتها التي تضيء على وجهها فتغدق الفرح علـى مـا حولهـا، ومـن حولهـا ، بعدها انشـغلت أركــان القاعــة وجـدرانها بصـوت الموسـيقى، وأجسـاد النسـاء الـتي ارتـدت غوايتهـا لتتلـوى بحركـات فاتنــة مـع أغـاني الحـب ذات الإيقـاع الراقـص، ثـم جـاء العريـس كمـا فـارس يمتطـي صهوة أحلام باركتها أنامل الفرح، وشرارة الحـب التي اشتعلت في كل مكان.

مد العريس يده لعروسه ورقصا معاً على صوت أغنية هادئة مكنتهما من نسيان كل من حولهما، والتمايل مع صوت المغنية التي تعلن أن للحب سطوة لا يمكن الإفلات من قبضتها، وله نار مقدسة لا بد للعاشق من الاكتواء بها ليتطهر من كل المشاعر الخسيسة التي قد تمر في قلب إنسان، وأن رحلتهما إلى السعادة بدأت منذ تلك اللحظة.

لم يعد ممكناً للحاضرات مع كل ذلك الدفق من المشاعر الدافئة، إلا أن يضعن أيديهن على خدودهن، وأن يحلمن بفرسان يحملون الفرح إكليلاً ليضعوه فوق رؤوسهن، كل واحدة منهن لونت حلمها باللون الذي تريد، أما من كن أكبر سناً، فقد عدن للأيام الخوالي يتفقدن ذاكرة الحب، ويفتشن في زواياها عن تلك التفاصيل الصغيرة التي تعطي نكهة أخرى للأيام الرتيبة.

أنهى العروسان رقصتهما الرقيقة، واتجها ـ كما هو مخطط ـ لافتتاح قاعة الطعام، حيث تناولا

بعضاً منه مع المدعوات، ثم توجها إلى حيث يقف قالب الحلوى الطويل الأبيض ذو الطوابق السبعة، على أنغام موسيقى ياني تعلن فرحاً باذخـاً، وحملا سيفاً طويلاً وضعا به الخط الأول على أعلى طابق فـي القـالب نـزولاً إلـى أدنـاه ، ووقفـا حـتى قـامت النـادلة بقص الجزء العلـوي الأجمـل الحـاوي علـى اسـميهما، وتمثــال صــغير مــن الحلــوى يمثــل عروسين يرقصان، وقدمته لهما كما جرت العـادة في مناسبات كهذه.

إذ ذاك تنـاول العريـس قطعـة مـن الحلـوى ولقمهـا لعروسـه، ومثلـه فعلـت هـي، حـتى أكملاهـا عـن آخرها، وهما يتبادلان كلاماً دافئاً لا يمكـن سـماعه بقدر ما يمكـن قـراءة تفاصيله علـى ملامـح تنطق بالعشق والفرح.

بعدها انتهـت طقـوس الفـرح كمـا هـو مرتـب لهـا تمامـاً بـأكبر قـدر مـن الأنـاقـة، وخـرج العريـس والعـروس ومـن حولهمـا الأهـالي لإيصـالهما إلـى الفندق الذي حظي باستضـافة أيامهمـا الأولـى معـاً

في جناح مخصص للعرسان، كانت السيارات تنهب الأرض نهباً، وأصوات أبواقها تشير إلى حياة جديدة توشك أن تبدأ منذ اللحظة.

وصل العروسان إلى الفندق، وودعا الأقارب وتوجها إلى غرفتهما، وعندما أغلق الرجل باب الغرفة، عانق زوجته مهنئاً...وهمس في أذنها قائلاً: أخيراً.. نحن معاً.

فأجابت: أخيراً..تصور.

كانت العروس قد بدأت تشعر بالدوار بعد أن أكلت الحلوى، إلا أنها أحست أن بإمكانها أن تتمالك نفسها، فلم تُشعر أحداً ممن حولها، ولا حتى زوجها بالتوعك الذي أصابها ولازمها طيلة ساعات الحفل، وأمسكت نفسها عن التداعي..فاليوم عرس أحلامها، ولا ينبغي له أن يتكدر بعارض صحي.

وقفت العروس أمام المرآة، وصورتها تتراقص أمام عينيها من شدة الدوار، وخلعت خواتمها

وأساورها، ثم رفعت ذراعيها لتنتزع القرط الذهبي من أذنيها، بينما دخل الزوج إلى الحمام قليلاً، وعندما خرج كانت عروسه مرتمية على الأرض دون حراك.

ربت العريس على وجهها، رش وجهها بالعطر إلا أنها لم تستجب، هزها قليلاً بين يديه، ولكن لا من مجيب، فحملها وركض نازلاً بها، بعد أن طلب من موظف الاستعلامات أن يؤمن له سيارة أجرة، وسرعان ما وضعها في السيارة ومضى بها إلى أقرب مشفى ..حيث كان القدر يجدل خيوط الأيام القادمة بتفاصيل قاتمة تربط بين شخصين لم يلتقيا حتى اللحظة .تفاصيل تحمل في طياتها جريرة الموت والحياة، جريرة الهوى.

وصل العريس بعروسه إلى قسم الإسعاف، وركض الطبيب المناوب، وقد هزّ ثوب الزفاف شيئاً كالرحمة في قلبه، أحضر سماعاته، وعندما قاس النبض تسمرت عيناه على وجهها، وبدا أنه غاب في مصادفات الحياة الغريبة، أن تكفن

عروس بثوب عرسها في تلك اللحظات..يا لـه مـن قدر غريب لها وللعريس المنكوب.

كانت لانتكاسة يد الطبيب بسماعته، وتلك النظرة الغائبة في اللامكان، واستدارته ببطء بعد أن كـان يركـض لإسـعاف الصـبية، معنـى واضـحاً أراد العريـس أن يتجـاهله، لكنـه عنـدما نظر إلـى وجـه الطـبيب هـز الأخيـر رأسـه يمنـة ويسـرة، ففهـم الرجـل أن عروسـه سـافرت إلـى مـا وراء الأفـق، إلـى عـالم آخـر، ولـم يعد فـي وسـعه أن ينظـر فـي عينيها معاتباً، وقد أخلفت وعدها لـه بـأن ترافقـه في كل لحظة من عمره، فإذا بها تتخلـى عنـه عنـد بوابة المستقبل قبل أن تقضي ساعة واحدة معه.

صار على الطبيب المناوب أن يعلق تميمـة المـوت على شهادة تخبر الجميع أن الفتاة قد فارقتهم قبل أن تخلع عنـها ثـوب الفـرح، وأن للفـرح انتكاسـات مفجعـة أحيانـاً، وأنـهـا مـاتت بسـبب ارتفـاع جرعـة الفـرح فـي أوردتهـا ممـا أعطاهـا رفاهيـة سـكر مرتفع بحلاوة يوم لم تعش حتى انقضائه فأكسبته

نهاية غير منتظرة موقعة بيد القدر، وكان على العريس أن يخبر أهلها، إلا أن عليه أولاً أن يصدق خبر هروبها إلى الضفة الأخرى، أخبره الطبيب بأن خير ما يفعله في مثل هذا الوقت، هو إيداع الجثة في المشفى حتى الصباح، وريثما يستطيع إخبار أهلها.

خرج العريس خالي الوفاض إلا من ورقة تافهة تثبت موت أمانيه، وتحدد باللحظة والدقيقة تاريخ انتهاء احتضار الأمل، ودخوله في فضاءات سديمية لا أحد يدرك كنهها، وبدلاً من أن يتأبط ذراع أحلامه، كان يتأبط ورقة مشؤومة أُرخ فيها لحالة ثكل مبكر ألمت بقلبه قبل أن يستعد لها، من أين أتى كل هذا الدخان الذي خنق الفرح في صدره بهذه السرعة، وكيف تركته هكذا دون أن تودعه، حتى ولو بكلمة؟؟..

بدأ يسترجع آخر كلماتها قبيل يوم العرس، يومها سهرا حتى الصباح يتحدثان على الهاتف، قالت له إنها تخاف أن تموت قبل أن يجمعهما بيت

واحد، فرد عليها أنه لم يبق إلا ساعات حتى يجمعهما هذا البيت فعلامَ الخوف؟

تراها أكانت تدري بأن رحلتها القصيرة شارفت على الانتهاء؟؟..

تراها أكانت تعلم بأنها وصلت إلى محطتها الأخيرة، ولم يبقَ لها إلا أن تترجل عن الحافلة المتحركة، وتحترف السكون؟؟..

ما الذي جعلها تخاف -ولم يتبقَ إلا ساعات معدودة على إغلاق ذلك الباب دونهما- من أنها لن تعيش حتى ترى ذلك اليوم؟؟..

أهيَ رؤيا أخفت تفاصيلها عنه لئلا تشاركه مائدة الوجع في وقت معدٍّ للفرح؟

تراها نبوءة؟

ما الذي جعلها تخبره بخوفها، وتكرره عليه كأنما هي تلح بكلماتها على ذاكرته بألا ينسى أنها كانت تعلم بتاريخ رحيلها مسبقاً؟؟..

لم يوقف العريس سيارة أجرة، ولا هو اتصل بأهلها، كانت الفجيعة تمشي في دمه، والصدمة تشل تفكيره، ومن جهة أخرى خشي إن هو فجعهم بخبر ابنتهم بتلك الطريقة، وذلك الوقت غير المتوقع، أن يؤذي أمها، فالأم مريضة بداء السكري، ولا يمكن مفاجأتها بخبر كهذا دون تفكير بعواقبه على صحتها..بل على حياتها كلها.

عاد العريس ماشياً إلى الفندق، وصعد إلى غرفته، دون أن يرد بكلمة واحدة على موظف الاستقبال الذي حاول أن يسأل عما إذا تحسن حال العروس، دخل غرفته، نظر إلى تفاصيل الفرح المؤجل حتى عمر آخر، إلى قلم الكحل المشدوه، إلى الإسورة المفجوعة، وإلى فردة قرط يتيم تركت توأمها في أذن العروس النائمة حتى إشعار آخر..لم يستطع أن يصدق أنه منذ قليل فقط كان هنا..يحاول لملمة الأماني عن هدبي حبيبته، ويحلم بالفرح وبالأولاد، وبأسرة يكتنفها الدفء.

نظر العريس إلى الساعة، وعزم في نفسه على انتظار ساعات الصباح الباكر، فلا فائدة من إخبار أهلها الآن، بأي حال ليس هناك ما يستطيعون فعله إلا انتظار مفجع لتسلم جسد بلا روح لعروس كانت منذ ساعات تملأ الوجود صخبا، فليناموا إذن ملء جفونهم مخدوعين بكذبة فرح مزيف.

في ذلك الوقت وضعت جثة العروس على نقالة متحركة ونزل بها الممرض المناوب إلى غرفة البرادات لإيداعها في البراد حتى الصباح، كما هي أصول التعامل مع حالات كهذه، عندما نظر الممرض إليها غالبه شعور عميق بالحزن، وشعر بأنه يريد البكاء، ليس لأنه يعرفها، بل لأن الموت باغتها في لحظات كانت تحتفي فيها بأجمل لحظات الحياة.

زفاف بارد:

وصل الممرض إلى غرفة البرادات حيث صطوف يقرأ رواية كعادته، و قد خرج من الحدود الباردة لغرفة من صقيع وموت إلى تفاصيل تلك الرواية، كان يعيشها في تلك اللحظة، بل يعيش بطولتها المطلقة، شاب وسيم تفتح له الحياة ذراعيها مرحبة به، وتهيم به النساء حباً، بينما قلبه معلق بواحدة فقط، لا يرى غيرها، حتى أن ملامحها الملائكية صارت ترتسم على كل وجه يراه ذلك البطل الوسيم، ابتسامتها تعلو كل شفاه يلمحها، وكان صطوف يشعر بنشوة الحب في أعماقه، وهو في حالة تقمص عميق لبطل الرواية، عندما دخل الممرض مقاطعاً الفرح المسروق من بين السطور.

عندما نظر صطوف إلى الجثة بفستان الزفاف الأبيض شعر بقشعريرة غريبة ، ونبتت الأسئلة في رأسه، كيف لها أن تموت في وقت كهذا؟ أما كان عليها أن تنتظر قليلاً..أو كثيراً؟؟..

لـم يتكلـم صـطوف، ولا الممـرض فعـل، اكتفـى الأخير بـترك جثـة عروس خذلها الفرح قبـل أن تمسك به متلبساً بالخداع، وخرج.

وقف صطوف أمام العروس يتأمل وجهها متـذمراً مـن مفارقـات القـدر، تفقـد الكحـل فـي عينيهـا، والبيـاض المحيـط بهـا مـن كـل صـوب، وخصـلة الشعر الهاربة وقد باغتها ثكل مبكر، وفردة قرط وحيدة منسية في أذنها، أوجعه قلبـه لموتهـا فـي ليلـة كهذه، أحس بشـيء مـا يتغيـر..يتحرك أمـام عينيـه، بـدأت قسـمات وجـه العـروس تأخـذ شـكلاً آخر شيئاً فشيئاً، بينما شفتاها تفتران عن نصف ابتسـامة يعرفهـا جيـداً، رأى فيهـا ملامـح مهـا، عينيهـا، شفتيها، لـون شـعرها، استدارة وجههـا، دقــة أنفهــا، ورائحــة الياســمين الــتي لازمــت حضـورها منـذ أن رآهـا للمـرة الأولـى، هـي مهـا مستلقية علـى سـرير مـن غيـم وياسـمين ووجـع وفقـد، مهـا جرحـه النـازف الـذي مـا عـرف منـه شفاء، اتقدت جمرة في قلبه لم تخبُ يومـاً، وشـعر

بانتكاسات الجرح في قلبه، هل تتداعى الأزمنة وتغير ترتيب تفاصيلها فيغدو المستحيل ممكناً والممكن مستحيلاً؟؟.. هل تنقلب الأيام فتصبح قصصاً مكتوبة على جدران العمر حتى يغدو بإمكانك أن تغير قدرك بمجرد أن تغير الحائط الذي تقف قبالته؟

أي جدار من عمره تهاوى..وأيها بُني من جديد؟ أي معجزة حلت في سمائه لتصبح مها هنا أمام عينيه..وبكل هذا البهاء.؟؟..

ما الذي يراه الآن إذن إن لم يكن معجزة؟

لم يكن بإمكانه في تلك اللحظات أن يبحث عن إجابات منطقية ..إذن فلتذهب الأسئلة إلى الجحيم..من يحتاج إليها عندما تضعه الحياة على مفترق حلم هارب..حلم مستحيل.

هل سيضيع حلمه بحثاً عن إجابات لا معنى لها..لا تفسير لغرابتها، هو الرجل المحمل بأسئلة لا إجابات لها منذ عمر سابق؟!.

لـم يعـد بإمكـانه أن يلملـم بعثرة نفسـه، أن يجمـع شـتات أنفاسـه، كـان المسـتحيل يقـف أمـام عينيـه دون تفسـير..ودون حـتى رجـاء منـه، متحـدياً كـل طاقة لـه على الفهم.

كيف حدث ذلك...لا يدري..

خطـوة واحـدة تفصـلـه عـن حلـم حيـاته، الـذهول يستتب به من كل جهة، مهـا..بشحمها ولحمهـا.. وبفستان الزفاف الأبيض، وبزينـة عروس تخطو خطواتها الأولى نحو بساتين الحب الخضـراء، أي بركة هذه التي حلت على عمـره دون موعد، لـولا أنـه يعلـم أن أمـه مـا أحبتـه يومـا لقـال إنـهـا دعـوة مباركـة منهـا، يـوم أن كـانت مريضـة، اسـتقبلتـها السمـاء بحفـاوة.

خطـوة واحـــدة...ينظر إليهـا ولا يصـدق عينيـه، تخـدرت أطرافـه، ونملـت أنـامله، تـوقفت الكـرة الأرضـية عـن الـدوران، وأعلنـت الـزلازل رحيلهـا نحـو كيـان صـغير، لا يتجـاوز جسـد رجـل ضـئيل

عاشق مجلل باليأس، وأضرب البحر عن مده وجزره، وابتلع القمر نوره، فتلك كانت خطوة واحدة..لكن نحو المستحيل فهل يعقل هذا؟؟..

لم يستطع البرد الذي يمدد قامته في غرفة كل ما فيها بارد، أن يخترق جلده، فقد تدفق الدفء في كل خلية من جسده، بينما بقي البرد واقفاً على مشارف جسده عاجزاً عن التوغل في جلده الذي يحتفي بحلم قديم.

لوهلة تجمدت أطرافه وأحاسيسه دفعة واحدة، ثم شعر فجأة بأنه يقتلع نفسه من جسد محنط أمام حلم لا ينبغي له أن يطوله، ويهيم في فضاء الغرفة بعيداً عن رائحة التحنيط التي فاحت من جسده، انشطر صطوف إلى رجلين، أحدهما يراقب الآخر بفضول ماجن دون صوت، والآخر متسمر تماماً أمام حلمه المستحيل.

ارتفع شطر صطوف المنفصل عنه إلى أعلى الغرفة حتى ارتطم بالسقف، واندفع البرد يبث

سمه في أطراف ذلك الشطر الذي بدأ يحصي سكنات شطره الواقف على الأرض دون حراك، وبقي خيط رقيق يشبه الدخان الأزرق، أو كأنه مصنوع من سحاب كثيف، يربطه بذلك الشطر الذي لا يشعر بالبرد بينما هو متسمر أمام العروس، وقد اندلعت من عينيه حرائق كانت تستعر في جوفه، لم يعد يفكر ساعتها، ولا حتى يقرر، لم يكن يشعر إلا بتلك الحرائق التي تشتعل في أطرافه وقلبه، بينما تجمد شطره الآخر عند السقف بارداً كصقيع ليلة شتوية عانق الثلج زوايا أرصفتها، يتابعه من علٍ مرتعشاً.

لم يعد صطوف الأرضي يشعر بشطره الآخر، وهو يتجمد برداً في فضاء الغرفة، انفصل عنه تماماً، وفيما عدا ذلك الخيط الذي صار يستدق شيئاً فشيئاً ويتلاشى في فضاء الغرفة، لم يبقَ هناك أي تواصل آخر بين الشطرين، حتى المشاعر التي تعتري كل منهما بدت متباينة تباين الثلج والفحم، أصبح وحده مع حبيبته الجميلة

في يوم زفافه، وتحول بعد قليل إلى رجل وسيم لا تشوبه شائبة، يرتدي بذلة أنيقة تليق باحتفالية حلم مجنون لم يكن ليتحقق إلا بمعجزة، والى جانبه امرأة رائعة الجمال، لا تنظر إليه تلك النظرة الباردة التي تطرده إلى أعماق الجحيم، بينما تحول المكان من حوله إلى جنة خضراء، تفوح من حناياها روائح الورد والفل، تغلبها رائحة الياسمين المنبعثة من العروس.

لحظات وأحس صطوف السقف الذي جمده البرد حتى صار كتمثال من الجليد بأن أمراً يوشك أن يحدث، أمر لا ينبغي له حتى أن يفكر أو يحلم به، فحاول أن يرتد إلى شطره الأرضي المستعر مستعيناً ببقايا الخيط الدخاني الذي تلاشت أغلب معالمه ، لكن ذلك الشطر أصبح تمثالا من الفولاذ يصعب اختراقه أو تحريكه أو إخراجه مما هو فيه.

أعاد صطوف السقف محاولته للعودة إلى جسده إلا أنه لم يفلح، فالحرارة الساكنة خلايا شطره

الآخـر تكـاد تـذيبه حـد الانصـهار، شـد شـطره الأرضـي، لكمـه، علـه يشد انتبـاهه، ويخرجـه مـن ذهـوله لكنــه عجـز، حيـث بـدأ صـطوف الأرض يقترب من العروس بخطوات بطيئة كـأنه مسلوب مـن نفسـه، وسـحب خصلات شـعرها إلـى الأمـام، وإذ لــم تنســحب معــه بســبب دبــابيس الشــعر المغروسـة لتثبـت تسـريحتها، شـد شـعرها بقـوة كانت لتصرخ ألماً منها لو أنهـا علـى قيد الحيـاة، وانــتزع بعـض الـدبابيس محـرراً خصـلات مـن مقدمـة شـعرها، جـذبها إلـى الأمـام، اطمـأن إلـى خصلات الشـعر وهـي تحيـط بوجههـا كمـا يحـب، وبــدأ يتحســس خــدها، ويحــدثها عــن مشــاعره وفرحـه بوجودهـا إلـى جـانبه، كـانت الحاجـة إلـى نشـوة الـروح فـي تلـك اللحظـات تفـوق لـديه أي حاجـة أخـرى، لـذلك أسـهب فـي رسـم التفاصـيل المرسومة بنار الشوق في ذاكرة الفقد.

لـم يكـن الأمـر مجـرد حلـم واجـه رجلا يئس مـن تحقيق أي حلم في حياته، حتى غدا متيقناً أنـه إنما

يعيش على حواف الموت منتظراً العبور إليه، فطالما ثمة حلم لديك ينكز خاصرة الأماني، وتحتويه الدنيا ،أنت تحيا وتموت عندما تستيقظ أحد الصباحات الكالحة التي غادرتها الشمس دون أن تترك فيها دفئاً لتجد أنك لم تعد تنتظر شيئاً..أي شيء، هذا هو الموت الحقيقي..أما العبور إلى الضفة الأخرى فهو الشكل المرئي للموت، والذي يصدق شطره غير المرئي، هناك أموات يعيشون بيننا، ولم يعبروا بعد إلى الضفة الأخرى، عالقين هم بين موت وموت، رغم أنهم يتحركون ويتنفسون ويأكلون ويشربون، وصطوف أحد أولئك العالقين، كان الأمر إذن أبعد من مجرد حلم قد يتحقق، بدت مشاعره مختلطة لا يمكن تفسيرها أو تأويلها، تحمل الشيء ونقيضه في كفة واحدة ، ثمة شقوق متقيحة تنز وجعاً في قلب يقف أمام حلمه المستحيل للمرة الأولى والأخيرة من عمر قضاه يمضغ خيبته وحيداً، ثمة رجل مهزوم ما عرف طعم الانتصار يوماً، يقف عارياً بضعفه أمام غريمته المرأة التي

سرقت منه الحياة، موقف هو للمرة الأولى رغم ضعفه وعريه قادر على أن يدير فيه دفة الانتصار إلى صفه، ثمة رجل لم يُقدَّر له أن يشعر بلمسة حب واحدة من امرأة مهما كانت صفتها حتى أمه، وهناك زوج مخدوع هجرته زوجته بعد أن أقسم أن يقدم لها روحه، وأن يغدو فارساً وفرساً لها لتهرب من أوجاعها ، ثمة إنسان فجع بهزائم نكراء وخسارات موجعة في كل يوم من حياته، وهناك طفل هجرته أمه، وأرسلته إلى أعماق الجحيم بنظرة واحدة منها، كل أولئك الأشخاص كانوا يتصارعون في أعماقه في لحظة واحدة، وكلهم دون استثناء كانوا يريدون شيئاً واحداً لأسباب مختلفة ،هائمة بين العشق والحنان والرغبة والانتقام والتكفير، وما بين عاشق حالم، وزوج مخدوع، ورجل مهزوم، وطفل معذب، كان لا بد لجسد امرأة واحدة أن يتحمل الوصل والانتقام، الحب والكره في اللحظة نفسها .

لم تكن برودة الموت قد سكنت جسد العروس بعد، ولو فعلت ربما كانت تلك البرودة ذكرته بجسد بارد قضى إلى جواره ليلة واحدة من عمره، لم يسامح أمه ولا نفسه بعدها، كان ليتراجع بعيداً عنها وبأقصى سرعة لو أن جسدها كان بارداً، إلا أن جسد العروس كان يحمل دفء الحياة في لحظاتها الأخيرة رغم فراقه لها، ذلك أنه لم يمضِ وقتٌ كافٍ لطرد حرارة الحياة من الجسد الميت، وبالنسبة له فإن الجسد المرتدي ثوب زفاف تفوح منه رائحة الياسمين -كما خيل له- لم يكن يحمل دفء الحياة فقط ..بل كان يحمل الحياة نفسها.

كان صطوف الأرض في غاية السعادة وهو يطارد تلك التفاصيل الصغيرة لحلمه الذي لم يغادره إلا بخيبة، فرفع كفها وقبله، بدأ يشم رائحة الياسمين وقد غشيت المكان برقة أريجها، ولم يعد يرى برادات الموتى وجدران المشفى، فقد رسم له خياله مكاناً أسطورياً يليق بحلم

مستحيل، وزفاف ليس له مثيل على الأرض. بينما تجمد الشطر الآخر لصطوف في السقف مديراً ظهره إلى ما لم يستطع أن يتحمل رؤية حدوثه دون أن يفعل شيئاً، عاجزاً تماماً عن منع نصفه من ممارسة ما يعلم أنه رذيلة سوف يعيش بقية عمره يكفر عنها دون أن يتمكن، لذلك أغمض عينيه، وأدار ظهره متوارياً خلف بشاعة عجزه عن منع شطره الآخر من اقتراف تلك الجريمة الملعونة، من ذا الذي يمكنه اختراق قدسية الموت بدم بارد، دون أن تلاحقه لعنة الموت وتورق في شرايينه؟ صار شطر السقف منكمشاً بشدة حتى كأنه سوف يتلاشى ويضيع في زوايا ذلك السقف إلى الأبد، مرتعداً..بارداً...وكمن يمر بطقوس احتضاره.

مد صطوف الأرضي يده إلى فستان العروس الناصع، وبدأ يفك أزرار الفستان اللؤلئية الأمامية واحداً تلو الآخر بآلية تنبئ بمدى استلابه بفكرة واحدة، حلمه المستحيل الذي أصبح قاب قوسين

من التحقيق، ثم فتح الأزرار وشد الفستان إلى الأسفل دون أن يخلعه عنها تماماً، وطرحها فوقه، بعدها ارتفعت يداه إلى شعرها المشدود إلى الخلف من تحت تاج مرتبط بطرحة العرس، وبدأ يمسح عليه بيده مقترباً منها حد الالتصاق.

دقائق بعدها وسكن كل شيء، فتح صطوف السقف عينيه، وأدار وجهه ببطء متحسباً كمن يتقي أن يرى ما لا يسره، فوجد أن ما خشي وقوعه قد حدث بالفعل، جريمة كاملة مذيلة بتوقيع الفاعل ببقع من دمه، إثر خدوش سببتها دبابيس الشعر التي انتزعها من رأسها وهي تنغرس في فخذه فتدميه دون أن يلقي لذلك بالاً، أو حتى يشعر بألم انغراس الدبابيس ، وأخرى من بقايا دم لم يتجمد بعد في عروق الفتاة، وبينما لوثت بقع الدم فستان الزفاف الأبيض لفتاة فقدت عذريتها بعد الموت كما لا يحدث عادة، كان صطوف الأرض قد ألقى بسائله في جوف جثة امرأة لم يعد في مقدورها أن تدفعه عنها، أو

تستسلم له بعد دفاع مرير، و مرة أخرى لم يكن يعني تلك الكائنات الصغيرة الغارقة في سائل دافئ داخل نفق مظلم في أحشاء امرأة ميتة أن تكون قد حشرت قسراً في مكان ليس عليها أن تخترقه، ولا حتى كونها تسبح في جوف جثة هامدة لا حياة فيها، كل ما كان يهمها هو التسابق المحموم الذي لا تتقن غيره، إلا أنها هذه المرة كانت تتسابق نحو الموت فقط دون الحياة.

ارتعد الأخير، وبدا أنه في حيرة من أمره، ماذا يمكنه أن يفعل في حال كهذا وأمام مصيبة كتلك؟ كيف يصحح خطأ هو خطؤه بطريقة أو بأخرى، بدأ الشطر الهارب يهبط من عليائه رويداً رويدا ، بينما ملامح الذهول تبدو واضحة عليه، ليعود إلى حيث ينتمي.. إلى جسد أصبح خاطئاً.. وخطيئة لا تغتفر.

وما أن التحم الشطران مرة أخرى حتى انتفض جسد صطوف بقوة، وكأنه بوغت بما اقترفت يداه منذ لحظات قليلة، نظر حوله غير مصدق لما

جرى، كاد قلبه أن يقتلع من بين دفتي صدره، ورفع كفيه مغطياً بهما وجهه كأنه يتلافى رؤية آثار جريمة لا يصدق أنه من اقترفها.

لحظات وقرر بعدها أن أفضل ما يمكنه فعله هو مواراة ما حدث، فبدأ يعيد فستان العروس إلى جسدها الميت الذي بدا بارداً تماماً، بخلاف ما كان قبيل دقائق، اقشعر جسد صطوف وهو يعيد الفستان ويشبك الأزرار بعراها، محاولاً تحري كل التفاصيل التي كانت قبيل اقتحامه خلوة موتها، وغسل بقع الدم محاولاً ألا يبقي أثراً يشير إلى جريمته، ثم وضعها حيث يجب أن تكون في رحم براد الموتى، وقلبه يرتجف.

جلس بعدها على مكتبه، محاولاً أن يستعيد رباطة جأشه، وأن يبدو كأي يوم آخر، ريثما يحضر من يستلم الجثة، إلا أن الجثث المتواجدة في المكان نفسه كانت تحاصره، تخنقه، بينما بدأت أوصاله ترتجف وتقلصت ملامحه بشكل واضح وقد تغير كل شيء فيه دون أن يشعر.

ما هي إلا ساعة أو أكثر قليلاً، حتى اقتحم خلوة جحيمه ثلاثة رجال، طالبين تسليمهم جثة العروس بعد أن أعطوه تصريحاً بالدفن يحمل اسمها، فتح الورقة ونظر إلى حيث يكتب الاسم، كان اسمها فاتن..تلك التي تقمصت ملامح حبيبته، ولم يكن اسمها مها، كان القادمون أبوها وأخواها، دون زوجها الذي خرج ليشتري لها قبراً يدفنها فيه مع جزء من قلبه، ارتبك صطوف وهو يتجه إلى الثلاجة متظاهراً بأنه أخطأ مكانها ليكسب بعض الوقت لاستعادة أنفاسه، ثم عاد إلى الثلاجة الصحيحة، وأخرج جثتها وقد اصفر وجهه، وارتفعت دقات قلبه حتى كادت تسمع الرجال الثلاثة إيقاع ضربات قلبه المرتعش، وتمزقت أعصابه لشدة ما توترت.

وما أن وضعها أمامهم، حتى حانت من أحد الشابين التفاتة إلى بقعة دم على ثوبها لم يُجدْ صطوف التخلص منها ، ثم حول بصره إلى بقية الثوب مكتشفاً بقعاً أخرى غسلت قبل قليل، إلا أن

آثارها لم تمحَ كما يجب، فبقيت شاهداً على اغتصاب لعفة فتاة تقابل وجه ربها.

اندفع الشاب بعد أن تيقن من بقعة الدم المنسية، وخصلات الشعر المنسدلة بفوضى واضحة، وأزرار شُبكت بطريقة خاطئة كأنما هي شُبكت على عجل وارتباك، على غير عادة العروس يوم زفافها، محاولاً قتل صطوف، وعلا صوته هادراً في المشفى مما جمع موظفي المناوبة الليلية، بينما انبرى ثلاثة رجال فجعوا مرتين في ابنتهم، في ليلة كان يفترض أن تكون مناسبة سعيدة لها و لهم، يتداولون صطوف باللكمات بينهم، وقد أخفى الأخير وجهه بين ذراعيه متلافياً لكمات تنهمرعلى وجهه.

لم يكن صطوف، وهو الرجل الذكي الدقيق في ترتيب أصغر التفاصيل، عاجزاً عن تشبيك الأزرار بطريقة صحيحة، ولا عن غسل بقع الدم، إلا أن جزءاً منه كان يتمنى أن تكتشف جريمته، وأن يعاقب عليها أشد عقاب.

ذلك الجزء الذي انفلت منه في غفلة من وعيه، وهرب عالياً إلى حيث لا يمكن أن يصبح شريكاً في جريمة انتهاك قدسية الموت، وعفة صبية فارقت الحياة في أجمل لحظات عمرها، هو الجزء نفسه الذي غيب عن نصفه الآخر تفاصيل إخفاء الشواهد التي قد تشي بجريمته القذرة، فجعله يشبك الأزرار بطريقة خاطئة، رغم أنه ما زال ذلك النجار الذي كان بوسعه أن يركب القطع الصغيرة في مكانها بدقة تجعل من عمله شيئاً استثنائياً لشدة اكتماله.

ولم يمض وقت طويل إلا وكانت الشرطة قد حضرت، وسرعان ما فهم الضابط المسؤول التهمة الموجهة لصطوف، وأدرك أنه فاعلها من تلك التفاصيل الصغيرة، ومن لونه الأصفر وأعصابه المتوترة، فألقى القبض عليه بعد اتهامه رسمياً من قبل الأخ الكبير بالاعتداء على حرمة ميتة.

مشـــى صــطوف برفقـــة الشــرطة مكللاً بالعــار، خافضاً رأسه نحو الأرض، متجنباً مواجهة عيـون زملاء العمـل الـذين تجمعـوا بعـد أن سـمعوا جلبـة غيـر متوقعـة فـي وقـت مبكـر كهـذا، كـان يمـر فـي رواق المشــفى الــذي اعتــاد أن يقطعــه مرتيــن يومياً، وكأنـه يراه للمـرة الأولـى، بـدا أطـول بكـثير ممــا اعتــاد عليــه، حــتى خــال أنــه لــن ينتهـي إلا بانتهـاء عمـره، وفـي آخـره ذلـك البـاب العريـض الذي رغم رؤيتـه لـه ومروره بـه كل يوم، إلا أنـه للمـرة الأولـى يخـاله فكيـن كـبيرين لـوحش ينـوي قضمه وابتلاعه.

وراء القضبان:

هكـذا إذن يـا صـطوف، كـان عليـك أن تنشـطر إلـى نصـفين لتحقـق حلمـاً وحيـداً راودك ليـالي صـبا مضى، ورفض أن يتركك في حالك، كان عليك أن

تصبح هابيل وقابيل معاً في لحظة واحدة، أن تتقاتل مع نفسك، وتنتصر لأحد الشطرين.

هل كان عليك أن تنتصر لشطرك الشرير؟

من قال إنه شرير؟! لم يكن كذلك تماماً، كان مجرد طفل بردان يتدثر بحلم وحيد، أن يحتويه قلب وجسد امرأة يحبها لمرة واحدة، وليمت بعدها.

وهل كان النصف الآخر شريراً؟

لا أبداً..كان ذلك النصف المثالي الناصع الذي أراد أن يمنع شطرا منه من اقتراف خطيئة لن يغفرها لنفسه ما دام حياً.

كيف استطاع نصفك أن يصم أذنيه عن نصفك الآخر؟ أن يطرده خارجاً، ويحكم الأبواب والمنافذ دونه بقوة.

أراد صطوف أن يشعر بالندم، إلا أن ذلك الدفء الذي خالجه واستكان في قلبه لم يسمح له بيوم

واحد من الدفء..لا ليس يوماً.. دقائق فقط لكنها أشعّت في كل سنيه الباردة، هل هذا كثير على إنسان لم يعرف معنى الدفء في حياته؟ نصف صطوف يقرع نصفه الآخر، والآخر عاجز تماماً عن الندم، عاجز عن التوبة..عاجز عن اصطناع الحزن، فذلك الدفء – من وجهة نظره- كان يستحق أن يخسر حياته لأجله، بل إن حياته كلها أقل قيمة منه، ذلك الدفء الذي يراه شطر منه جريمة لا تغتفر.

لم يكن سهلا على صطوف بعد ذلك أن يعود كما كان، فيلتحم شطراه المتخاصمان ليعودا كائناً واحداً وحيداً، أصبح ذلك الالتحام مستحيلاً، وسرعان ما احتل شطره الدافئ المكان كله، خانقاً الشطر الناصع منه بعد أن نفاه إلى أبعد زاوية ممكنة في عمق نفس لها من العمق ما يمكن أن يخفي قارة.

لم يستسلم الشطر الناصع والنادم منه إلى الإقصاء الذي فرض عليه بتلك السهولة، ولا كان

ممكناً له أن يختفي من الحياة بهذه البساطة رغم إجراءات الدفن المتعمد التي قام بها صاحبه، كان عليه أن يقرعه، أن يقتلع الأمان من صدره، أن يطحن أعصابه، عقاباً له على ما اقترف، وهو لن يغفر له خطيئته بهذه السهولة، لن يغفرها مطلقاً، سيعيش لكي يعاقب شطره الآثم على ما اقترف، فتلك جريمة لا تغتفر..وربما كانت الأولى من نوعها على سطح الأرض..فعلى الأقل هو لم يسمع بمن اقترف مثل ذلك قبل تلك اللحظة، لذلك أصبح هذا الشطر الناصع المدفون في أقصى أعماق نفسه لا يظهر إلا عندما تغفو سطوة الشطر الأقوى..الشطر الذي شعر بالدفء فاستبدت به الحياة، ولم يعد يقيم للموت وزناً.

صار يزوره بشكل كوابيس تؤرق نومه..تعذبه، وتحيل سكينته إلى حلم صيفي عابر غير قابل للتحقيق.

في أول ليلة في السجن، وبعد أن أنهى المحقق استجوابه، واعترف صطوف بكل ما فعل دون

اكتراث كمن استعاد حقا لـه مـن مغتصب، لـم يكـن استحضــار النــوم أمــرا ســهلا فــي ظـل كـل تلـك المتغيرات والأحداث التي عصفت في يوم واحد من حياته، هو الذي ما تغير في حياته شيء واحد منذ عرف أنه على قيد عيش مؤجل، فبقي ساهراً حـتى الصـباح يستحضـر دفئاً سـكن حنايـا روح مدمرة.

مرت ساعات الصباح التـالي عليـه موجعـة حتى بـترت أطـراف روحـه، كـانت الـدقائق تنغرس فـي عمق قلبه وتأبى أن ترحل رغم كل شيء، بانتظار ليل تأخر وصوله كثيراً، ولمـا أحكم الليـل قبضته علـى فضـاء السـجن أخيـراً كـان النعـاس قـد ألـمَّ بصطوف تماماً، وضـع رأسـه علـى المخـدة العفنـة الخشـنة، وأدارهـا عـدة مـرات علهـا تريـح رقبتـه قليلاً، واسـتدار مـرات مـن جهـة لأخـرى، ثـم عـاد وقام، وعدل من فراشـه النتن، حتى استقر علـى وضـع أقـل إيلامـاً مـن غيـره وغفـا أخيـراً، ومـا أن أسلم روحه لطائر النوم مرتفعاً عن كـل التفاصيل

المقززة التي تحيط به، حتى زارته تلك الجثة لتشاركه ليلة دامية، بدا لونها في الحلم مخيفاً مائلاً نحو الازرقاق، ورغم أنه رأى الكثير من الجثث المرعبة والمشوهة إثر حوادث سير، وحرائق، وسقوط من أمكنة عالية، إلا أنه لم يخفْ يوماً كما خاف عندما اقتربت منه تلك الجثة في منامه فاتحة عينيها، مبدية له تلك النظرة الباردة ذاتها التي استبدت به منذ غزا الحياة بروحه، وغزته بتشوه وكراهية، كانت الجثة تقترب منه شيئاً فشيئاً بخطى مترنحة تريد السقوط، ونظرة باردة تخبره بأن يبتعد فليس ثمة مكان له ها هنا، ارتعد صطوف وهو يرى أن المسافة بينهما صارت صغيرة جداً، وبدأ يتراجع نحو الوراء محاولاً الابتعاد عنها ما أمكن، فإذا به يقع في هوة عميقة سوداء تبتلعه وصوته، وجسده، وحتى شطره الناصع.

استيقظ صطوف وقد كدَّه العرق، وارتفعت دقات قلبه حتى أوشك أن يسمعها بأذنيه دون مجهود

يـذكر، بعـدها جافـاه النـوم وتقلـب يمينـاً ويسـاراً محـاولاً أن يستحضـر النـوم مـرة أخـرى، إلا أنــه ذهب إلى غير رجعة، تاركاً مكانه لعينين باردتين، ووجـه أزرق مخيـف، ونظرات تطفو فـوق بركـان مـن المشـاعر البشـعة، وشـعور عميـق بالسـقوط يختلج كل جارحة من جوارحه.

عاد النهار يبتر جزءاً آخر من روحه، كابد شعوراً قاسياً بالتعب والإجهاد طيلـة سـاعات النـهـار الـتي بـدت كمـن تغيظـه بتطاولـهـا، حاملـة لـه الكثير مـن التعليقــات الجارحــة، والنظــرات المحتقــرة الــتي وجهها إليه السجناء، فهم ورغم كونهم سـارقين ومجرمين وبائعي مخدرات، إلا أنهم لم يستطيعوا تحمل انتهاك حرمة الموت وعفة جثة، فذلك جرم لا يغتفــر، وكمــا أن للحيــاة قوانينهــا، فللمــوت قوانينه أيضـاً، أولهـا وأهمهـا أنـه لا عبـث مـع مـن احتمى بمظلته من جور الأحياء.

عدا عن ذلك فكل منهم اعتقد بدوره أن صطوف اعتاد على انتهاك حرمة الموت طيلة فترة عملـه،

إلا أنه لم يكتشف أمره حتى ذلك اليوم، لذلك تمنى كل واحد منهم له أن يشنق ألف مرة ، وبأبشع طريقة ممكنة انتقاماً لحرمة الأموات وعفتهم، وتأديباً لمن تسول له نفسه بانتهاك تلك الحرمة المقدسة من بعده.

كابد صطوف شعورا عميقا بالإعياء، وشعر بعبء وجوده بين أشخاص يرونه سفيراً للشيطان، هذا الشعور لم يكن جديداً عليه بل هو يعرفه تماماً، إلا أنه زاد من وطأة اليأس والكآبة في حنايا روحه، وما أن عاد الليل ليستلم راية الوقت، حتى عاد هو إلى التقلب محاولاً استجلاب النوم، وما أن أسلم عينيه للنوم حتى جاءت..هذه المرة مها، كانت تحكم كفيها حول رقبته بقوة غير عادية، تقطعت أنفاسه فعلاً، وأحس بالاختناق، وبدأ يشعر بدبيب الموت في أوصاله..لم يكن حلماً.. كان الموت حقيقة يزحف إليه رويدا رويداً، يقتله خلية خلية، متلذذاً بموته البطيء، وكان يشعر بذلك الموت الذي يزحف

نحوه، وقد كاد ينهي آخر أنفاسه التي بدأت تتحشرج، لتخرج بصعوبة من صدره كما تدخل، واستفاق مرة أخرى، وجافاه النوم، تاركاً خلفه ملمس يدين ناعمتين تتقنان الخنق جيداً، وإحساساً عارماً بدبيب الموت، وأنفاسا متقطعة، ونظرات باردة كفحيح حية تصرخ به دون صوت بأن لا مكان لك هنا، والأجدر بك أن تبتعد.

بدأت ملامح صطوف تتغير إثر كوابيس الليل المدمرة، والأرق الذي تخلفه بعدها، ففقد شهيته لكل شيء، وغزت هالتان سوداوان محيط عينيه، بينما كان يبدو وكأنه يضمحل ويتلاشى يوماً بعد يوم، بعد ثلاثة أيام عذبته فيها الكوابيس حداً جعل الموت أمنية له.

<u>الزيارة اليتيمة:</u>

بعد أيام قضاها صطوف في السجن يصارع نفسه، زاره أخوه سالم، لم يستطع صطوف أن ينظر في عيني أخيه، كان يشعر في قرار نفسه

بأن أمره مفتضح أمـام سـالم، وأن أخـاه يعلـم بـأنـه عندما ضاجع جثة العروس لم يكن في قرار نفسـه يضـاجع امـرأة إلا مهـا ،زوجـة سـالم، وأنـه لـم يـرَ ولم يحلم بغيرها مطلقاً.

لم يتكلم سالم، لم يسأله لماذا فعلت ذلك؟ رغم أنه كـان يتحـرق لـذلك، فقـد كـان الأمـر عصـياً علـى فهمـه، اكتفـى بسـؤاله عـن حـالـه وإعطـائه بعض الأطعمـة ، وبطانيـة ووسـادة، وكـأنـه يعلـم بحـال الوسائد والأغطيـة المـزري فـي السـجن ورائحتهـا النتنة،تلقفهـــا الأخيـر بامتنـــان وبشـــعور خفـــي بالخجل، متجنباً أن تلتقي عيناه بعيني أخيه، وهـو يدمـدم كلمـات الشـكر، لـم يكـن تفسـير ذلـك عصـي على سـالم، فقـد اعتقـد أن مـا رآه هـو أمـارات نـدم وخجل مما اقترفه، ولـم يخطـر فـي بـالـه أن الأمـر يمكن أن يمسه شخصياً.

فـي آخـر الزيـارة أطلـع سـالم أخـاه علـى تفاصيل تعيين محام له يقوم بالـدفاع عنـه، بعد أن وجهـت إليه التهمة بشكل رسمي، لـم يجـبْ صـطوف، ولا

هو استفهم حتى عن اسم هذا الرجل الذي سوف يتولى الدفاع عنه، كأن الأمر لا يعنيه إطلاقاً، لكنه طلب من أخيه أن يتولى أمر القط الأعور الصغير، فأجابه سالم أن القط قد مات، تغير وجه صطوف إثر سماعه الخبر فسأل بلهفة : متى..كيف؟..ولماذا لم تخبرني بذلك؟

أجابه أخوه إنه ميت منذ زمن، وأكمل بضع عبارات أخرى وصلته متقطعة، ولم يستطع فك طلاسم حروفها التي تراكبت في رأسه بسبب الذهول الذي باغته بعد سماع الخبر، عانقه ومضى، الغريب أن شعوراً آخر بالدفء.. الدفء النقي..دفء العائلة تسرب إليه من مسام أخيه، وفاحت رائحته في الزنزانة شيئاً فشيئاً.رغم مشاعر اليتم التي باغتته إثر سماع خبر موت قطه .

لسبب ما كان يخالج سالم شعور دائم منذ كان طفلاً بأنه مسؤول عن صطوف، ربما لأنه كان يشعر بمدى عزلته وخوفه من الناس، أو لأنه

أكبر منه، وهو عالم أن شقيقهما الأكبر لا يأبه بأحد مطلقا إلا نفسه، لذلك تقمص مكانه، أو لأنه يعلم جيداً أن أمهما لم تطقْ هذا الصطوف يوماً، لم يعرف مرة سبب هذا الشعور بالمسؤولية، خاصة وأنه الأخ الأوسط وليس الكبير، إلا أن ذلك الشعور المبهم ما بارحه يوماً ، كان ذلك الإحساس تجاه أخيه تفوح منه رائحة الأبوة أكثر مما هو أخوة، كأنه هو الذي أنجبه وألقى به في جحيم الخوف، وفي زاوية قصية لا تسمح له بالانصهار مع العائلة، وكأن عليه أن يدفع ثمن ولادة أخيه الصغير، وكره أمه له.

خرج سالم متألماً بعد زيارة أخيه في السجن أكثر مما كان عند دخوله ، كان يشعر بأوجاع هذا الكائن المحتبس داخل نفسه، أراد أن يخبره بأنه يحبه وسيقف إلى جانبه مهما حدث، إلا أنه لم يتمكن من الكلام، شيء ما منعه من إظهار مشاعره, ولم يكن ذلك غريباً على رجل كسالم، فذاك كان طبعا من طباعه، اعتادت مشاعره أن

تزحف تحت جلده دون صوت، أن تنغرس في لحمه، أن توجعه، إلا أنها لم تعتدْ أبداً الظهور علناً إلى حيث تلتقطها العيون الأخرى، لذلك اكتفى أخيراً باحتضان أخيه مودعاً، والخروج جرياً قبل أن تنهمر دموعه، ذلك الاحتضان رغم ما سربه لصطوف من الدفء، إلا أن حرارته استعرت بعد قليل في جوفه، صارت جحيماً يصلي أضلاعه بنار الندم، ويكوي روحه بلهيبها، فآخر من يريد رؤيته هو سالم..كيف إذن باحتضانه هو الكائن القذر الذي يحلم بزوجة أخيه.

تلك الليلة كانت مشاعره معقدة، كان ينتحب في داخله دون صوت، فهي الليلة الأولى التي حاكم نفسه فيها فعلاً، هو الذي تعرف على الحب بشكل مغلوط، كان الحب بالنسبة إليه أن يلتحف مكاناً قصياً لكي تقبله أمه، في تلك اللحظة أحس فعلاً بالسقوط، كيف حدث لمن التزم العمر كله بالفضيلة أن يسقط عند أول اختبار، هل كان يلتزم الفضيلة فعلاً أم أن الظروف هي التي حبسته في

ذلك الركن النقي لتلك الفضيلة المفترضة، ولم تسمح له بالخروج منه؟

هل هو ساقط منحرف كما يقول عنه السجناء؟

كيف حدث كل ذلك؟ هو نفسه لا يملك أي إيضاح يواجه به ذلك الصراع الحاد الذي ينشب في داخله، كل ما يذكره أنه رأى مها فجأة، وكان موقناً أن ذاك اليوم هو يوم زفافه وأنها عروسه، وأن رائحة الياسمين فاحت في الغرفة ولم يعد يرى ثلاجات الموتى بشكلها البغيض، كأنه عاد إلى تلك الفترة التي كانت تحتل فيها سكناته، لم تكن يومها مها زوجة أخيه، بل كانت حبيبته فقط، للحظات تحول كل ما حوله وكأنه مشهد سينمائي في أستوديو تم إعداده بطريقة مثالية جدا لتلائم أحلامه التي كتبت تلك التفاصيل على أوتار قلبه وأعصابه، تلك الأحلام التي كانت تراوده فيما يسابق خطواته للوصول إلى البيت لرؤيتها كل ثلاثاء، ويستلقي مساء الاثنين بانتظار الغد، هو الحلم نفسه، باستثناء أنه كان بإمكانه أن يرى

نفسه رجلاً وسيماً كاملاً لا تشوه على ملامحه، ويراها وهي في السادسة عشرة من العمر تهفو إليه بثوب الفرح، كيف بإمكان إنسان أن يرى ملامح شخص في آخر؟! وأن يستبدل الجثة بجسد حي ينبض بالحرارة والحب؟! كأن الروح عادت إلى تلك الجثة فانتفضت الحياة في عروقها دفئاً..كيف حدث ذلك؟ هو نفسه لا يدري..لا يعلم تفسيراً واحداً لحادثة سوف تنهي حياته بطريقة أو بأخرى.

حتى قطه الصغير غادره عندما سقط..حتى ذلك الحيوان رفض أن يظل رفيقاً لكائن قذر مثله.. يا الله كم كان يتوق في تلك اللحظة إلى احتضان كائنه الفرائي الصغير، والحديث معه..ذلك الذي غادره دون رجعة..ودون وداع.

عندما استلقى تلك الليلة واضعاً رأسه على مخدة نظيفة، ملتحفاً بطانية أخيه، تحولت البطانية بعد قليل إلى صفيحة سميكة مدببة من الفولاذ تنغرس على سطحها الملامس لجسده آلاف المسامير،

وتتوضع بثقلها على صدره.بعد قليل كان أخوه سالم يقف فوق البطانية دون أن ينتبه إلى مكان وقوفه فوق صدر أخيه، حاملاً بين يديه رفيق صطوف الفرائي الصغير، بينما القط يشيح بوجهه عنه كأنه لا يريد أن يراه، بدأ وزن أخيه يضغط بتلك الرؤوس المدببة فتنغرس في صدره عميقاً، فيئن من وطأة الألم، بينما ينبثق الدم من آلاف الثقوب التي فتحت في صدره وينساب الدم على الأرض أسود نتنا تفوح منه رائحة العفن، ومن ورائه تلوح عينا مها بنظراتها المتشفية، كان سالم يحاول أن يساعده على النهوض ممسكاً يده، ورغم أن صطوف يحاول إبعاده عن صدره إلا أن سالم لا يبتعد ولا يعير التفاتاً إلى مكان قدميه فوق صدر أخيه الأصغر لتنغرس تلك الرؤوس أكثر فأكثر في صدره وتمزقه بوحشية ، أصابه الاختناق مرة أخرى، وبدأت أنفاسه تتقطع عندما استيقظ كما كل يوم قبيل الاختناق بثوان.

في اليوم التالي زاره المحامي، لم يكن لديه ما يقوله له، كانت روحه تعلن الحداد لفراق كائنه الفرائي،ومن جهة أخرى كيف له أن يتكلم؟ كيف يفسر له تلك الحاجة الملحة لدفء لم يعرفه يوماً ؟ وكيف بإمكان رجل مثل هذا أن يفهم أن من كانت في صحبته حقيقة هي مها، ولم تكُ ساعتها قد تزوجت أخاه، وكيف يخبره أنه أصلاً لم يكن في مكان عمله، بل كان في جناح أسطوري يشبه حلمه الوحيد.

وأي عذر أقبح من ذنب يمكنه أن يطلعه على تفاصيله؟

يومها أخبره المحامي أنه سوف يواجه تهماً عديدة، منها إساءة استخدام صلاحيته كموظف، والسلطة الممنوحة إليه في الوظيفة، ومنها الاعتداء على حرمة جثة ، وأنه سوف يواجه حكماً بالسجن يتراوح بين ثلاث إلى ست سنوات.

لم يكن هذا ما يقلق صطوف حقيقة، ما كان يهمه أكثر هو تلك الكوابيس التي تغلي في رأسه، والمحاولات المتكررة لخنق أنفاسه، تلك التي تنتهي كل مرة باستيقاظه قبيل الموت بلحظة متمنياً الموت من كل جوارحه، الكوابيس التي صيرت حياته جحيماً لا يطاق، أقل منها بكثير أن يخبره أحدهم أنه سوف يسجن، هو الذي ما كان يوماً إلا سجين المساحات الفارغة للزوايا القصية في القلب والذاكرة.

ليلة أخرى، ومحاولة أخرى لخنقه، أصابع أنثوية تضغط على رقبته، وتسد أنفه وفمه، وتطبق على صدره، وتسمره في مكانه بكل ما أوتيت من قوة، هذه المرة لم تكن مها وحدها، ولا حتى الجثة، بل مها، والجثة، وأمه، وزوجته، وكل امرأة مرت في حياته مروراً عابراً، كجارة أو زميلة لم يفها حقها حتى لو بإلقاء تحية، بينما صوت القط يعلو ويعلو في رأسه، وهو ينعته بالمشوه، والقذر، والمسخ، حتى كاد يجن، وكما هي العادة منذ تلك

الليلة المشؤومة، لم يكد يستحضر النوم بصعوبة بالغة إلا وأيقظه الكابوس قبيل اختناقه، كان يشعر برغبة عارمة في أن يضرب رأسه بقضبان السجن أو بأرضه، أو أن يغرس في صدره سكيناً يخلصه من هذا العذاب، كان قد وصل إلى حافة الانهيار فعلاً ولم يعد لديه مهرب منه.

صبيحة اليوم التالي، بعد أن تحول صطوف إلى شبح رجل معذب، تكابده الأوجاع، وجلس في زاويته لا يطيق منها حراكاً، اقترب السجان من القضبان حاملاً بين يديه جريدة، ووجه حديثه إلى صطوف قائلاً:" انظر أيها القذر..لقد أصبحت نجماً..صورك تملأ الجرائد...".

رفع صطوف عينيه بتعب شديد ودونما اهتمام إلى وجه السجان، ثم إلى الجريدة، كأنه لا يكفيه ما يعاني حتى ينشروا صورة قبحه في جريدة تتداولها آلاف الأيدي، هو الذي كان يمشي خافضاً رأسه، متحرياً أن يقلص عدد مشاهدي وجهه إلى أقل ما يمكن.

نشر السجان صفحة الجريدة المقصودة على القضبان بطريقة استعراضية مكملاً:" انظر هنا أيها الوسخ..هل كنت تحلم يوماً أن ترى وجهك القبيح في الجرائد؟"

في الحقيقة كان ذلك أقصى عقوبة يمكن تطبيقها عليه، أقسى حتى من سجنه مدى العمر، أو من إعدامه شنقاً حتى الموت، وقعت عينا صطوف على صورته في الجريدة، فانتفض واقفاً، وخطفها من يد السجان الذي نظر إليه مستنكراً، تسمرت عيناه على الصورة دقائق، أمعن فيها النظر إلى صورته جيداً، ثم نظر إلى الحارس متسائلاً بلهفة واضحة: انظر إلى الصورة هل هذا أنا؟ انظر جيداً!!

فرد الحارس هازئاً: لا ..إنه جارنا أبو حسين أيها الوغد!! ألا تعرف نفسك؟

حـدق صـطوف جيـداً فــي الصـورة، قربهـا مـن عينيه، وعاد يسأل السجان والرجاء يفوح من كل كلمة:" هل لي بمرآة..أرجوك أعطني مرآة"

نظر إليـه الحـارس مستنكراً ثم صـاح بـه: اخـرس وعـد مكانـك، هـل تعتقـد أنـك نزيـل فنـدق خمـس نجوم؟ ألا تريد حلاقاً أيضاً؟

سكت صـطوف وعـاد إلـى صـورته يحـدق بهـا، ثـم تـوجه إلـى أحـد المسـاجين قـائلا: انظـر إلـى هـذه الصورة.. من هذا؟

نظر السجين إليـه باسـتخفاف قـائلاً: هـل تعتقـد أن أحـداً سـوف يتطـوع ليأخـذ علـى عـاتقه تهمتـك الوســخة..أغرب عـن وجهـي قبـل أن أشـوه لـك وجهك.

عــاد صــطوف إلـــى مكـــانه وعينـــاه لا تفارقـــان الصـورة، وهـو يحـدث نفسـه بصـوت منخفـض تنضـح نـبرته بـالمرارة: أيـن التشـوه، كـان علـى خـدي الأيمـن شـيء ككبـد بقـرة أيـن هـو؟ لمـاذا لا

أراه في الصورة؟ كيف يمكنه أن يختفي فجأة هكذا؟

صار يربت على خده الأيمن بكفه، بل حقيقة كان يصفع ذلك الخد بقوة, كما لو كان يوقظ نفسه من كابوس، أو أنه يعاقب خده على خداعه له طيلة تلك السنوات العجاف التي مرت بعمره بسبب تشوه لم يكن هناك.

فجأة اختفى صوت صطوف ليس لأنه صمت، بل لأنه كان ينتحب دون صوت، كان يحاكم أمه للمرة الأولى في حياته، فقد اكتشف في تلك اللحظة أن السبب الذي كان يعطيها الحق في إقصائه بعيداً عن حضنها، وعن كل ما في البيت ومن فيه، بعيداً عن النبض، عن الحياة، عن البشر، عن كل ما هو حي، لم يكن موجوداً أصلاً، فهو ليس مشوهاً كما كان يعتقد، لماذا إذن؟ لماذا كان عليها أن تنبذه بتلك الطريقة ؟ لماذا كان عليها أن تشعره في كل لحظة باحتقارها له، وبأنه لم يستحق قبساً ولو صغيراً من اهتمامها كل تلك

السنوات؟ أسئلة كثيرة ظلت معلقة على لهاة الدهشة، يحدث أحياناً أن تكون الأسئلة أكثر قسوة من إجاباتها، أكثر اشتعالاً، وهي تندلع في صدر صاحبها فتحرق أطراف حواسه دون هوادة، في تلك اللحظات توحد صطوف مع شطره الناصع، كانت شرارة تلك الأسئلة كفيلة بجعل الالتحام شديداً، التحام سقط بعده الشطران معاً في قاع الجحيم.

أي فضيلة تنتظر منه أيها المعاتب، هو الذي وضعته الحياة في سلة الخطايا منذ ولادته، وحبست روحه في جزء قصي فعلق في مكان ما، مكان ضيق معتم رطب بشع تفوح منه رائحة العفونة، وكيف كان ممكناً بعد ذلك ألا تمتد تلك العفونة فتصيب روحه قبل الجسد؟

كيف حدث ذلك ولماذا؟ لم يعد في مقدوره أن يصبر على أسئلته، فصرخ فجأة بها، مما اضطر الحارس إلى الصياح في وجهه، وإجباره على الصمت.

تطاول ذلك النهار كثيراً، وتمطت ساعاته بغير انتهاء، وصطوف يفقد شيئاً من اتزانه مع كل لحظة منه، وعندما لـمَّ النهار شتات خيباته المشرقة بين قضبان تحبس بينها أنفاس رجال ضلوا الطريق لسبب أو لآخر، وحل الليل بوحشة ظلامه كان صطوف يضرب أخماساً بأسداس، وينبثق من رأسه مع كل دقيقة سؤال جديد لا يعرف له جوابا يبرد حره في كبده، كان يعاني فراق كائنين مشوهين التصقا به عمراً بحاله، حتى لم يعد يفكر في الانفكاك عنهما ، قطه الصغير، ونتوءات حمراء على خده الأيمن، ولا يستطيع عقله مهما حاول عقلنة حدث كهذا وتبريره منطقياً، أن يمنحه تفسيراً مقنعاً لاختفائهما هكذا..دون أثر.

نام المساجين كالعادة بانتظار يوم غد لمحاكمة بعضهم، ومن بينهم صطوف، إلا أنه لم يستطعْ أن يجبر عينيه على الإغماض، كان قلبه يتداعى، أعصابه تتمزق، روحه تهترئ، لم يعدْ يفكر في

المحاكمة فقد أصبح أمرها تافهاً جداً مقارنة باكتشافه الأخير.

تذكر فجأة وهو يفكر في أمر ذلك التشوه الهارب من وجهه حديثاً دار بين أبيه وأحد رجال الحي، عندما ولد للأخير طفل على وجهه بقع حمراء، يومها سمع أباه وهو يطمئن الجار قائلاً أن ابنه ولد بنفس البقع البارزة الحمراء على خده الأيمن، إلا أنها اختفت بعد بضعة أشهر من وجهه، يومها استغرب صطوف أن هناك من بين أخوته من ولد مشوهاً مثله، وتمنى لو أنه هو المعني بالحديث لكان تخلص من ذلك التشوه الذي أرسل به إلى جحيم الحياة.

تراه كان المقصود يومها دون أن يدري؟ لماذا إذن كانت أمه تناديه بـ(وجه النحس)، و تكرر عليه بين الحين والآخر أن بوسع وجهه أن يقطع الرزق، لماذا كرروا عليه قصة النتوءات الحمراء التي ولد بها إن كانت قد ذهبت بعد ولادته، وكيف حدث أنه رآها عندما كان صغيراً..رآها فعلا قبل

أن يضرب المرآة بيديه ويهشمها بفرشاة الشعر لتقع تحت قدميه قطعاً متناثرة، وتعكس صوراً ممزقة أشد تشويهاً لوجهه، أجبرته على مقاطعة المرايا نهائياً إلى غير رجعة، انتهى الأمر يومها بعلقة ساخنة من أمه، رمته بعدها في تلك الزاوية وحذرته من الخروج منها.

تذكر بعدها أن الخد اليمين الذي كان يخفيه دائماً، هو الذي كان يواجه سرير أمه عندما دخل إلى غرفة نومها للمرة الأولى في ليلتها الأخيرة، يوم شعر برغبة شديدة في الارتماء بحضنها، إلا أن شعورا سيئا اعتراه يومها، ولم يستطع فهمه، فخبأ عنها خده لئلا تحدجه بتلك النظرة إن وقع نظرها على التشوه الذي كرهته بسببه، بينما أخفى الخد الأيسر في أيام أخرى، تصادف فيها دخوله إلى المطبخ أثناء وجود أمه فيه لتدفع إليه بطبق طعامه ، ذلك أن باب المطبخ يقع على يمين الجدار عندما يكون داخلاً إليه، مما يجعلها تقف إلى يساره، تذكر أيضاً أنه في كل مرة انتابه

الفـزع، وتعـرض لنوبــة مـن تلـك النوبـات الـتي تجعلـه يتحـرك بقلـق حركـة بندوليـة إلـى الأمـام والخلف، كان يخفي الخد الأقرب من المرأة الـتي سببت لـه نوبة الفزع تلـك باقترابهـا منـه، إذن فقد كان التشوه متحركاً طيلة عمره، لأنـه لم يكن علـى خـده بـل كـان فـي رأســه فقـط يضـعه مـن حيـث يهاجمه الخوف، وباتجاهه نفسه.

ثم عـاد وتـذكر قطـه، وفجـأة بـدا جـواب سـالم عن سؤالـه واضحاً، فقد أخبره سالم بأن القط مـات فـي اليــوم التــالي بعــد أن جلبـــه وداواه عنـــدما كـــان صغيراً، كيف حدث ذلك؟ كلا لم يمت القط، والدليل أنــه كـان يعـانقه ويبـادله الحديث فـي كل ليلـة منذ ذلـك الـوقت، قطـه الصـغير الــدافئ..هل يعقـل أنــه مجرد وهم هو الآخر؟ كيف؟! لا يمكـن ذلـك فقد كان يشـعر بـدفء وبـره عنـدما يضمه..قـط صـغير أسود اللون، يعاني عوراً بشعاً في عينـه اليسـرى، ويعـرج علــى إحـدى قـائمتيه الأمـــاميتين..لكنه لا يذكر تماماً أيهمــا..اليمنى أم اليسرى، كـان يـذكره

بنفسه، وبالقطة العرجاء التي كانت تقدم أمه لها الطعام وتزجرها بعدها لتبتعد عن البيت، اعتبرت الأم أنه ليس للقطة حق في دخول المنزل، تماماً كما أنه ليس لصطوف حق في تجاوز ركنه القصي، والدخول إلى وسط المنزل، ثم اختفت تلك القطة فجأة، قال له أخوه ناجي أنه رأى جثتها، وقد دهستها سيارة مسرعة، بينما كانت تحاول العبور إلى المنزل، نعم هو يذكر ذلك الآن تماماً، كأنما تنقشع من أمام عينيه غشاوة من غيم أو ضباب، فيرى تلك الأشياء التي نسيها في غمرة أوجاعه، يتذكر الآن قطه الصغير الأعور، وجده بعد أن ماتت القطة العرجاء بعدة أيام، كانت قائمته الأمامية تنزف وهو يلتصق بالحائط خائفاً، وعندما اقترب منه ليحمله، انكمش القط على نفسه وتكور مخفياً وجهه وهو يرتجف بشدة، وتراجع أكثر عندما اقتربت منه يد صطوف لانتشاله كأنما كان يريد الالتحام بالحائط، لكن ذلك القط الصغير لم يكبر أبداً.. نعم هو لم يكبر أبداً...كيف حدث ذلك؟ كيف نجا من انسياب الزمن

على جسده؟ حتى أنه لم يطعمه مرة واحدة بعد ليلته الأولى معه..كيف يمكنه أن يعيش من دون طعام؟ ثم أي قط بوسعه أن يعيش عمراً بهذا الطول يقترب من الثلاثين عاماً..ودون أن يكبر أو يأكل أيضاً.. هل هي معجزة؟ بالتأكيد لا تأتي المعجزات لرجل مثله..فعلاوة على أنه ليس نبياً ...هو ليس حتى برجل صالح!! إذن..لم يكن ثمة كائن فرائي ينام إلى جواره..تلك كانت ليلة واحدة لكن عقله بطريقة أو بأخرى أوقف الزمن عند حدود تلك الليلة. وبقي يعيش كل ليلة تفاصيل تلك الليلة التي نام فيها معانقاً كائنا يحتضر.

فاجأته تلك الحقيقة وقضت مضجعه، لم يعد يدري بأي نار من نيران تلك الحرائق يكتوي، كان يشعر باللهيب ينسل في شرايينه، وبالنار وهي تكوي قلبه، حتى أن بوسعه أن يشم دخان احتراقه وأن يختنق جراء تجمعها في صدره، بل أنه سعل تلك الليلة لشدة كثافتها.

عندما بزغ اليوم التالي، كان من المفترض أن يؤخذ إلى قاعة المحاكمة، فذلك النهار هو موعد محاكمته على جريمته، ولكن من يحاكم أمه وحبيبته وزوجته وكل نساء الأرض على قتله؟في ذلك اليوم تم نقله في سيارة إسعاف إلى المشفى بدلاً عن القصر العدلي، بعد أن سحق وجهه أثناء الليل، والجميع نيام بقضبان السجن، وهو يضرب خده اليمين بتلك القضبان بقوة، ودون صوت، ويمزقه بأظافره شر تمزيق، ذلك ما رآه المساجين حينما استيقظوا صباحاً، لكن ما حدث يومها شيء آخر تماماً، فقد استيقظ صطوف في سرير أمه والى جوار جثتها الباردة، رفع رأسه حتى واجه وجهها، أدار وجهها بقوة إليه، وأجبرها على النظر إلى وجهه، أخبرها بأنه لا يحمل في وجهه أي تشويه، وأن عليها أن تحبه تماماً كما تحب أخويه، وبكى على صدرها كما لم يفعل يوماً. كان يدرك تماماً بأنه لن يستطيع أن يرى لنفسه وجهاً طبيعياً خالياً من التشوه ما لم تره هي كذلك، لذلك أدار وجهها إليه مرات

ومرات مواجهاً عينين باردتين، محـاولاً ألا ينظـر إليهمــا مباشــرة، وألا يعيرهمــا انتباهـــاً...ريثما تستطيع أن تنظر إليـه جيداً، وتمعن فـي ملامحـه لتكتشف أنـه ليس مشوهاً.. فتختفـي تلـك النظـرة الباردة من عينيها إلى الأبد.

****

اصدرات للكاتبة

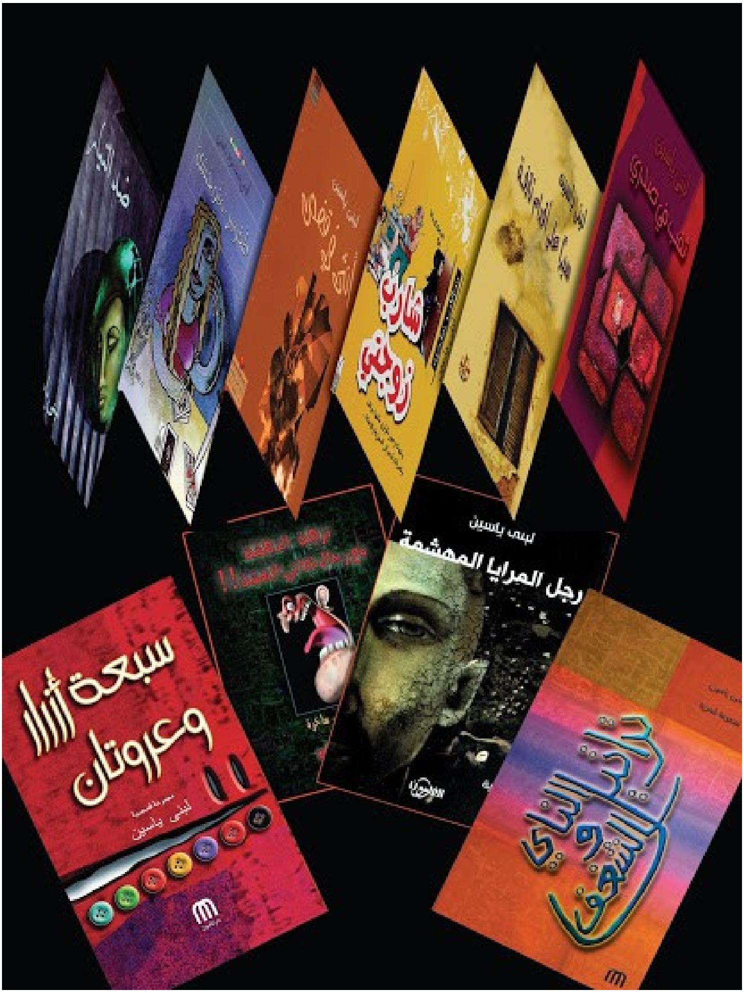
سبعة أزرار وعروتان
مجموعة قصصية
لبنى ياسين
لبنى ياسين
رجل المرايا المهشمة